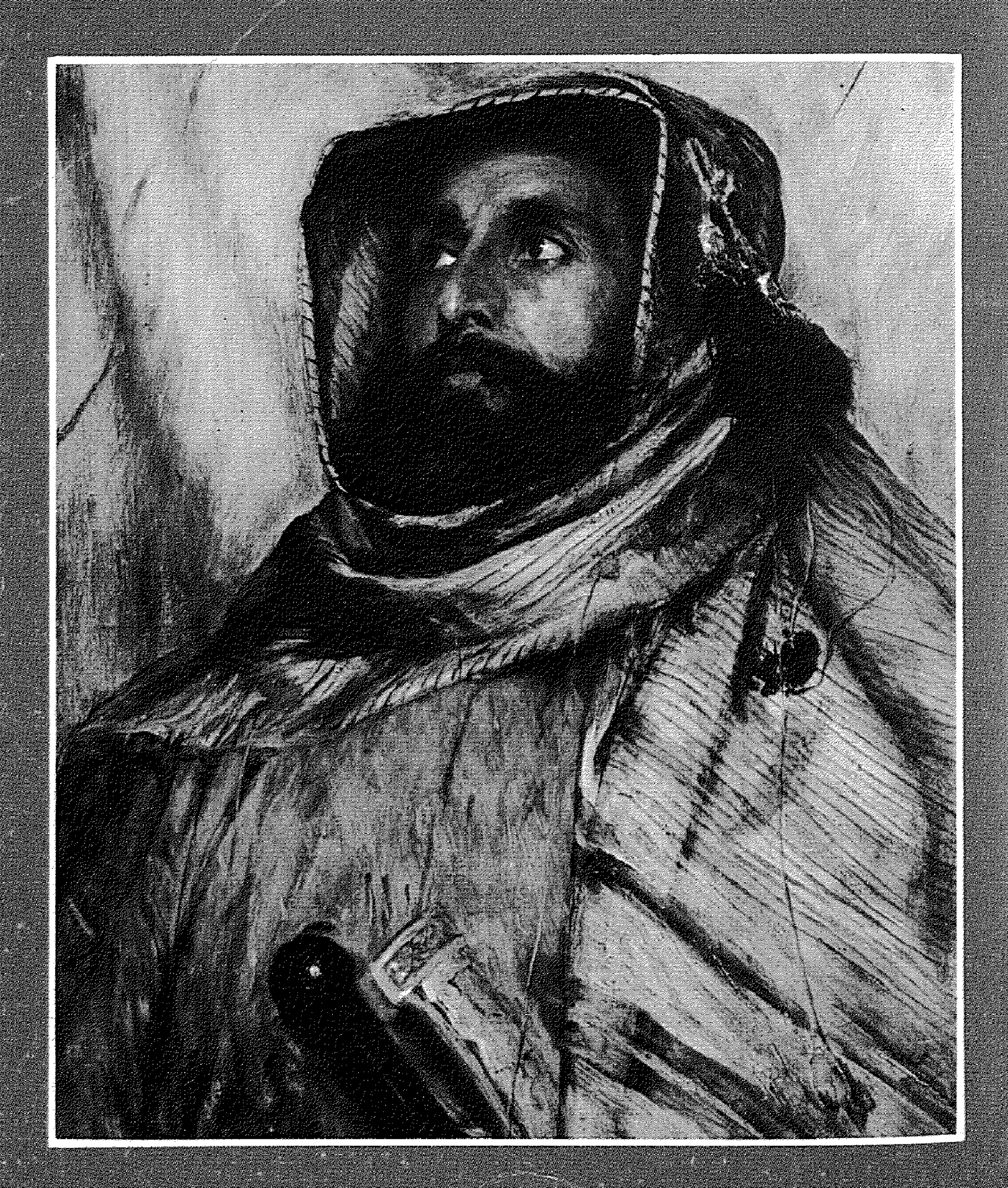
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة السادسة • العدد ٦١ • تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٣م • الموافق صفر ١٤٠٤هـ



تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تحليل تاريخ معاصر

العدد ٦١ تشرين الثاني ١٩٨٣

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT , LEBANON

Vol. 6 No. 61 Nov. 1983

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



«تاريخ العرب والعالم» في عامها السادس

ليس في العالم منطقة تناوبها الدهر برفعه وخفضه كبلاد العرب، حتى ليصعب على السائح العادي حين يمر بها اليوم، وهي في حالتها الحاضرة من التفكك والتجزئة، أن يفطن إلى أن هذه الأقطار العربية الشاسعة الغنية بمواردها، كانت في الماضي مهد الحضارة من علوم وفنون وديانات، وأنها كانت طريق التجارة العالمية بين آسيا وأفريقيا، وأوروبا.. حتى أن الأستاذ ويليام هاس المؤرخ الشهير استشهد بها قائلا:

«إنها البلاد التي وقعت فيها معظم حوادث التاريخ الضخمة، وإننا فيما يتعلق بتاريخ الحضارة العربية نعلم ان كثيرا من معارفنا قد أتتنا رأسا من بلاد الشرق الأوسط، وأنه ليس هناك شيء عندنا لا يمكن أن نرجع بأصوله إلى الشرق الأوسط..».

وللتاريخ طريقة خاصة وغريبة في تعيين الوقت، وتوقيت الحوادث.. فلقد مضت اجيال قبل ان تتحرك أكثرية العالم التي أنشئت الحضارات الأولى، في آسيا وأفريقيا، وتفطن إلى أن لها دورا يجب أن تلعبه في مصير العالم.. في مصير عالمها وعالم الآخرين أيضا.. الذين استولوا على أرضهم واستعمروهم واستغلوهم..

ولقد بدأ هذا الليل الطويل المظلم في تاريخ آسيا وأفريقيا في القرن الخامس عشر، عندما غادرت سفن القراصنة الأوروبيين مرافئها في المحيط الاطلنطيكي للاستيلاء على مدن الشعوب الأخرى وثرواتها.. ثم بدأت المحاولات الأولى للسيطرة الأوروبية على الشرق..

ثم جاء التجار وأصحاب المعامل، ليحلوا محل القراصنة، واستولوا على آسيا وأفريقيا بالحديد والنار.. ثم جاء بعد هؤلاء أصحاب الأموال من رجال القرن الحاضر الذين أرادوا تطويق العالم كله، خصوصا المستعمرات وأشباه المستعمرات، بشركات مالية ليفيدوا من ثرواتها وخيراتها.

وظهرت على الأثر امبراطوريات ـــ كانت عبارة عن سجون لمئات الشعوب وملايين من الناس ـــ لا تغيب الشمس عن الأرض التي تملكها..

وفجأة، أخذ مجرى التاريخ يتبدل، وابتدأ من أول القرن الحاضر، بدأت موجة من الانتفاضات الشعبية، تعيد الأجانب إلى حدودهم.. وانحسرت عن سمائنا سحب الاستعمار والاستعباد التي كانت تظلل أرضنا العربية مدى مئات السنين..

ثم بدأت أسس الامبراطوريات القديمة تنهار.. وأخذ العرب يهزون سلاسلهم، ثم انبعثوا يقفون على اقدامهم.. وراحوا يكتبون تاريخهم من جديد..

ولكن على الرغم من هذا الانبعاث، فإن الاستعمار ترك الكثير من بصماته في الوطن العربي على جميع المستويات، ولعل أبرز «انجازاته» كانت اسرائيل التي زرعها في قلب الوطن، والتي أصبحت تهدد جميع الانجازات التي حققها العرب خلال النصف القرن الماضي.

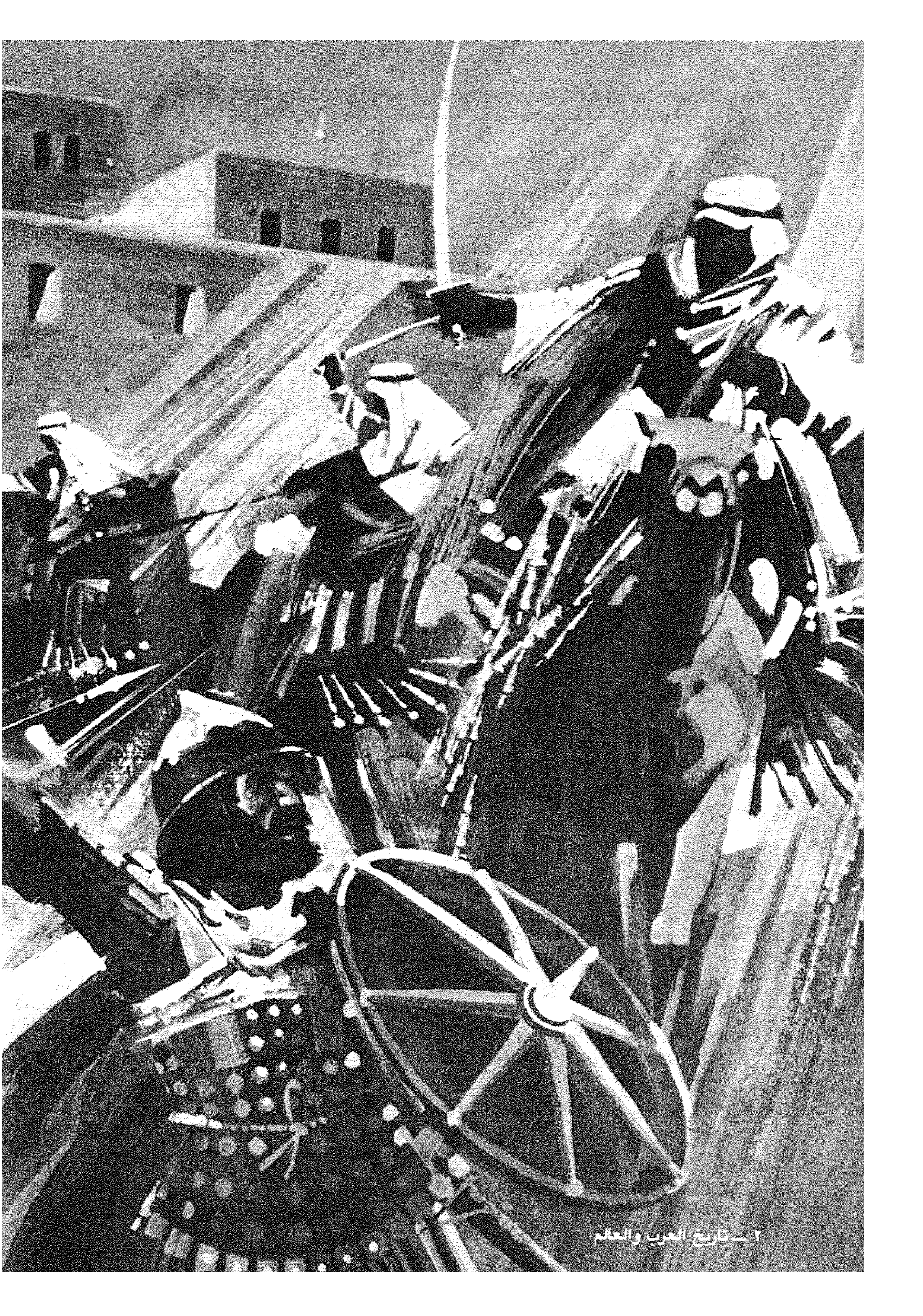
ولكن.. على الرغم من هذا الواقع المؤلم والخطير فإن الأمل والايمان بمستقبل عربي مشرق لا بد أن يستمران.

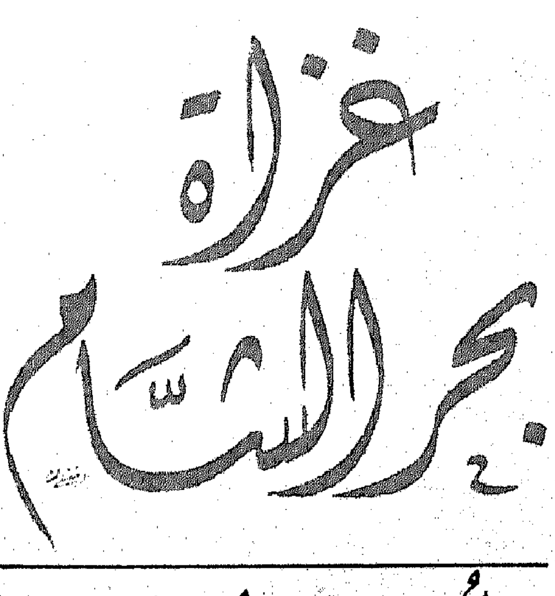
إن الشمس لا بد أن تشرق غدا، والطقس سيزداد حرارة في الشهور القادمة، والأشجار التي نراها في الحدائق ستورق وتثمر.. وعجلة التاريخ مهما تباطأت ستكمل دورتها..

ومجلة «تاريخ العرب والعالم» وهي تدخل عامها السادس ستواصل رسالتها لاعادة بحث وتقويم تاريخنا وتراثنا القومي وثقافتنا على أسس علمية وموضوعية، وذلك بهدف الوصول إلى رؤية موضوعية لتطورنا القومي والحضاري والانساني.

وكلنا أمل وثقة وإيمان بأن تاريخ الغد سيكون أكبر معبر عن آمال وطموحات المواطن في جميع ارجاء الوطن العربي.

فاروق البربير





وأُمَرَاؤُهُ في العَصْرِ العَبّاسيْ

د. عمر عبد السلام تدمري

الحلقة الأولى

في هذه الدراسة نعود لوصل ما انقطع من هذا الموضوع[١] الذي يستعرض أسماء الغزاة في «بحر الشام» والأمراء الذين كان لهم دورهم في الذوْد عن السواحل العربية، ومن خلال العرض نؤرخ لفترة من الصراع (العربي ــ البيزنطي)، تعتبر من أكثر الفترات التاريخية غموضا في تاريخ ساحل الشام ولا يخفى أن انتقال مركز الخلافة من دمشق إلى الأنبار ثم بغداد، كان سببا أساسيا في ندرة المعلومات عن الوقائع التاريخية ومجريات

الحوادث التي شهدتها هذه المنطقة، ولذا كان على الباحث المؤرخ لهذه الفترة أن لا يكتفي باعتماد المصادر التاريخية البحتة فحسب، بل يجدر أن يستعين بكل مصدر غير تاريخي يساعد على إنماء معلوماته وإثرائها بالوقائع التي توفر له مادة وفيرة يمكن أن يؤلف بينها، ويؤلف منها. ومن هنا تأتي أهمية كتب التراجم والطبقات، وكتب الأدب ودواوين الشعراء، وكتب الحديث والفقه، وكتب الرحلات والجغرافيا، وغيرها، في رفد كتب التاريخ بالمعلومات الثرّة.

في عهد أبي جعفر المنصور



عندما توفي «أبو العباس» المعروف بالسّفاح، أول خلفاء العباسيين في سنة ١٣٦هـ. وصل الخبر إلى «عبد الله بن علي» وهو في الدّرب[٢] متوجها يريد غزو البيرنطيين، فدعا الناس لمبايعته بالخلافة، ولكن أبا جعفر المنصور تخلص منه، واغتنم الامبراطور «قسطنطين» فرصة انشغال المنصور في تثبيت ملكه، فقام بحملة إلى ملطية[٣] قادها بنفسه ودخل المدينة فقهر أهلها وهدم سورها في سنة ١٣٨هـ[٤]. وقيل (١٣٩هـ)، فغزا «العباس بن محمد بن علي» الصائفة ومعه «صالح بن علي» الذي بنى ما كان البيزنطيون هدموه من ملطية[٥]. ويبدو أن الامبراطور كان يرغب في فداء الأسرى الذين لديه، والمنصور يأبى ذلك، مما دفع بالامام الأوزاعي «عبد الرحمن بن عمرو» لأن يكتب إلى الخليفة رسالة شديدة اللهجة يحثه فيها على المبادرة إلى الفداء، وقد حفظ لنا «أبو نعيم الأصبهاني» نص الرسالة في مصنفه الخاص برجال الزهد والتصوف، المعروف بـ «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء»، والنص غير موجود في المصادر التاريخية المعروفة.

قال «أبو نُعَيم»:

«لما خرج «ابراهيم» و «محمد» على أبي جعفر المنصور، أراد [من] أهل الثغور أن يعينوه عليهما، فأبوا ذلك، فوقع في يد ملك الروم الألوف من المسلمين اسرى، ـ وكان ملك الروم يحب أن يُفادي بهم، ويأبى أبو جعفر ـ فكتب الأوزاعي إلى [أبي] جعفر كتابا:

«أما بعد، فإن الله تعالى استرعاك أمر هذه الأمة لتكون فيها بالقسط قائما، وبنبيه صلى الله عليه وسلم في خفض الجناح والرأفة متشبها، وأسأل الله تعالى أن يُسكن على أمير المؤمنين دهماء هذه الأمة، ويرزقه رحمتها، فإن سايحة المشركين غلبت عام أول، وموطؤهم حريم المسلمين، واستنزالهم العواتق والذراري من المعاقل والحصون، وكان ذلك بذنوب العباد، وما عفا الله عنه أكثر، فبذنوب العباد استنزلت العواتق والذراري من المعاقل والحصون، لا يلقون لهم ناصرا، ولا عنهم مدافعا، كاشفات عن رؤوسهن وأقدامهن، فكان ذلك بمرأى ومسمع، وحيث ينظر الله إلى خلقه، واعراضهم عنه، فَلْيَتّقِ الله أميرُ المؤمنين ولْيَتّبِعْ بالمُفادات بهم من الله سبيلا، ولْيَخْرُجْ من مَحَجَّة الله تعالى، فإنّ الله تعالى قال لنبيّه: (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلا)[٦]. والله يا أمير المؤمنين مالهم يومئذ فَيْءٌ موقوف، ولا ذمة تؤدي خراجا إلا خاصة أموالهم، وقد بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إني لأسمع بكاء الصبي خلفي في الصلاة فأتجوز فيها مخافة أن تفتتن أمه» فكيف بتخليتهم يا أمير المؤمنين في أيدي عدوهم يمتهنونهم ويتكشفون منهم ما لا نستحله نحن إلا بنكاح؟ وأنت راعي الله، والله تعالى فوقك ومستوف منك، يوم توضع (الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)[٧]. فلما وصل إليه كتابه أمر بالفداء»[٨].

وكان الامام الأوزاعي من جملة المكتتبين في ديوان ساحل الشام المنقطعين للرباط والغزو، وقد خرج في غزوة إلى أرض الروم حول سنة



□ الإمام الأوزاعي.

١٤٠هـ، وأبلى فيها بلاء حسنا، وأفاض بعلمه وفقهه على أصحابه من الغزاة فاشتهر فضله وكثر الثناء عليه، وفي ذلك يقول «اسماعيل بن عياش» عالم أهل حمص: «انقلب الناس من غزاة الندوة سنة ١٤٠ فسمعتهم وهم يقولون: الأوزاعي اليوم عالم الأمة»(٩).

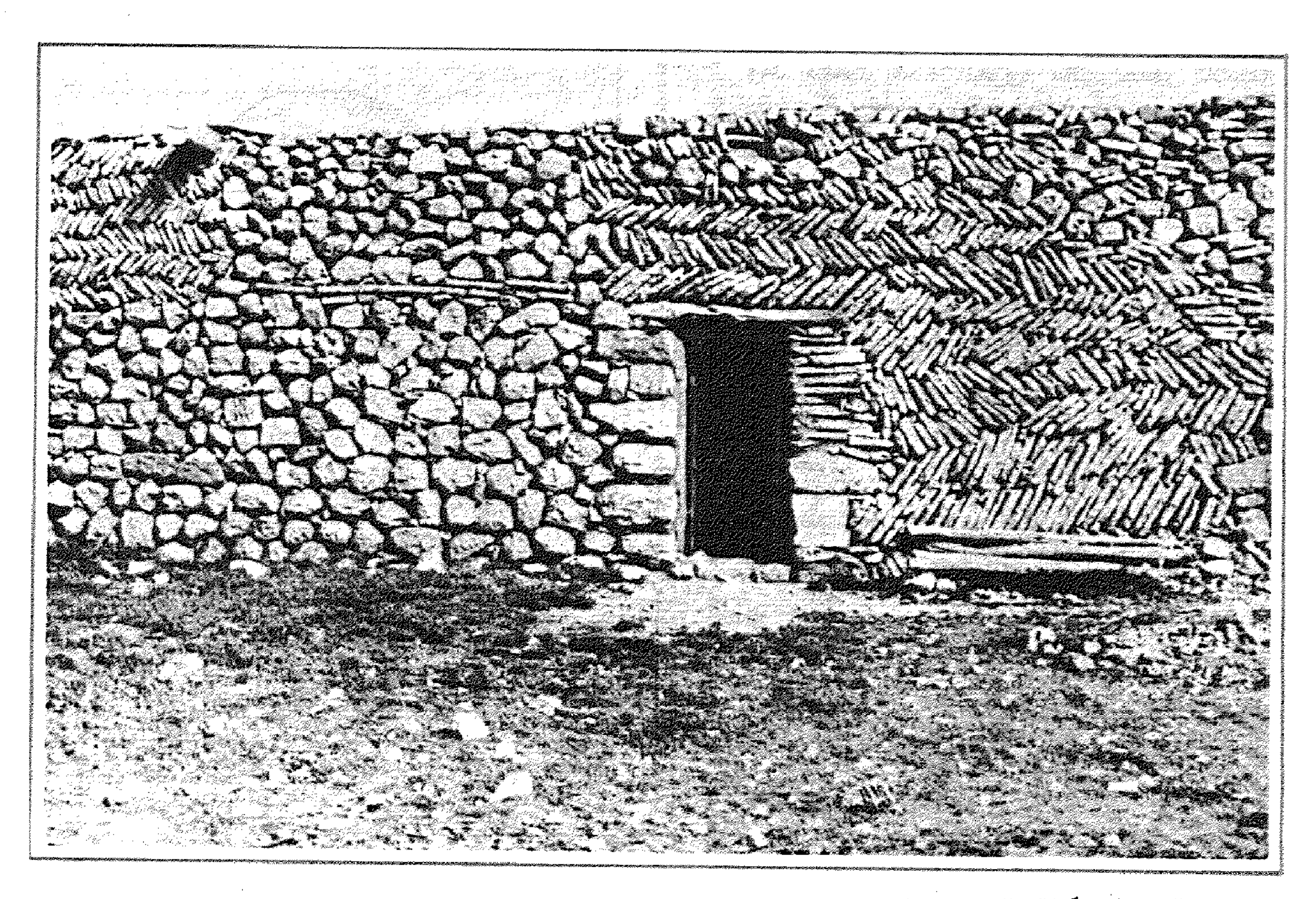
وهدأت الجبهة الشمالية بين العرب والبيزنطيين إلى سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م. لانشغال أبي جعفر بأمر ابني عبد الله بن الحسن،، ولكن بعضهم ذكر أن «الحسن بن قحطبة» غزا الصائفة مع «عبد الوهاب بن ابراهيم الامام» في سنة ١٤٠هـ/٧٥٨م. وأقبل الامبراطور «قسطنطين» في مائة الف فنزل جيحان(١٠)، وهناك بلغه كثرة المسلمين، فأحجم عنهم. وانقطعت الصوائف بعد ذلك إلى سنة ١٤٦هـ(١١).

وفيما كان البيزنطيون يضغطون على منطقة الثغور في الشمال، كان أسطولهم يتجمع في قبرس حيث انطلق منها نحو ساحل الشام، فأتى إلى مدينة اللاذقية وأحرقها(١٢)، وواصل هجومه على الساحل حتى نازل طرابلس ودخلها في سنة ١٤٠هـ/٧٥٨م(١٣) ولكنه لم يطل الاقامة عندها، حيث ارتد إلى قبرس. ولم تمدنا المصادر التاريخية بتفاصيل أوسع عن تلك الغزوة.

وقد دفعت هذه الغزوة بأبي جعفر للانتقال إلى دمشق بعد زيارته لبيت المقدس ليكون على كثب من أوضاع مدن الساحل. وهناك قام باتخاذ بعض التدابير لدعم الساحل واتخاذ الاجراءات الكفيلة بحمايته، فعزل «يونس بن الليث العبسي» عن غازية بحر الشام، وولى مكانه «العباس بن سفيان الخثعمي»(١٤). ووجه إلى مدينة صيدا «نصر بن حرب» وكان في حرسه(١٥). واستقبل الأميرين التنوخيين اللخميين: «المنذر بن مالك» و «أرسلان» وقد قدما عليه من بلاد المعرة، فرحب بهما واختارهما وعشيرتهما للسكنى في «لبنان» بعد أن سمع بشجاعتهم، ليحفظ بهم طريق الساحل، حيث تفاقم خطر أنباط الجبل ووصلوا بتعدياتهم إلى حمص وحماه، وعجز عمال البلاد عن القضاء على سطوتهم لتحصنهم في الجبال. وطلب من التنوخيين أن يسكنوا في الجبال القريبة من بيروت إذ كانت خالية، ورغبهم بالاقامة هناك بأن انعم عليهم باقطاعات معلومة في «لبنان» موثقة بمرسوم(١٦).

وتتبع المنصور في رحلته من بيت المقدس إلى الرّقة، حصون سواحل الشام ومدنها فعمرها وحصنها وبنى ما احتاج إلى البناء منها(١٧)، وخاصة مدينتي اللاذقية وطرابلس اللتين تعرضتا لغزوة الأسطول البيزنطي. وفعل مثل ذلك بمدن الثغور، فأمر ببناء ثغر المصيصة، ففرغ بناؤه في سنة ١٤١هـ(١٨) وولى «وزير بن عبد الحميد النضري» غازية بحر الشام لفترة، ثم عزله بعد أن ولى «صالح بن علي» جند دمشق والأردن والبحر، فأعاده صالح وولاه البحر من جديد(١٩)، ثم ولي البحر بعده «عبد الله بن سعد»(٢٠).

ويظهر أن النظام الدفاعي الذي كان متبعا أيام الدولة الأموية، كان لا يزال معمولا به حتى هذا الوقت، وهو أن تأتي الأجناد من المناطق الداخلية إلى الساحل فتلبث فترة قصيرة في المدن والثغور، ثم لا تلبث أن تعود إلى قواعدها في دمشق أو حمص أو بعلبك، أو تخرج للغزو في بلاد الروم، ولا يبقى في الحصون الساحلية سوى العدد القليل من المرابطين، من أهل تلك البلاد، مسلمين وأهل ذمة. ولما كان الوضع

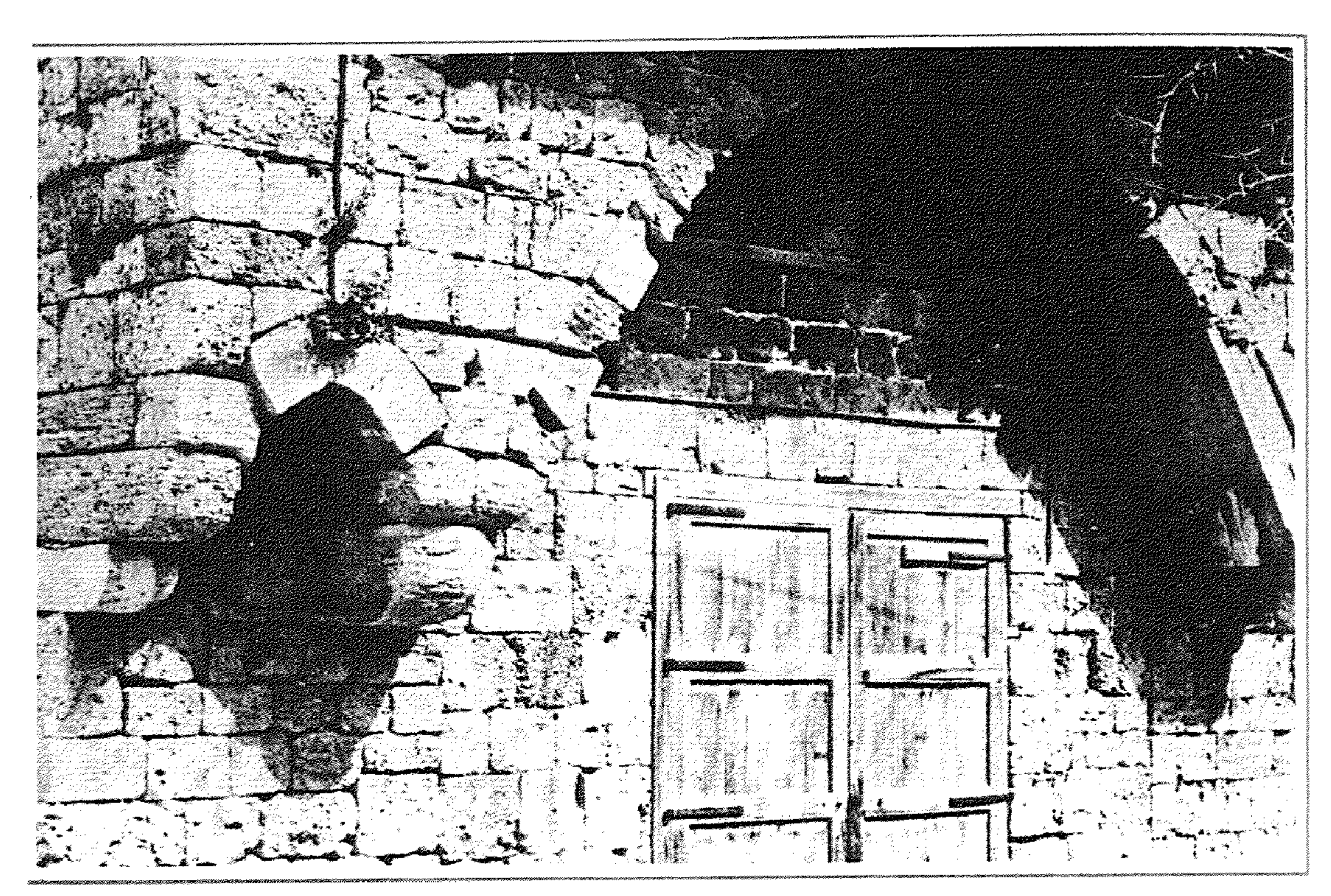


□ بيت قديم في جبّولة، البقاع ــ لبنان.

مستمرا على هذا الحال مما يجعل الساحل عرضة للغزوات البحرية، فقد انبرى الامام الأوزاعي لانذار الخليفة العباسي بخطورة الأمر في الساحل، وطلب منه أن يأمر بتخصيص أعطيات سنوية لأهل الساحل حتى يقووا على المرابطة وحراسة الأبراج والحصون الساحلية، وأن يرفع من قيمة تلك الأعطيات من عشرة دنانير إلى أكثر من خمسة عشر دينارا في السنة، وأن يعجل بدفع الأعطيات التي استحقت للمرابطين بعد أن انتهى العام دون أن يصلهم شيء منها. وقد حفظ لنا «ابن أبي حاتم الرازي» في كتابه عن رجال الحديث وتجريحهم وتعديلهم ، النص الكامل لكتاب الأوزاعي إلى الخليفة العباسي بهذا الخصوص، وهو غير موجود، أيضا، في أي مصدر تاريخي آخر، نختصر منه ما يلي:

«... وقد كان أمير المؤمنين ــ حفظه الله ــ قصر بأهل الساحل على عشرة دنانير في كل عام سلفا من عطياتهم، وأمير المؤمنين ــ أصلحه الله ــ إن نظر في ذلك عرف أنه ليس في عشرة دنانير لامرىء ذي عيال عشرة أو ادنى من ذلك أو أكثر كفاف. وإن قوّت عشرة وقتّر على عياله، فربما جمع الرجل عشرته في غلاء السعر في شراء طعام لعياله ما يجد منه بدا، ثم يُدان بعد ذلك في أدامنهم وكسوتهم وما سوى ذلك من النفقة عليهم في عشرة لقابل. ولو أجرى عليهم أمير المؤمنين ــ أصلحه الله ــ في أعطياتهم سلفا في كل عام خمسة عشر دينارا ما كان فيها عن مصلح ذي عيال فضل ولا قدر كفاف.

وأهل الساحل بمنزل عظيم غناؤه عن المسلمين، فإنه لا يستمر لبعوث أمير المؤمنين فصول إلى ثغوره، ولا سياحة في بلاد عدوهم، حتى يكون من وراء بيضتهم وأهل ذمتهم بسواحل الشام من يدفع عنهم عدوا إن هجم عليهم. وإنهم، إذا كان القيظ، تناوبوا الحرس على ساحل البحر رجالا وركبانا. وإذا كان الشتاء، قاسوا طول الليل وقرّه ووحشته حرسا في البروج، والناس خلفهم في أجنادهم في البيوت والادفاء، فإن رأى أمير المؤمنين ــ حفظه الله ــ أن يأمر لهم في أعطياتهم قدر الكفاف، ويجريه عليهم في كل عام فعل، وقد



□ بيت قديم في جبل لبنان.

تصرمت السنة التي كانت تأتيهم فيها عشراتهم ودخلوا في غيرها حتى اشتدت حاجتهم وظهر عليهم ضررها، وهم رعية أمير المؤمنين والمسؤول عنهم، فإنه راع وكل راع مسؤول عن رعيته»[٢١].

ولا شك أن هذا الكتاب كان له دوره المؤثر في سياسة المنصور، حيث اتجه لاسكان التنوخيين في «لبنان» وقتذاك، مقتديا بسياسة معاوية الذي أسكن المدن الساحلية جماعة من الفرس وغيرهم قبل ذلك بمائة عام تماما.

«ثورة» المنيطرة وأسبابها

من الملاحظ أن جميع الذين أرخوا لهذه الفترة من تاريخ ساحل الشام أعيتهم الحيل في قلة المصادر وندرة المعلومات، فلم يكتبوا مطلقا عن سياسة المنصور، الدفاعية والاقتصادية التي نفذها بعد عودته من رحلته إلى الحج سنة ١٤٠هـ في بلاد الشام، ولا سيما الساحل منها، والعذر في هذا أن المصادر التاريخية القديمة لا تأتي بأية تفصيلات عن تلك الرحلة، فالطبري يكتفي بالقول أن أبا جعفر المنصور خرج حاجا، فأحرم من الحيرة، ثم رجع بعد ما قضى حجّه إلى المدينة فتوجه منها إلى بيت المقدس... ولما قدم أبو جعفر بيت المقدس صلى في مسجدها ثم سلك الشام منصرفا حتى انتهى إلى الرّقة، فنزلها[٢٢]. وكذا قال «اليعقوبي»، و «المسعودي» ومؤرخ مجهول، و «ابن الأثير» وكل من أتى بعدهم من المؤرخين ونقل عنهم.

إن معلومة عادية، كهذه، لا تعطي أي إشارة على الدوافع والأسباب المباشرة التي أدت إلى ظهور حركة التمرد والعصيان على الدولة العباسية في «جبل لبنان».

ولكن، هناك رواية، انفرد بها مؤرخ رومي من نصارى مدينة مَنْبِج يدعى «أغابيوس بن قسطنطين الرومي المنبجي» في كتاب له باسم «العنوان المكلل بفضائل الحكمة» ارسله إلى «رجل فاضل يقال له عيسى بن الحسين»[٢٣]، يمكن أن تكون مؤشرا مهما لتوضيح السبب المباشر للثورة، رغم أن النص المخطوط لهذا الكتاب نشر مضطربا دون تحقيق وضبط، واعتراه التقديم والتأخير، وخاصة في النص

الذي نستشهد به هنا، وهو:

«... إن المنصور مضى بجيوشه كلها وسار إلى الجزيرة وأقام بها أياما. ثم عبر الفرات، وصار إلى فلسطين، فعسف الناس جميعا، وألزمهم نوائب وكُلف لم يتقدمه فيها أحد من الملوك، وضيق عليهم تضييقا شديدا، حتى لم يبق إنسان من صانع، ولا طواف ولا حمال ولا حفار القبور ولا فلاح ولا متصدق ولا صنف من صنوف الناس حتى ألزمهم الخراج، وأخذ أموالهم، واشتد بالناس البلاء، وبلغ الجهد حتى أن بعضهم حفر القبور وأخذ الجيف وطحنها وأكلها، وذُبحت الكلاب وشُويت وبيعت في الأسواق، وفنيت الدراهم من أيدي الناس ولحقهم من البلاء ما لا يوصف. ومن تمام المكروه عليهم أنه خرجت لهم طواعين...»[٢٤].

إنه، لا شك، نص وحيد فريد في موضوعه، وقد يتساءل البعض عما إذا كان المنبجي مصدر ثقة فيما أرخ له، فنقول إن المؤرخ العربي المعروف بالمسعودي لم يتهمه أو يضعف من شأنه، بل أشاد بكتابه حيث قال: «وأحسن كتاب رأيته للملكية في تاريخ الملوك والأنبياء والأمم والبلدان وغير ذلك، كتاب محبوب بن قسطنطين المنبجي»[٢٥].

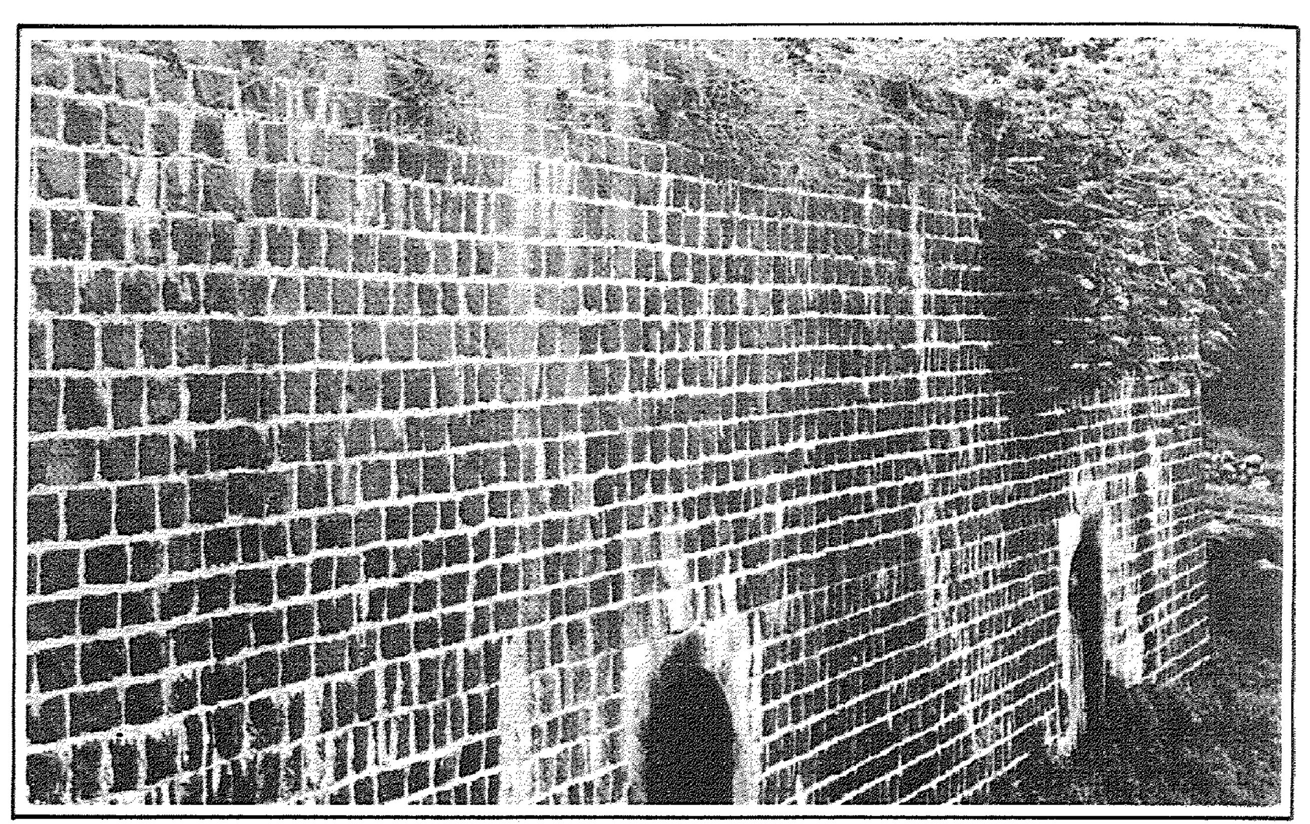
إذن، فالمؤشر بات واضحا، وهو سياسة الضرائب المباشرة التي فرضتها الدولة العباسية بحيث أثقلت كاهل «الناس جميعا» دون تفرقة بين مسلم ونصراني، حسب مفهوم رواية المنبجي.

ولدينا إشارة أخرى تدعم هذا التوجه في تحليلنا لأسباب الثورة، وهذه الاشارة واردة عند المؤرخ الحافظ «ابن عساكر الدمشقي» في تاريخه، يقول فيها إن الخليفة المنصور أرسل في سنة ١٤٠ أو ١٤١ هـ كبار المعدلين من الفقهاء لاجراء تعديل في ما تحصله الدولة من عائدات مالية عن الأراضي، فأرسل «عبد الله بن يزيد» إلى حمص، و «اسماعيل بن عياش» إلى بعلبك، وغيرهما من الفقهاء العدول إلى بقية المدن، فعدلوا ما بقي بيد الأنباط من بقية الأرض على تعديل مسمى، ولم تعدل الغوطة في تلك السنة. وكان أهلها يؤدون العشر، فأعفاهم المنصور من أداء الخراج، ووضع الخراج على ما بقي من أرضها بأيدي الأنباط[٢٦].

والأنباط أو النبط هم السريانيون كما ينقل «المسعودي»[٢٧]، أو هم من بقايا الآراميين كما يقول المستشرق «هنري لامنس» واعتنقوا النصرانية[٢٨].

لقد وضح مما سلف أن السياسة المالية والاجراءات المتشددة في تحصيل الخراج كانت السبب المباشر للثورة، وقد استغلت الدولة البيزنطية هذه الأوضاع لتؤلب نصارى جبل لبنان ليثوروا على الخلافة العباسية، ونجحت في التحالف مع جماعة منهم، فيما بقي جماعة أخرى خارج هذا التحالف، وهذا أثبتته وقائع حركة المنيطرة وما نتج عنها.

أما عن وقائع تلك الحركة، فيعتمد على «البلاذري» و «ابن عساكر» في الوقوف على تفاصيلها الأساسية التي تحكي أنه ظهر في جبل لبنان رجل يدعى «بندار»[٢٩] من أهل المنيطرة في سنة ١٤٢هـ/ ٧٦٠ أو ٧٦١م. ونادى بنفسه ملكا، ووضع التاج على رأسه وأظهر الصليب. فاجتمع عليه أنباط جبل لبنان وغيرهم من أهل الذمة، وأعلنوا عصيانهم وامتناعهم عن أداء الخراج للدولة العربية، وخرجوا في طلب «اسماعيل بن الأزرق» العامل على خراج بعلبك وقصدوا قتله. وظهر أن تحركهم لم يكن ابن ساعته، وإنما كان يهيأ له منذ مدة، ولعلهم بدأوا بذلك منذ سقوط الدولة الأموية المتسامحة مع غير المسلمين، وانتقال الخلافة للعباسيين الذين استخدموا البطش والعنف وسفك الدماء في اقامة ملكهم، ولم تؤاتهم الفرصة للتحرك علانية إلا في هذا الوقت، وشجعهم على ذلك البيزنطيون في غزواتهم الناجحة إلى ساحل الشام والتي هاجموا فيها اللاذقية وطرابلس[٣٠]. فخرجوا بجموعهم المنظمة والمشحونة بالسلاح، بحيث «أمسك الناس عن قتالهم رهبة»[٣١]، فاستفحل أمرهم، وسبوا بعض قرى البقاع فقتلوا المسلمين وأخذوا ما وجدوا من المغانم. وعاد «بندار» فكتب إلى أهل بعلبك يتهددهم وينذرهم بمسيره إليهم ويأمرهم بالطاعة له، ـــ وهذا يعني أنه نصّب نفسه ملكا في جبل لبنان ـــ، وعندما رفض أهل بعلبك إنذاره جاءهم في نحو من



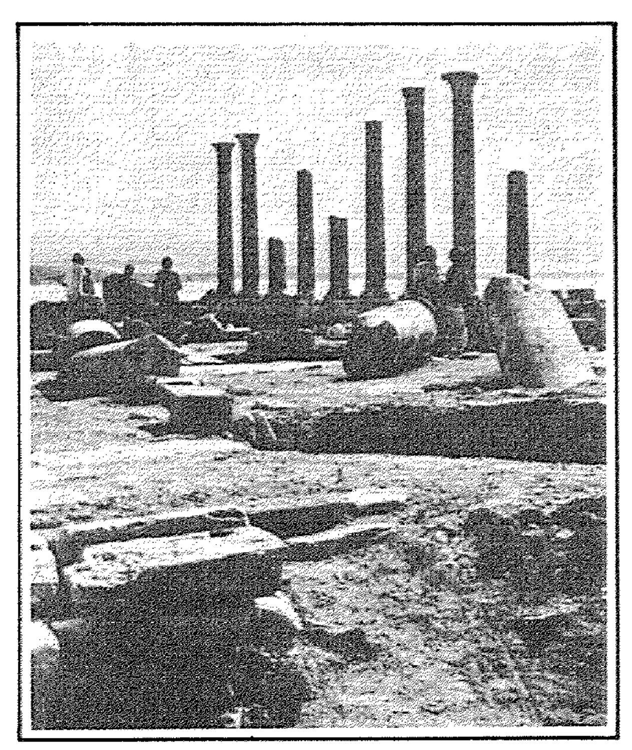
□ البيرة، عكار.

خمسة آلاف رجل، وكانوا قد تأهبوا لدفعه عن مدينتهم، وقاموا بتنفيذ خطة دفاعية ناجحة، حيث أخرجوا خيلا لهم إلى أسفل الجبل المجاور للمدينة لتكمن للمهاجمين، وعندما وصل المهاجمون إلى المدينة ووقع القتال، أظهر أهلها الهزيمة وأطمعوهم فيهم وهم يفرون باتجاه الجبل، فأمعن الأنباط في طلبهم حتى بعدوا، وعند ذلك خرجت الخيل من ورائهم وأحاطت بهم، ووقع القتل في أقفيتهم حتى لقي عدد كبير منهم مصرعه، وانهزم من بقي منهم إلى ناحيتهم واعتصموا بقلعتهم المنيطرة.

ورأى «صالح بن علي الهاشمي» أمير الشام ومصر وقتذاك أن يستأصل شأفة الخارجين على الدولة، فكتب إلى عامله على دمشق «رياح بن عثمان المري» يأمره بانفاذ الخيل إليهم لقتالهم، فخرج جمع غفير من الناس من أهل الديوان وغيرهم من التجار والمطوعة، وعقد عليهم لابنه «يزيد بن عثمان»[٣٢] وكتب إلى صاحب بعلبك ليخرج بأهلها، وكتب إلى «الوليد بن عثمان المرّي» الوالي على ساحل دمشق (ويقصد به ساحل لبنان) ليقوم بتجبيش من كان بالساحل من أهل الديوان المكتتبين وغيرهم، حتى اجتمع على الأنباط ومن معهم جمع ضخم من أنحاء بلاد الشام، فصعدوا جبل لبنان، وهاجموهم في المنيطرة، وواقعوهم أسفل قلعتها وشددوا الضغط والتضييق عليهم حتى الجأوهم إلى الاعتصام بالقلعة، فامتنعوا فيها لبعض الوقت.

وحين أيقن «بندار» أن سقوط القلعة بات وشيكا في قبضة المسلمين قام بالتسلل منها مع جماعة من أصحابه وفروا تحت جنح الظلام إلى الساحل حيث أبحروا إلى بلاد الروم. وتمكن المقاتلة من أهل بعلبك أن يعتلوا سور قلعة المنيطرة الخلفية، وينقضوا على من فيها، وما هي لحظات حتى سقطت بأيديهم. وتحول المهاجمون بعد ذلك إلى قرى الأنباط في جبال لبنان فدخلوها. وكتب صالح بن علي إلى الولاة يأمرهم باخراج من بقي من أنباط لبنان من قراهم في الجبال وتفريقهم في بلاد الشام وقراها[٣٣]. وهذه هي المرة الثانية التي يقتحم فيها المسلمون جبال لبنان، وكانت المرة الأولى في عهد الخليفة الأموي «عبد الملك بن مروان».

ولقد نتج عن تعقب النصارى الخارجين على الدولة العباسية أن أجلي عدد من أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئا للخارجين، فأبعدوا



□ الآثار القديمة على ساحل صور.

بجريرتهم دون ذنب اقترفوه، مما دفع بالامام الأوزاعي وهو مرابط في بيروت لأن يكتب رسالة مطولة إلى «صالح بن علي» اختصرها كل من «أبو عُبيد القاسم بن سلام» و «البلاذري»، نكتفي بما أورده منها «ابن سلام» حيث مهد لها بقوله:

«... وقد كان نحو من هذا قريبا إلى الآن في دهر الأوزاعي بموضع بالشام، يقال له جبل اللبنان، وكان به ناس من أهل العهد، فأحدثوا حدثا، وعلى الشام يومئذ صالح بن علي، فحاربهم وأجلاهم، فكتب إليه الأوزاعي — فيما ذكر لنا محمد بن كثير»[٣٤] عنه برسالة طويلة فيها:

قد كان من إجلاء أهل الذمة من اهل جبل لبنان، مما لم يكن تملأ عليه خروج من خرج منهم، ولم تُطبق عليه جماعتهم، فقتل منهم طائفة، ورجع بقيتهم إلى قراهم، فكيف تؤخذ عامة بعمل خاصة فيخرجون من ديارهم وأموالهم، وقد بلغنا أن من حكم الله جل وعز أنه لا يأخذ العامة بعمل الخاصة، ولكن يأخذ الخاصة بعمل العامة، ثم يبعثهم على أعمالهم، فأحق ما اقتدي به ووقف عليه حكم الله تبارك وتعالى. وأحق الوصايا بأن تحفظ وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقوله (من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه)[٣٥]. من كانت له حرمة في دمه، فله في ماله والعدل عليه مثلها. فإنهم ليسوا بعبيد، فتكونوا من تحويلهم من بلد إلى بلد في سعة، ولكنهم أحرار أهل ذمة، يرجم محصنهم على الفاحشة، ويحاص[٣٦] نساؤهم نساءنا من تزوجهن من القسم، والطلاق، والعدة، سواء. ثم ذكر رسالة طويلة»[٣٧].

ويبدو أن «اسماعيل بن الأزرق» عامل الخراج في بعلبك وضع في السجن لأمر غير معروف، كما حبس أحد أعوانه ويدعى «يزيد بن يحيى الخشني» وطالت مدة حبسه، حتى كتب الأوزاعي إلى أبي عبيد الله وزير المنصور يحثه على تخليصه من السجن بأن يكتب المهدي إلى والده الخليفة بذلك، كما كتب الأوزاعي إلى المهدي مباشرة لتخليص ابن الأزرق من السجن، وجاء في نص كتابيه:

«... إن يزيد بن يحيى الخشني في حبس أمير المؤمنين أصلحه الله، وكان من أعوان ابن الأزرق، ولم يبلغني عنه سوء قرف به، وقد طالت إقامته فيه. فإن رأيت — رحمك الله — أن يكون من المهدي كتاب إلى أمير المؤمنين — أصلحه الله — فيه يذكر من أمره ما نرجو تخلصه به مما هو فيه من ضرر الحبس، فعلت...».

«... وقد كان — أصلح الله الأمير — اسماعيل بن الأزرق في ولايته على بعلبك، فلم يبلغنا عنه إلا عفافا وقصدا، وقد كان من عقوبة أمير المؤمنين — أصلحه الله — إياه في بشره وشعره، ووضعه في الحبس قبله، ما قد علم الأمير، فلم يبلغنا أن ذلك كان عن خيانة ظهرت منه ولا وصف بها، إلا أن يكون تعلق عليه لضعف...»[٣٨].

ومما يحكى عن «ابن الأزرق» أن الامام الأوزاعي كتب إليه مرة في رفع الخراج عن بيت من أهل الذمة في البقاع أدوا إليه خدمة، فلما وصل كتابه إلى ابن الأزرق وضعه على عينيه وقضى للذمي بما رغب[٣٩].

ويظهر أن مسؤولية «ابن الأزرق» المباشرة على تنفيذ السياسة المالية في جبل لبنان، جعلته في مقدمة المستهدفين في حركة الخارجين على الدولة، كما يحتمل أنه سجن بعد تلك الحركة لظروف لم تسعفنا المصادر عنها●

الحواشي والمصادر:

(١) انظر حلقتين سابقتين من «غزاة بحر الشام وامراؤه في العصر الأموي» نشرتا في العددين ٣٨ و ٣٩ (كانون الأول ــ ديسمبر) ١٩٨١ و (كانون الثاني ــ يناير) ١٩٨٢ من المجلة.

(٢) الدرب: إذا أطلق لفظ الدرب اريد به ما بين طرسوس وبلاد الروم لأنه كالدرب. وإياه عنى أمرؤ القيس بقوله:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنا لاحقان بقَيْصرا
(معجم البلدان)

(٣) مَلَطْية: بلدة من بلاد الروم مشهورة الذكر تتاخم الشام. (معجم البلدان).

(٤) تاريخ خليفة بن خياط، ص ٤١٧.

(٥) تاريخ الرسل والملوك للطبري ٤٩٧/٧ والكامل في التاريخ لابن الاثير ٤٨٦/٥.

(٦) سورة النساء: الآية ٧٥.

(٧) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

(٨) حلية الأولياء لأبي نعيم ١٣٥/٦، وانظر: تاريخ الاسلام للحافظ الذهبي ٢٣٣/٦.

(٩) المعرفة والتاريخ للفنسوي ٤٠٨/٢.

(١٠) جيحان: نهر بالمصيصة بالثغر الشامي ومخرجه من بلاد الروم ويمر حتى يصب بمدينة تعرف بكفربيا بإزاء المصيصة. (معجم البلدان).

(١١) الطبري ٥٠٠/٧؛ ابن الاثير ٥٠٠/٥.

(١٢) يسمي المؤرخ المنبجي غزاة اللاذقية: الخزر (٢٨٠/٢).

(١٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (مخطوط التيمورية) ج ٥٩٥/١٣، التهذيب ٣٤١/٥.

(١٤) تاريخ دمشق ٣٤٠/٣٤.

(١٥) كان محدثا حدث بمدينة صيدا، واخذ عنه محمد بن عقبة الصيداوي. (الطبري ٧٩/٨).

(١٦) أبو جعفر المنصور وعروبة لبنان ــ عجاج نويهض ــ ص ١٩، عروبة لبنان ــ محمد جميل بيهم، ص ٢٢، العرب والعروبة ــ دروزه ــ ج ١٥٨/١، روض الشقيق ــ شكيب ارسلان ــ ص ٢٤٠.

(١٧) فتوح البلدان للبلاذري، ق ١٩٣/١.

(١٨) الطبري ٥٠٩/٧، ابن الاثير ٥٠٠/٥.

(١٩) تاريخ دمشق ٢٣٩/٤٥.

(٢٠) تاريخ دمشق ١٩٦/٢٩.

(٢١) تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم الرازي، ج ١٩٣/١ ــ ١٩٥.

(٢٢) الطبري ٥٠٣/٧، ٥٠٤، تاريخ اليعقوبي ٣٧٠/٢، مروج الذهب للمسعودي ٣١٤/٣، العيون والحدائق في اخبار الحقائق لمؤرخ مجهول ٢٢٧/٢، ابن الأثير ٥٠٠/٥.

(٢٣) نشره «لويس شيخو» سنة ١٩٠٧ بمطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت.

(٢٤) كتاب العنوان للمنبجي ٣٧٨، ٢٧٧/٢ و ٣٨٠ (وقد ورد النص في الأصل بالورقة رقم ١٢٧ ا، ثم انقطع وجاءت تكملته في الورقة ١٢٩ ب).

(٢٥) التنبيه والاشراف للمسعودي، ص ١٣٢.

(٢٦) تهذيب تاريخ دمشق ١٨٥/١.

(٢٧) مروج الذهب ٢٠٧/١.

(٢٨) تسريح الابصار وفيما يحتويه لبنان من الآثار، ج ٤١/٢.

(٢٩) ورد اسمه عند الشدياق في (اخبار الأعيان في جبل لبنان): «الياس»، وعند الدكتور عادل اسماعيل في Histoire du Liban du XVIIs. à no Jour, T. 1 p. 184, N. 379, Paris 1955.
ورد اسمه «ثوادوروس».

(٣٠) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، د. فيليب حتي ١٦٧/٢.

(٣١) تاريخ دمشق ٥٩٥/١٣.

(٣٢) ويكنى أبا الورد، وقد ولي على حوران وقت فتنة ابي الهيذام سنة ١٧٦هـ. (تهذيب تاريخ دمشق ١٩٠/٧).

(٣٣) فتوح البلدان ق ١٩٢/١، تاريخ دمشق ٥٩٥/١٣، ٥٩٦، التهذيب ٣٤١/٥، خطط الشام، محمد كرد علي ١٨٠/١، ١٨١، لبنان في التاريخ، د. فيليب حتي ٢٢٧.

(٣٤) كان مولى لثقيف، من صنعاء الشام واصله من ناحية اليمن، نشأ بدمشق، وسكن المصيصة، روى كثيرا عن الامام الأوزاعي وتوفي في أواخر سنة ٢١٦هـ. على الأرجح. (التاريخ الكبير للبخاري ٢١٨/١، الجرح والتعديل لابن ابي حاتم ٦٩/٨، ٧٠، الطبقات الكبرى لابن سعد ٤٨٩/٧، كتاب المجروحين والضعفاء لابن حبان ١٤٤/١، تاريخ دمشق ٢٣٠/٣٩ ــ ٢٣٩، الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ٢٩٩، تهذيب التهذيب لابن حجر ٤١٥/٩ ــ ٤١٧ وانظر ترجمته في «موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الاسلامي، ق ١، ج ٣٣٢/٤ رقم (١٥٧٥)، طبعة المركز الاسلامي للاعلام والانماء، بيروت.

(٣٥) رواه أبو داود في السنن عن صفوان بن سُليم، عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله، عن آبائهم، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من ظلم معاهدا او انتقصه أو كلفه فوق طاقته او اخذ منه شيئا بغير طيب نفس فانا حجيجه يوم القيامة». قال الحافظ المنذري: والأبناء مجهولون.

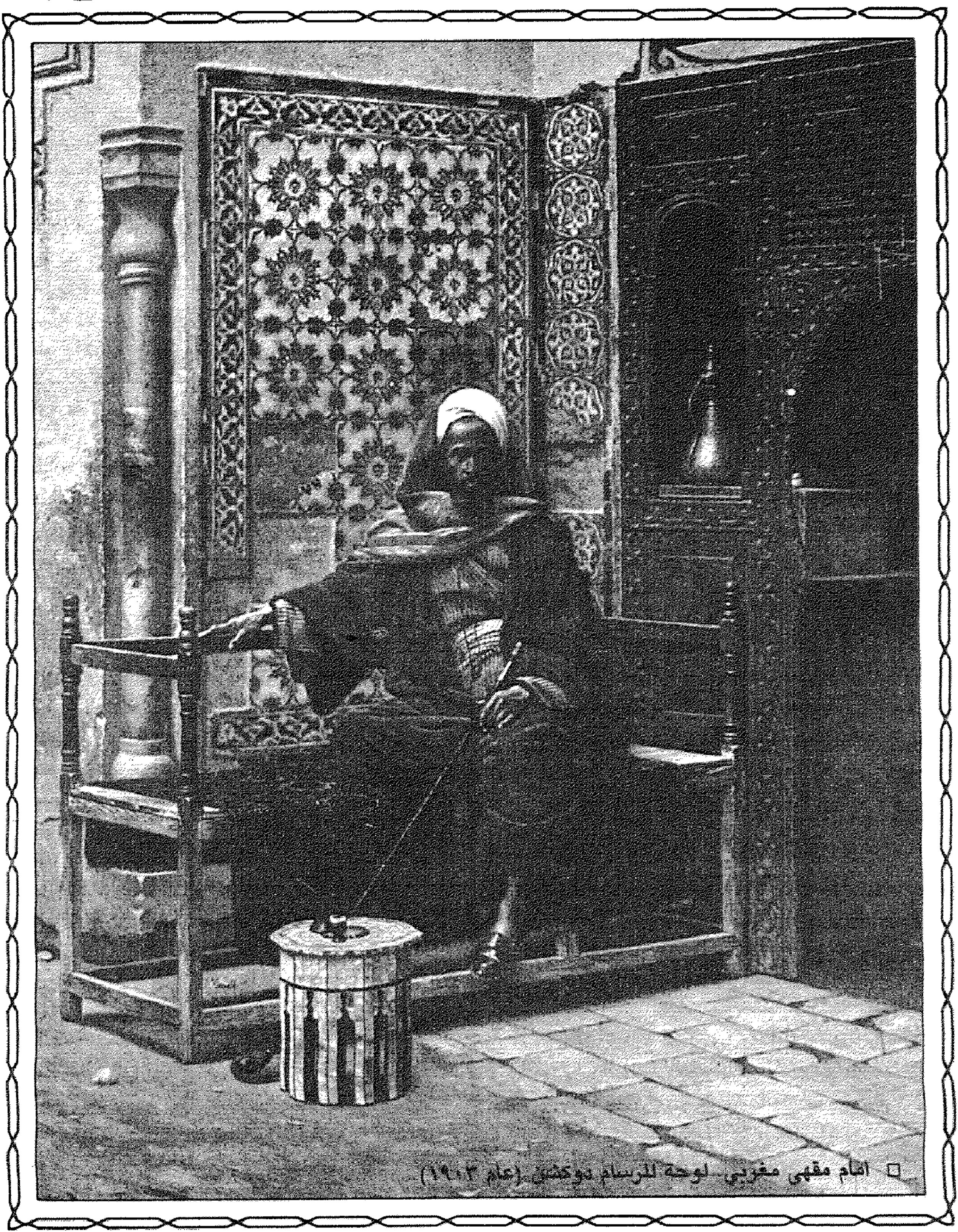
(٣٦) يُحاص: من المُحاصة، وهي المساواة في الحصص أي النصيب والمقدار.

(٣٧) كتاب الأموال لابن سلام، ص ٢٤٧، ٢٤٨، فتوح البلدان ق ١٩٢/١.

(٣٨) تقدمة المعرفة ١٨٩/١.

(٣٩) تقدمة المعرفة ٢١٠/١.

الشرق الساحر



□ امام مقهى مغربي. لوحة للرسام دوكشي (عام ١٩٠٣)

في لوحات الرسامين الغربيين

بقلم : ميشيل فريـيه
اقتباس : د. محمد المجذوب

وقف الأوروبيون في القرن التاسع عشر مسحورين مذهولين أمام تلك المشاهد الشرقية:

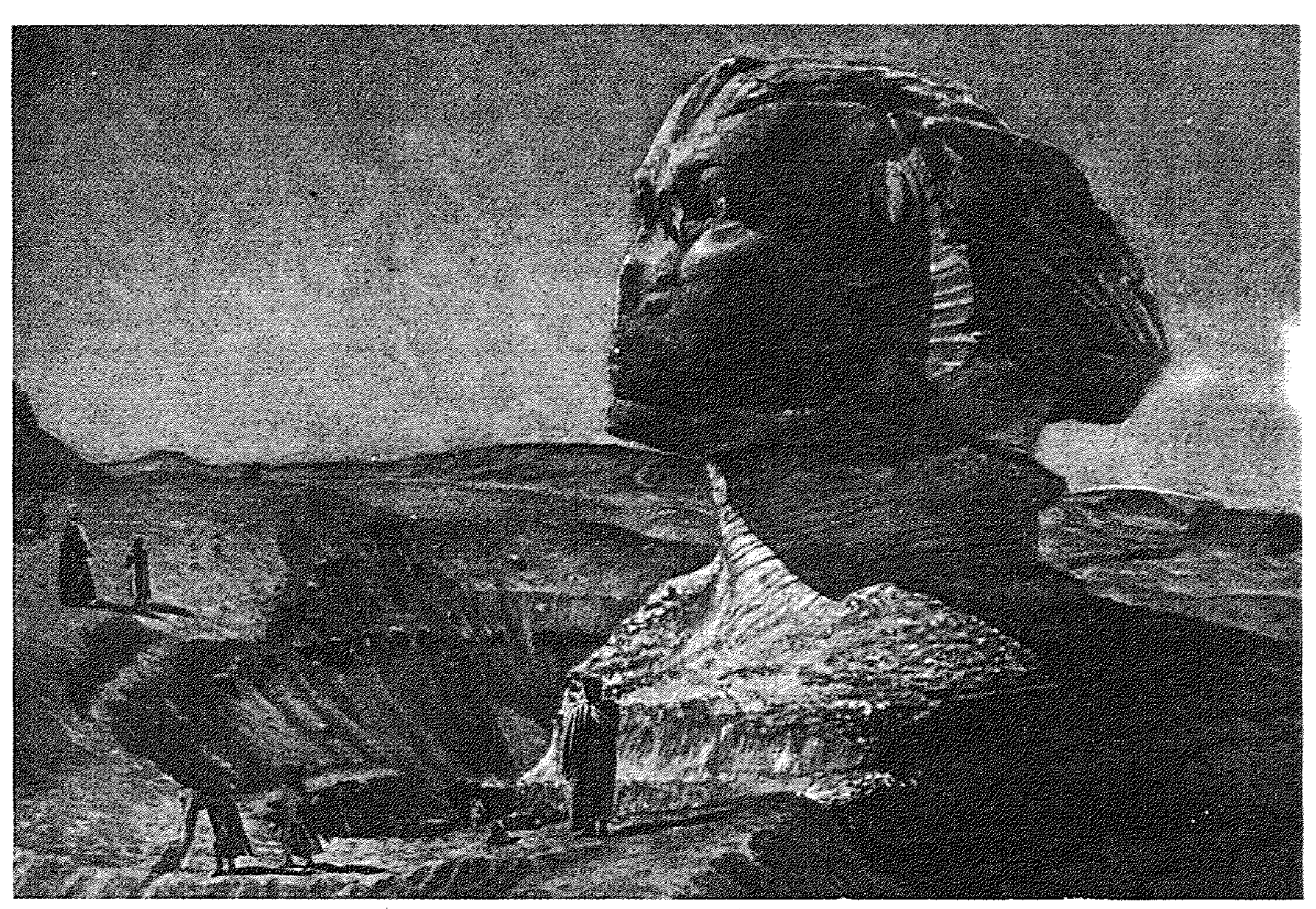
- **مشهد الأسواق الشعبية، المتموجة بالحركة والحيوية، والحافلة بالصخب والجلبة.**
- **مشهد الشوارع الضيقة في المدن القديمة، الآهلة بالسكان والآسرة بالروعة.**
- **مشهد المواكب البشرية في أيام الأعياد، حيث يختلط الحابل بالنابل.**
- **مشهد الفسيفساء التي تتبرج بها المساجد ذات المآذن الشامخة.**
- **مشهد الفيافي الشاسعة المغمورة برمال متحركة تحرقها شمس ساطعة.**

وأوحت هذه المشاهد التي يتميز بها العالم الاسلامي إلى الفنانين الغربيين، في ذلك العصر، أعظم اللوحات الفنية الباهرة المثيرة. وكان هؤلاء الفنانون المستشرقون من البريطانيين والنمساويين والألمان، وخصوصا من الفرنسيين. وخلال النصف الثاني من القرن الماضي، أنتجت المحترفات الباريسية كمية هائلة من اللوحات الشرقية أدى نجاحها إلى إنشاء **«صالون الرسامين المستشرقين الفرنسيين»**، في عام ١٨٩٣.

ومع أن هذا الانجذاب نحو الشرق كان قد بدأ قبل عصر النهضة في أوروبا، فإن الرسم الشرقي (أو المستشرقي) لم يصبح شعبيا إلا في القرن الثامن عشر. وكان الفنانون آنذاك يقتصرون في لوحاتهم على رسم بياني أو وصفي للطبيعة، أو على تصوير كلاسيكي للأشخاص، أو على وضع لوحات تمثل أوروبيين يرتدون الملابس على الطريقة الشرقية. إن مشهد **«الصيد في تركيا»** الذي رسمه الفنان جان باتيست **فانمور** (J.B. Vanmour) (في عام ١٧١١) يمثل منظرا تقليديا لمجموعة من الناس. وفيه نرى السلطان أحمد الثالث محاطا بالأمير والحاشية وكبير الخصيان الأسود. و **فانمور** فلامندي أمضى القسم الأكبر من حياته في القسطنطينية حيث كان يعيش مع حاشية السلطان. ولوحة **«الأمير بشير الشهابي الثاني، حاكم لبنان، يقدم الولاء لابراهيم باشا»**، التي رسمها **أوبيز** (G.E. Opiz)، تتبع نفس التقليد باشارتها إلى حادثة تاريخية معروفة وتصويرها لأشخاص من السهل التعرف إليهم.

وخلال القرن التاسع عشر طرأ تغيير عميق على طابع اللوحات الشرقية. وفي النصف الثاني منه، أصبحت هذه اللوحات شعبية للغاية. وتعليل هذه الظاهرة يكمن في أمرين: التوسع الاستعماري ونمو التجارة، اللذين أسفرا عن قيام مبادلات متزايدة ومتسارعة مع الشرق، مما أثار حماسة الجماهير وإقبالها على الفن الشرقي.

وكان للسياسة دور فعال أيضا في هذا المجال. ومن الأقطار الشرقية التي أتيح للرسامين المستشرقين زيارتها: المغرب، والجزائر، وتونس، ومصر، والأرض المقدسة، وسوريا، ولبنان، وتركيا، وإيران. وخلال القرن، أصبح العديد من هذه الأقطار ــ لا سيما تركيا ومصر والجزائر ــ



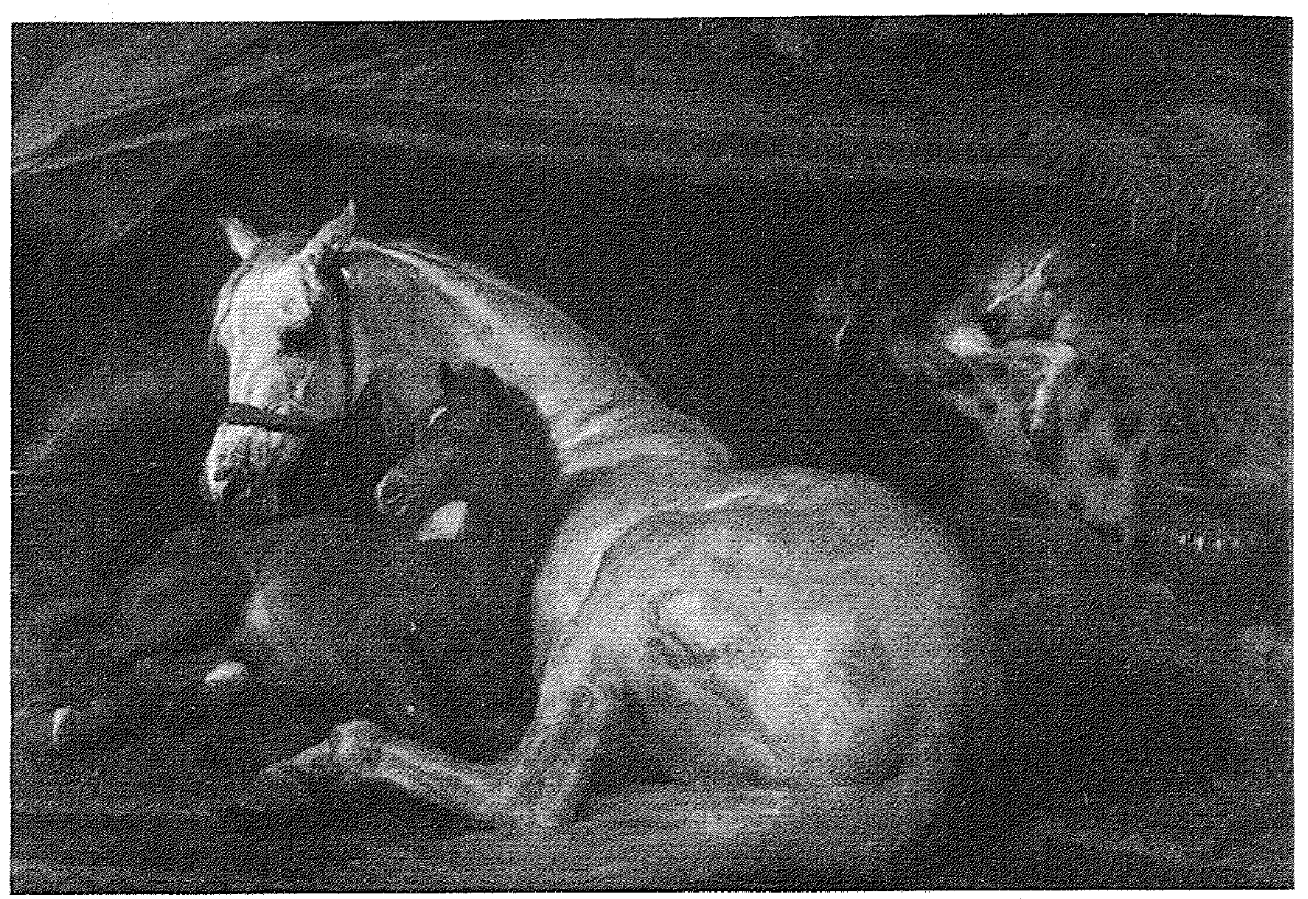
□ تنقيبات حول ابي الهول، للرسام سددون (عام ١٨٥٦).

مركزا لانطلاق الأحداث والتقلبات السياسية.

ومنذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى الحرب العالمية الأولى، شغلت «**المسألة الشرقية**» السياسيين الأوروبيين. ولا سيما الفرنسيين والانجليز منهم. وكانت هذه المسألة تتمحور حول احتمال تصفية الامبراطورية العثمانية التي كانت تعيش في فترة انحطاط كامل. وظلت مصر تحت النفوذ الفرنسي إلى أن احتلتها الجيوش البريطانية في عام ١٨٨٢. وسيطر الفرنسيون على الجزائر بعد استيلائهم على عاصمتها في عام ١٨٣٠. ولعل ذلك يفسر السبب في أن العديد من الفنانين الفرنسيين والانجليز هم الذين وضعوا غالبية اللوحات الشرقية.

وساعد الاحتلال، والاستعمار، وفرض النمط الأوروبي، وتحسين وسائل المواصلات، وتحسن الظروف المحلية، على جعل الطريق إلى هذه الأقطار ممهدا أمام الرحالة والفنانين الغربيين. وفي عام ١٨٦٠، دشن **توماس كوك** (Thomas Cook) رحلات منظمة إلى مصر، وأوصل زبائنه إلى أسوان. وكان في القاهرة، منذ عام ١٨٤٠، فنادق مريحة. وكان العديد من السياح الأوروبيين، في ذلك العصر، قد اعتادوا رؤية أبي الهول واهرامات الجيزة التي برزت في لوحات رائعة أبدعتها ريشة الفنان توماس **سدون** (Th. Seddon).

وكان للأدب الرومانسي تأثير مهم كذلك، فهو الذي حث الغربيين على محبة الأشياء المجلوبة من الخارج وتذوق الأساطير الشرقية. إن قصص الحريم والسلاطين والباشوات القساة التي رواها الشاعر **بايرون** (Byron)، وقصة «**قبلة خان**» Kubla Khan التي كتبها الشاعر صامويل تايلور **كولريدج** (S.T. Coleridge)، في عام ١٨١٦، والقصة «**لالا روخ**» Lalla Rookh التي نشرها الشاعر توماس **مور** (T. Moore)، في عام ١٨١٧، وقصة الرحلة إلى الشرق «**أيوثن**» Eothen التي وضعها الكاتب **كينجليك** (A.W. Kinglake)، في عام ١٨٤٤... إن هذه القصص ضاعفت من تعلق الجمهور بالقصة الشرقية، وقدمت إليه صورة خادعة، وإن تكن



□ الخيمة العربية. للرسام لاندسير.

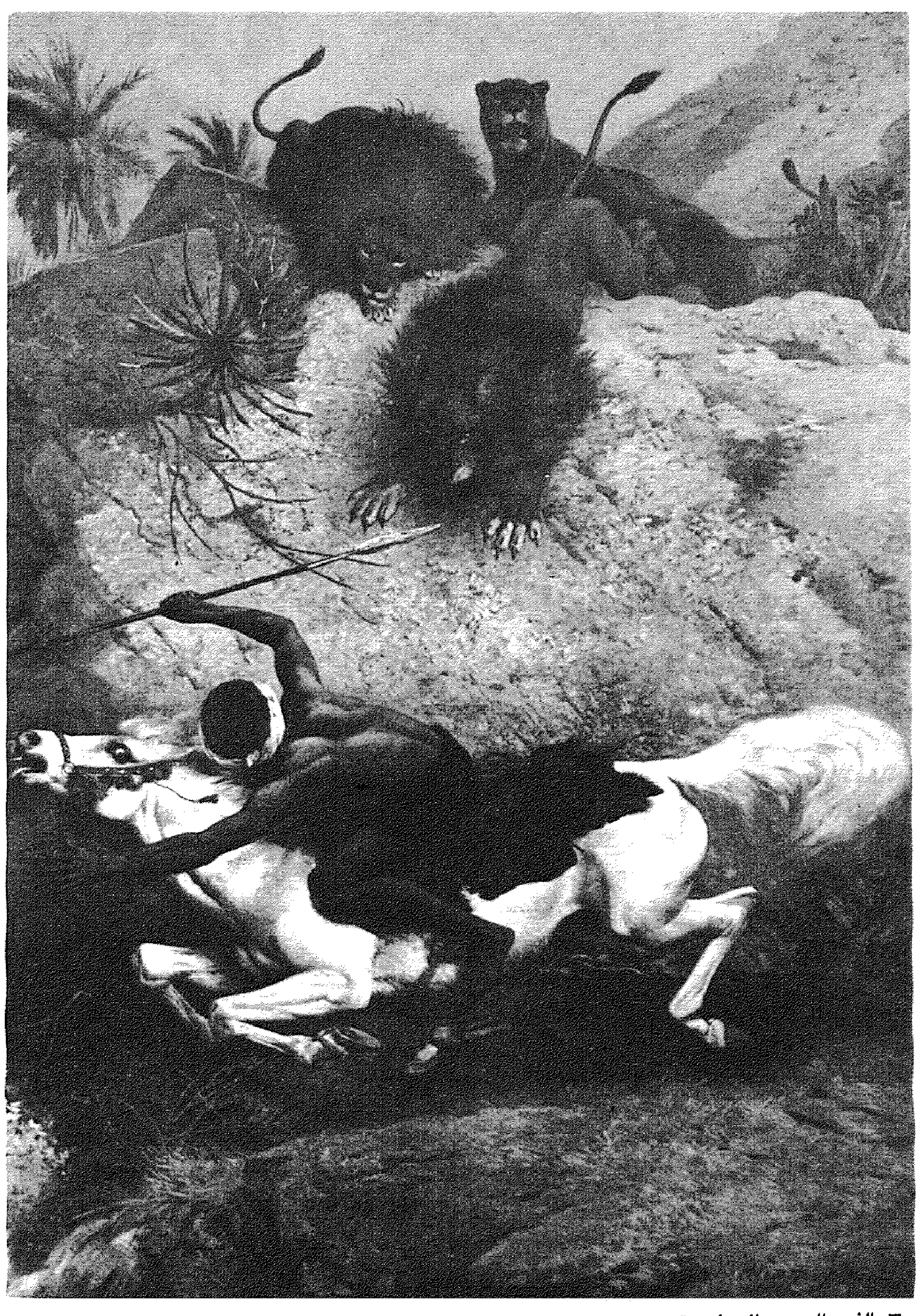
ملونة، عن الحياة في هذه الأقطار الشرقية. وهذا النوع من الأدب كان يتناقض، بشكل ملموس، مع التكنولوجيا العملية والجادة التي كانت سائدة في أوروبا في القرن الماضي.

وظهرت ترجمات لقصة **«ألف ليلة وليلة»** في أقطار غربية كثيرة. وفي عام ١٨٥٩، نشر **ادوارد فيتزجرالد** (E. Fitzgerald) اقتباسه الشعري لأعمال **عمر الخيام**، فتكون بذلك مناخ، عبر الأدب والاتصالات المتزايدة بالشرق، أثار اهتمام الفنانين واسترعى انتباه الجمهور.

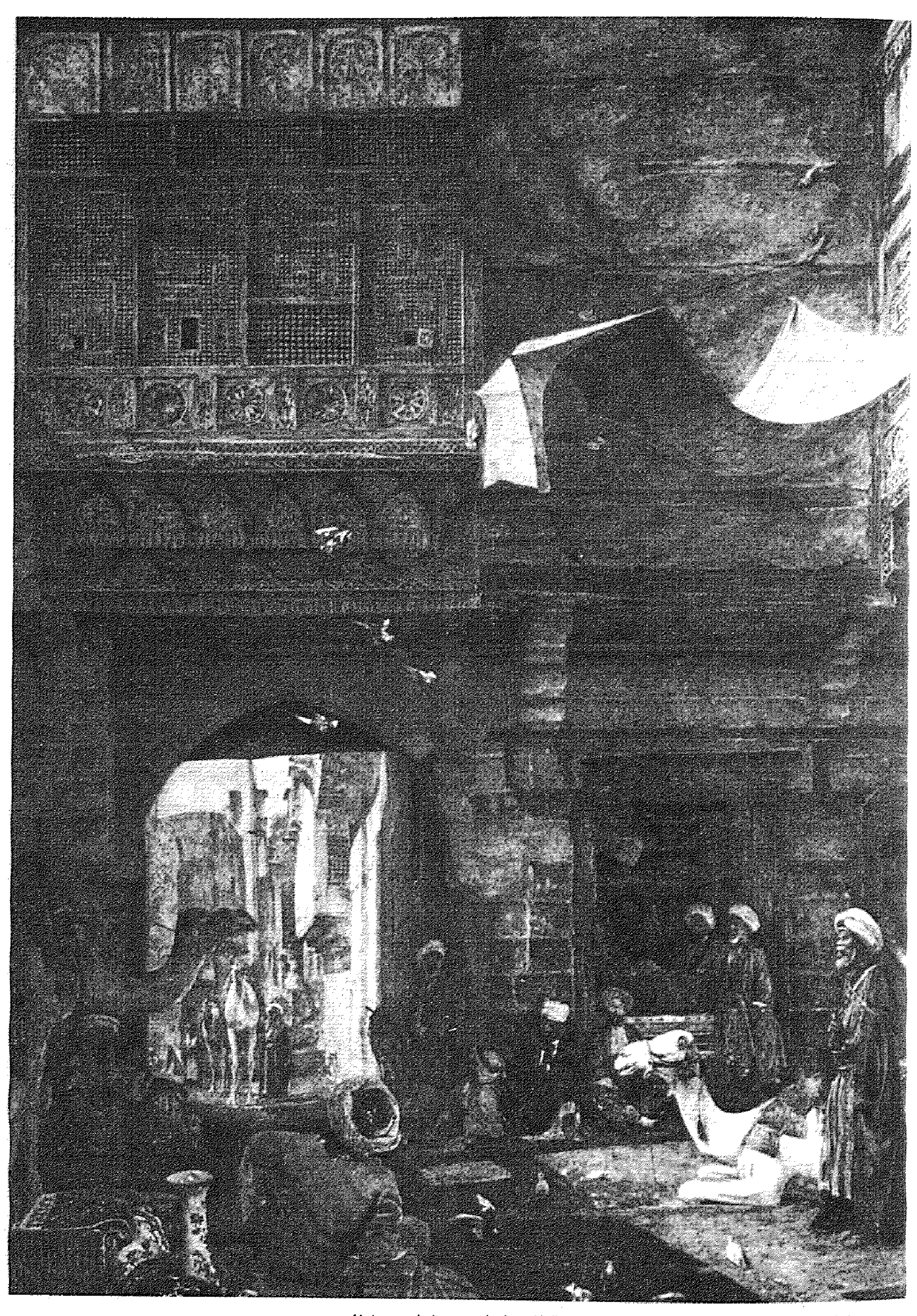
وكان هناك تياران كبيران: الأول قام على المشاهد الوهمية، والثاني على المشاهد الحقيقية. ففي نهاية القرن، وعندما ترسخ «الانفتاح» على الشرق، أصبحت اللوحات أكثر واقعية، بعد أن كانت الأعمال الفنية الأولى التي ظهرت قبل ذلك مجرّد استذكارات خيالية.

ومما لا شك فيه أن أعظم تحفة في الرسم الشرقي التخيلي هي لوحة **«موت سردانابال»** للفنان **دولاكروا** (Delacroix) (عام ١٨٢٧) التي استوحاها تقريبا من مسرحية مأساوية للورد بايرون (في عام ١٨٢١). ففي اللوحة نرى سردانابال، ملك آشور، يشاهد، وهو يحتضر، المجزرة التي تتعرض لها محظياته وخيله. ويتم التعبير عن القوة المستبدة والدم والفجور والموت العنيف بمجموعة من الأشكال المتموجة والألوان العميقة الغنية. وعندما رسم **دولاكروا** هذه اللوحة لم يكن قد زار الشرق بعد. ولهذا كانت الحلى والملحقات المرسومة هندية. وجاءت اللوحة التي رسمها الفنان **انجرس** (Ingres) (في عام ١٨١٤)، والتي تحمل إسم **«المحظية الكبرى»**، عملا باردا وجامدا وتقليديا، وكذلك بعيدا عن العالم الشرقي الحقيقي، مثل لوحة دولاكروا عن الطاغية. أما بالنسبة إلى الفنان **بونينجتون** (R.P. Bonington) الذي وضع لوحات مائية رائعة تمثل أشخاصا شرقيين، فإنه لم يذهب في رحلاته إلى أبعد من البندقية.

ومع ذلك، فخلال القرن ازداد عدد الرسامين الذين قاموا برحلات، شاقة أحيانا، إلى الشرق. فقد أقام الفنان **دوكان** (A. Descamps) في



□ الذعر الرهيب. للرسام ستروت.



□ شارع في القاهرة، قرب باب اللوق. لوحة للرسام لويس (عام ١٨٥٥).

ازمير، في عام ١٨٢٨، وكان له تأثير كبير في الجيل الأول من الرسامين المستشرقين. وزار **دولاكروا** المغرب والجزائر في عام ١٨٣٢. وذهب الفنان **فرومنتان** (E. Fromentin)، عدة مرات، إلى الجزائر والصحراء، حيث عاش مع قبيلة بدوية. وفي عام ١٨٥٤، سافر الفنان **جيروم** (J.L. Gérôme) إلى تركيا واليونان، ثم إلى مصر. وزار كذلك فلسطين وسورية وسيناء وإفريقية الشمالية. وأتيح أيضا للفنانين **ارنست** (Ernst)، **ودوتش** (Deutsch)، **وفرنية** (Vernet)، **وبووورنفايند** (Bauernfeind)، **ولوجسديل** (Lagsdail)، **ولويس** (Lewis)، **وسدون** (Seddon)، **وجودال** (Goodall)، **وهانت** (Hunt)، زيارة الشرق والتمتع بمناظره الخلابة والتعرف إلى بعض عاداته وتقاليده.

وتركت زيارة هذه الأقطار تأثيرا كبيرا وانطباعات متعددة في جميع هؤلاء الرسامين. وإزاء الحرارة اللاهبة، والشمس المحرقة، والألوان المتفاعلة الرائعة، والفن المعماري الاسلامي المتناسق، وزخارف الزينة التجريدية، وبهاء القصور والمساجد، والأزقة الخلابة، والأزياء المتنوعة، والعادات الغريبة في العالم الاسلامي، تجلت ردة فعل الرسامين برسم يشع بألف لون استطاع، على مر الأيام وبفعل الاحتكاك اليومي بالحياة الشعبية، أن يكتسب خبرات ويغتني بتفاصيل واضحة كانت ثمرة تأمل دقيق.

وفي لوحة الفنان أرنست **«مغربي يتأمل مجوهراته بإعجاب»**، نرى تكاملا بين موضوع الكنوز الشرقية وموضوع الوضع الداخلي ذي السمات الأجنبية المطلوبة: الخزف الملون، والباب المرصع، وصندوق الحلي بخشبه الموشى، والسجادة بألوانها الحمراء والخضراء الملطفة والعميقة، والمغربي بقفطانه الأبيض الفاتن المصنوع من الحرير الوردي المفضض. وهذا الغنى في الخزف والسجاد، وفي حواجز الهواء، والخشب المقطع، نجده كذلك واضحا في لوحة **ارنست التي تمثل «داخل المسجد»**.

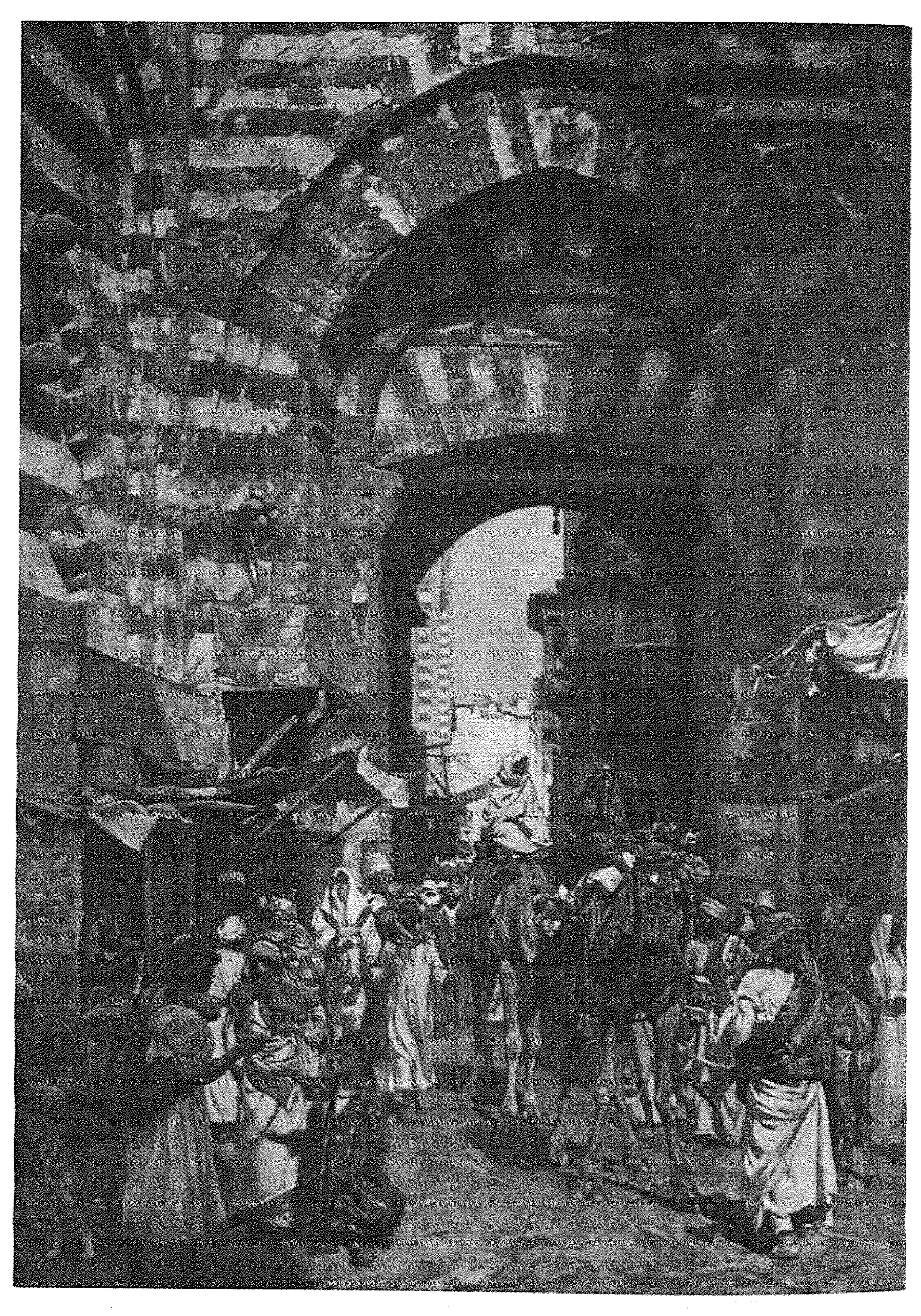
والألوان المفضلة لدى الرسامين كانت: الأحمر الرماني، والقرمزي، والأخضر الزمردي، واللازوردي، والأزرق الفيروزي، وبشكل خاص ذلك الأزرق الفيروزي النابض بالحياة الذي نلمحه غالبا في الخلفيات، كما يبدو، مثلا، في لوحة **«لعبة النرد أو الطاولة»** للفنان **فون أوتنفلد** (R.Von Ottenfeld) (في عام ١٨٩٠)، وفي لوحة **«ساحر الأفاعي»** للفنان **جيروم**.

هناك لوحات عن الصحراء، مثل لوحة **«العرب المسافرون في الصحراء»** للفنان **فرنيه** (عام ١٨٤٣)، ولوحة **«النوبي يقود جملا»** للفنان **جودال** (عام ١٨٨٥). وهناك أيضا لوحات عن الشارع، مثل لوحة **«أبواب الخليفة»** للفنان **لوجسديل** (عام ١٨٨٧). وهذه اللوحات تستند إلى تجارب وخبرات عاشها الفنانون. وهي عفوية وتلقائية تماما. وبعض الرسامين، كشارل **ويلدا** (Wilda)، أقام محترفه في القاهرة. والرسام **لويس** (Lewis) عاش فيها عشر سنوات تقريبا كباشا حقيقي «آكل لأوراق اللوتس الذابلة، وحالم، وخامل، ومتناس كل شيء وسط سحابة من التبغ».

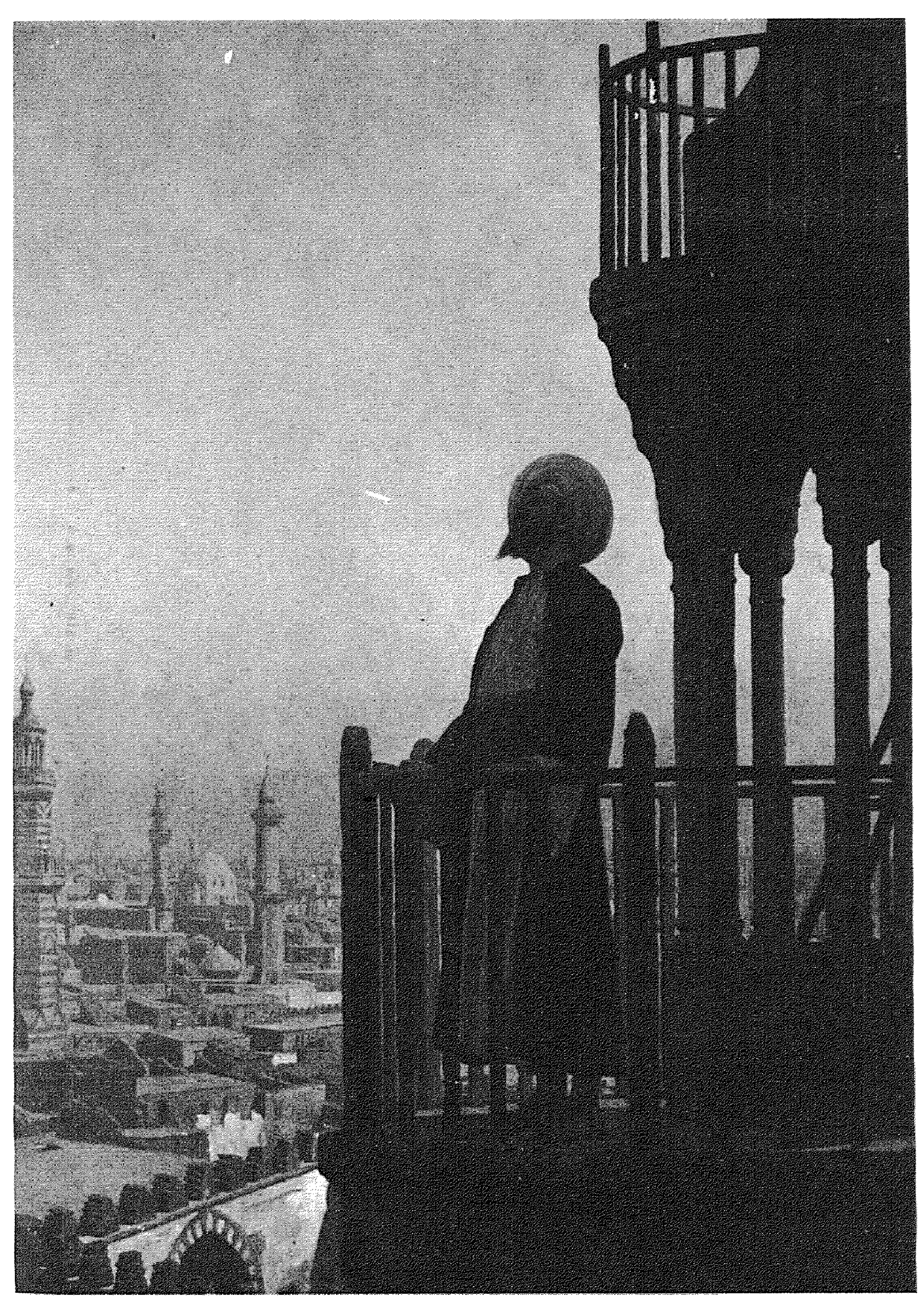
ويتميز الرسامون المستشرقون عن غيرهم من الفنانين الأكاديميين، في ذلك العصر، بواقعيتهم. ومع هذا، فإن اللوحات الأكثر واقعية لا تخلو من بعض الرومانسية بكثافة الوانها وروعة تركيبها.

وواقعية بعض اللوحات الشرقية لم ترتكز على الملاحظة والرصد فقط، بل اعتمدت كذلك على الصور الفوتوغرافية وملحقاتها. ومحترفات الفنان **دوتش** في باريس وجنوب فرنسا كانت مزينة بأصفى طراز إسلامي، وحافلة بالمشربيات (النوافذ المشبكة) والمأطورات المصنوعة من الخشب المنحوت، والخزفيات الملونة.

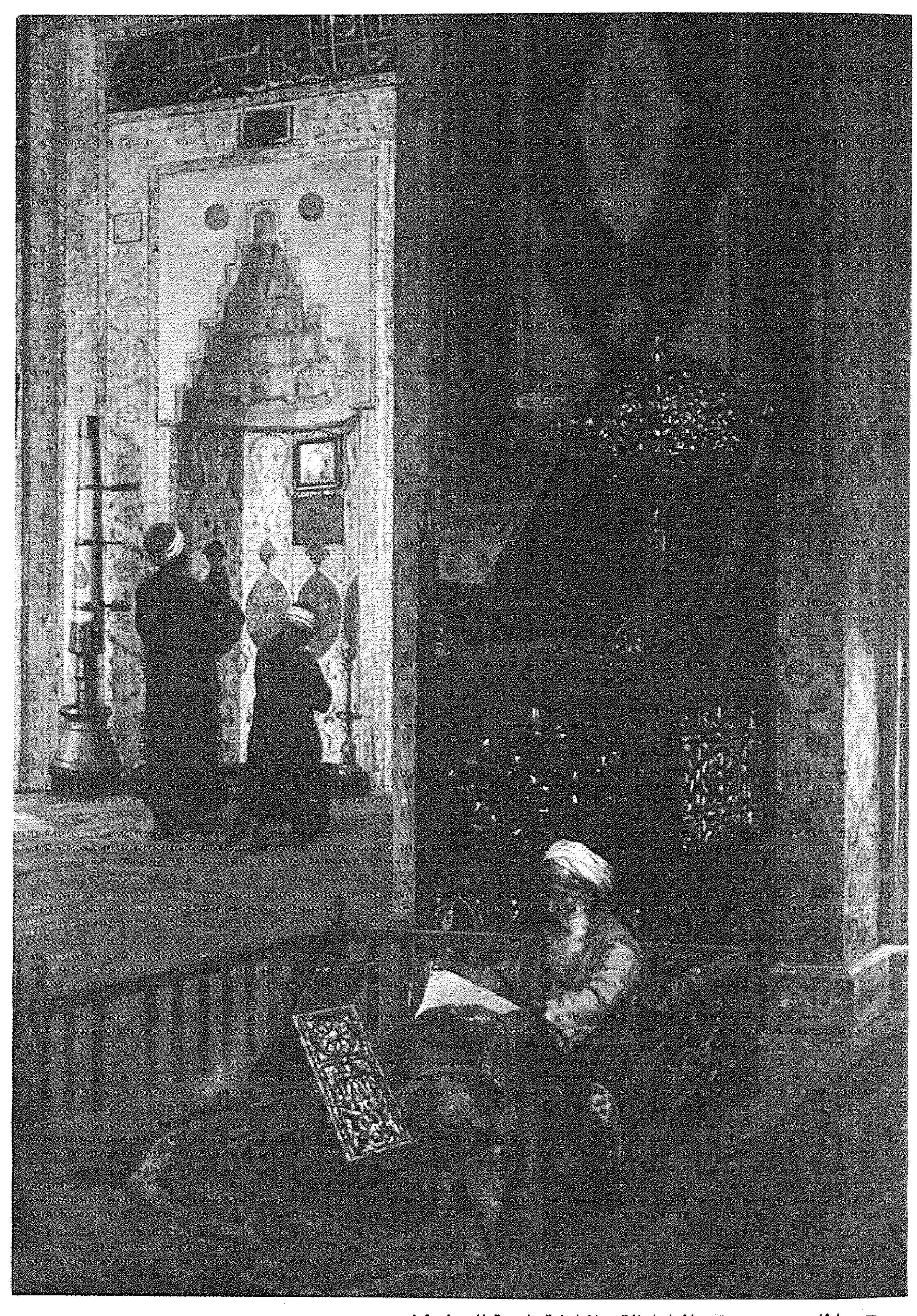
وبعض اللوحات القماشية، كلوحة **«آلام الحب الضائعة»** للفنان **لونج** (E. Long) (عام ١٨٥٥)، قد وضعت بأمانة في بيئة تاريخية محددة، في حين أن غيرها، كاللوحات التي تمثل مشاهد الحريم والتعذيب والموت، كان ثمرة الخيال أو التخيل. فأمكنة الحريم هي دائما أمكنة محفوفة بالأسرار بالنسبة إلى العالم الخارجي، وللأسياد وخصيانهم وحدهم حق الدخول إليها. ولم يسمح للغربيين يوما بالتسلل إليها. ولهذا فإن مشاهد الحريم، رغم استنادها إلى وصف حقيقي وواقعي، لم تكن إلا ثمرة الاستعانة بالنماذج



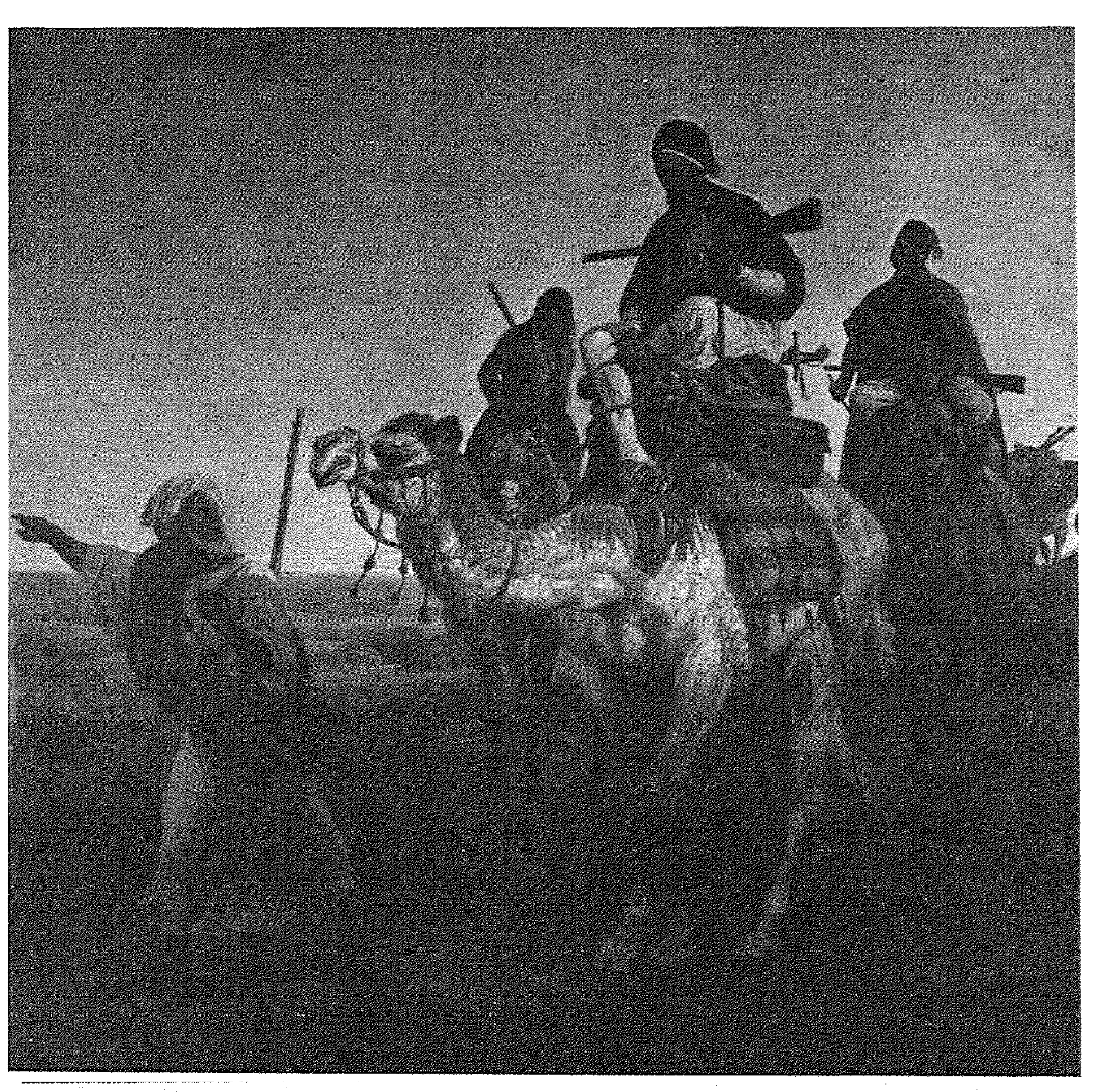
□ ابواب الخليفة. لوحة للرسام لوجسديل (عام ١٨٨٧).



□ الاذان. لوحة للرسام جيروم.



□ داخل مسجد رستم باشا في القسطنطينية. لوحة للرسام ارنست.



□ عرب مسافرون في الصحراء. اللوحة للرسام فرنيه (عام ١٨٤٣).

(الموديلات)، أو مجرد ابتكار كيفي وخيالي، كلوحة «**الحمام التركي**» للفنان **انجرس** (عام ١٨٦٢).

أما مشاهد التعذيب والموت التي كانت تسر الكثيرين فقد كان لها غالبا جانب سادي، كلوحة «**السجين**» للفنان **باراتي** (F. Baratti) (عام ١٨٨٣)· «**الاعدام دون محاكمة في عهد الملوك المغاربة في غرناطة**» للفنان **رينو** (H. Regnault) (عام ١٨٧٠)، حيث نرى دما أحمر قانيا يسيل من رأس مقطوع، وينساب فوق درجات السلم، وفي الخلف منظر قصر الحمراء الرائع. ولعل اللوحة الأكثر إبهاما في هذه الحقبة هي لوحة «**ساحر الأفاعي**» للفنان **جيروم**. وهي تمثل أفعى تلتلف حول جسد عار لأحد الفتيان.

ومع كل هذا، فمن الخطأ اعتبار فناني القرن التاسع عشر وأصحابهم الهواة فئة تملكها هوس الانعتاق نحو الشرق. لقد اهتموا، بإخلاص، بعادات العالم الشرقي التي تختلف كل الاختلاف عن عاداتهم. وصور ذلك العصر تثبت لنا أن حالة الرعدة التي تصيب مدخن الحشيشة، كما رسمها **دوتش** في لوحته «**أمام مقهى مغربي**»، كانت مشهدا عاديا مألوفا، وإن

الرسوم التي تمثل الحراس، والباعة المتنقلين، ولاعبي الطاولة الذين كانوا أحيانا يدخنون النرجيلة، كانت مشاهد حية تستمد حقيقتها من الواقع.

والواقعية الفوتوغرافية التي تجلت في العديد من اللوحات الشرقية، ولا سيما في تلك التي ظهرت في أواخر القرن الماضي، تدل على أن الفنانين لم يجدوا غضاضة في استخدام آلات التصوير، فالفنان **جيروم** حمل معه جهاز التصوير الشمسي في رحلته الأولى إلى مصر، والفنان **جوتييه** (Gautier)أثنى على دقة التصوير في لوحاته في المعرض الفني لعام ١٨٦٥.

وكان هناك شركات للتصوير الشمسي، كشركة **بون فيس** (Bon fils) وأولاده، مارست نشاطا مهما في الشرق الأوسط ابتداء من عام ١٨٦٠. فلوحة «**الشارع في يافا**» للفنان **بوور نفايند**، التي تتضمن التفاصيل الدقيقة للمنازل، والرفوف التي تحمل الفواكه، ومناظر الطبيعة في الخلف، والبنت فاطمة التي تضع يدها على الجدار كعلامة ترحيب، وكذلك لوحة «**المبيض**» للفنان **ويلدا** (عام ١٨٨٤)... هي لوحات قريبة من الصور الشمسية التي التقطت وسجلت، في تلك الفترة، نفس المشاهد. ونذكر أن شركة **كوداك** (Kodak) أنزلت، في عام ١٨٨٨، إلى السوق جهازها التصويري النقّال الذي مكّن السائح من حمله في يده والتقاط ما يحلو له من صور الناس والآثار والمناظر.

وفي نهاية القرن الماضي سجل الرسم الشرقي في الغرب تدنيا في النوعية والرواج. بسبب ازدهار السياحة واختزال المسافات وتطور وسائل النقل وتحسن إنتاج التصوير الشمسي، فقد الشرق أسراره في أعين الأوروبيين. بل إن انتشار النمط الغربي في العالم قد أحدث انقلابا في نمط الحياة الشرقية.

لقد استطاع التصوير الشمسي أن يعرض على الملأ بأمانة، وإن اتسمت بالقسوة، وبموضوعية، وإن حفلت بالفجاجة، صورا عن العالم الشرقي الحزين والفقير والقلق كان الرسم، في لوحاته، يحاول، ببراعة ومهارة، التخفيف من واقعيتها وحدتها. ومع ذلك، وعلى الرغم من التطورات الحديثة في عالم الآلة، فإن اللوحات التي أبدعتها ريشة الموهوبين من الرسامين المستشرقين في القرن المنصرم ما زالت تقدم إلينا صورة مدهشة عن البلاد الاسلامية. والشرق الذي سجل الرسامون المستشرقون ملامحه سيبقى دائما مكانا حافلا بالثراء السحري والجمال والأسرار.



□ تركي يستريح. لوحة للرسام بوننجتون (عام ١٨٢٦).

[كان الاعتماد في كتابة هذا المقتبس على الكراس الذي نشرته دار فلامايون (Flammarion) الفرنسية، بعنوان: «الرسامون المستشرقون»]

صنعة الكتابة في عهد الرسول والصحابة

د. محمد حميد الله

إن العرب قبل الاسلام لم يعتنوا كثيرا بالوثائق المكتوبة، حتى إن اول كتاب عرفه التاريخ باللغة العربية هو القرآن الكريم. ولكن اعتناء الاسلام بها منذ أول أمره ما يدهش المؤرخ، كما سنرى فيما يلي:

روي عن نبي الاسلام: «إن أول ما خلق الله القلم»(1). إن كلمة «القلم» توجد في كثير من اللغات السامية. وبما أن اليونان أخذوا علم الخط من الفينيقيين. فلا بد ان كانوا قد استعاروا كلمة «قلم» أيضا منهم، فقالوا χάλαμος ومنه (Calame) بالفرنسية.

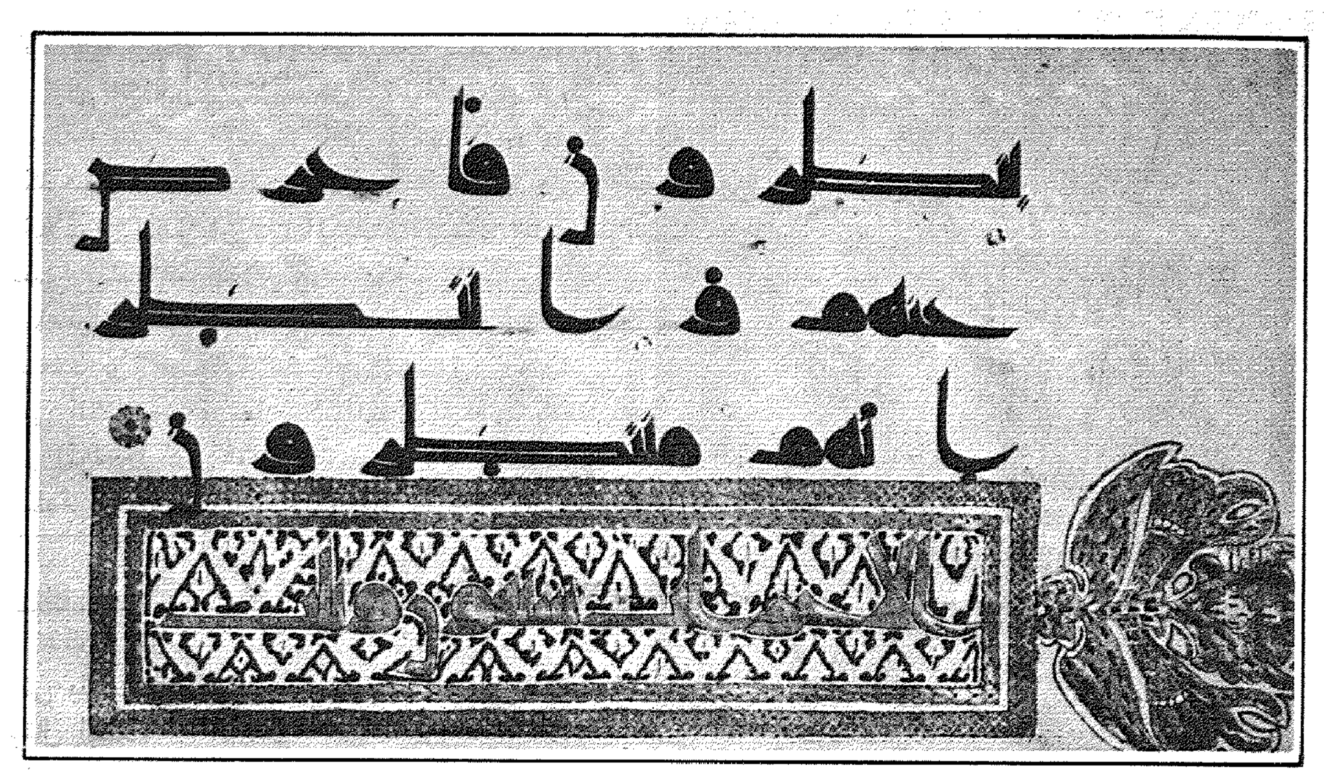
روي عن ابن إسحاق انه قال: سمي اخنوخ «إدريس»، لأنه اول من خط بالقلم ودرس الكتب(2). ولكن لا نعرف كيف كان هذا الخط.

«روى ابن إسحاق في الكتاب الكبير، عن شهر بن حوشب عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: أول من كتب بالقلم إدريس. وعنه، عليه السلام، أنه قال: أول من كتب بالعربية إسماعيل. وقال أبو عمرو: هذه الرواية أصح من رواية من روى أن أول من تكلم بالعربية إسماعيل، عليه السلام»(3).

«عن أبي ذر قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا ذر، أربعة (يعني من الرسل) سريانيون: آدم، وشيث، ونوح، وخنوخ وهو أول من خط بالقلم. وأنزل الله على خنوخ ثلاثين صحيفة»(4).

الخط العربي قبل الاسلام

إن البلاذري (المتوفي ٨٩٢م) من أقدم من حفظ لنا روايات العرب عن تأريخ خطهم. فقد بوب بابا في «أمر الخط» في آخر كتابه المسمى «فتوح البلدان» (ص ٤٧١ ــ ٤٧٤). فروي عن محمد بن السائل الكلبي، والشرقي بن القطامي، وقال: «اجتمع ثلاثة نفر من طيء ببقّة، وهم مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة. فوضعوا الخط، وقاسوا الهجاء العربية على هجاء السريانية. فتعلمه منهم قوم من أهل الأنبار. ثم تعلم أهل الحيرة من أهل الأنبار... وتعلم بشر (أخو أكيدر بن عبد الملك) الخط من أهل الحيرة، ثم أتى مكة في بعض شأنه ــ (فعلم رجلين هناك، ثم رجلا في الطائف، وآخر في ديار مضر، وناسا في الشام) ــ وتعلم الخط من الثلاثة الطائيين أيضا رجل من طابخة كلب. فعلمه رجل من أهل وادي القرى، فأتى الوادي يثرب(5)



□ صحيفة لقرآن بالخط الكوفي، موطنه العراق او سوريا، القرن الثامن، محفوظ في متحف دالم، برلين.

فأقام بها، وعلم الخط قوما من أهلها».

أما ابن النديم (المتوفي ٩٩٥) فقال في أول كتابه، كتاب الفهرست: «اختلف الناس في أول من وضع الخط العربي: (ألف) فقال هشام بن محمد الكلبي: أول من صنع ذلك قوم من العرب العاربة (ومن أسمائهم وأخذوا الحروف: أبجد هوز حطي كلمن صعفض قرست). ثم وجدوا بعد ذلك حروفا ليست من أسمائهم، وهي الثاء، والخاء، والذال، والظاء، والغين، والشين، فسموها الروادف... (ب) وقال ابن عباس: أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال... سكنوا الأنبار... وهم مرامرة بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة... فأما مرامر فوضع الصور، وأما أسلم ففصل ووصل، وأما عامر فوضع الأعجام»(٦).

وللروايتين أهمية. فما يتعلق بالأولى، فقد نعرف أن حروف الهجاء السامية القديمة (في السينائية، والفينيقية، والبابلية، والعبرانية وغير ذلك) تنتهي بالتاء؛ وزيادة ثخذ ظغش (حسب الهجاء العربي المغربي) خاصة بالعربية — ولا أبحث ههنا في الهجاء العربي المشرقي حيث الترتيب: سعفص، قرشت، ثخذ، ضظغ — وما يتعلق بالرواية الثانية عن وضع علامات الإعجام، فسنبحث فيها فيما بعد.

نماذج هذا الخط القديم

ومن عجيب ما نرى هو أن أقدم نماذج الخط العربي، كما نعرفه الآن، توجد خارج جزيرة العرب، في النمارة، والحران وزبد(٧).

نشر علم الخط في مكة

رأينا آنفا أن بشر بن عبد الملك بن الخن هو معلم المعلمين للخط العربي. وهذا ما قال البلاذري(٨) عن أعماله في مكة: «ثم أتى مكة في بعض شأنه، فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب يكتب. فسألاه أن يعلمهما الخط. فعلمهما الهجاء، ثم أراهما الخط. فكتبا». وقال ابن النديم(٩) بل هو حرب بن أمية (بدل سفيان). ولعل الحق مع ابن النديم، فكل يقول(١٠) إن بشرا تزوج من الصهباء بنت حرب. (ولعل سفيان بن حرب المذكور عند ابن أبي داود، هو أبو سفيان بن حرب).

ولا بد أن نبي الاسلام رآهم جميعا لما كان صبيا أو شابا.

وقال ابن النديم(١١): «وكان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب (المتوفي ٥٧٨م) في جلد

ادم، فيه...، قال: وكان الخط يشبه خط النساء».

قال البلاذري[١٢] «دخل الاسلام وفي قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب»، وسماهم؛ ونجد أكثرهم بين كتّاب النبي في المدينة المنورة. وذكر البلاذري أيضا أن بين المكيات الكاتبات: الشفاء بنت عبد الله العدوية، وحفصة العدوية أم المؤمنين، وأم كلثوم بنت عقبة، وعائشة بنت سعد بن عبادة وكانت تقول: «علمني أبي الكتاب»، وكريمة بنت المقداد. وقال: عائشة أم المؤمنين كانت تقرأ المصحف ولا تكتب، وأم سلمة أم المؤمنين كانت تقرأ ولا تكتب.

الخط في المدينة

ذكرنا آنفا عن البلاذري أن بشر بن عبد الملك اتى يثرب فأقام بها وعلم الخط قوما من أهلها. وقال أيضا: «إن الكملة (وهم من جمعوا الكتاب والرمى والعوم) في الجاهلية من أهل يثرب: سويد بن الصامت، وحضير الكتائب». ثم روي[١٣] عن الواقدي: «كان الكتاب بالعربية في الأوس والخزرج قليلا، وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية، وكان تعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول، فجاء الاسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون، وهم...».

فلو كان يهودي علم المدنيين الخط، فانه علم الخط العبراني. فلما هاجر النبي إلى المدينة، وهاجر معه أهل مكة، فإن الخط العربي انتشر هناك حينذاك. والله أعلم.

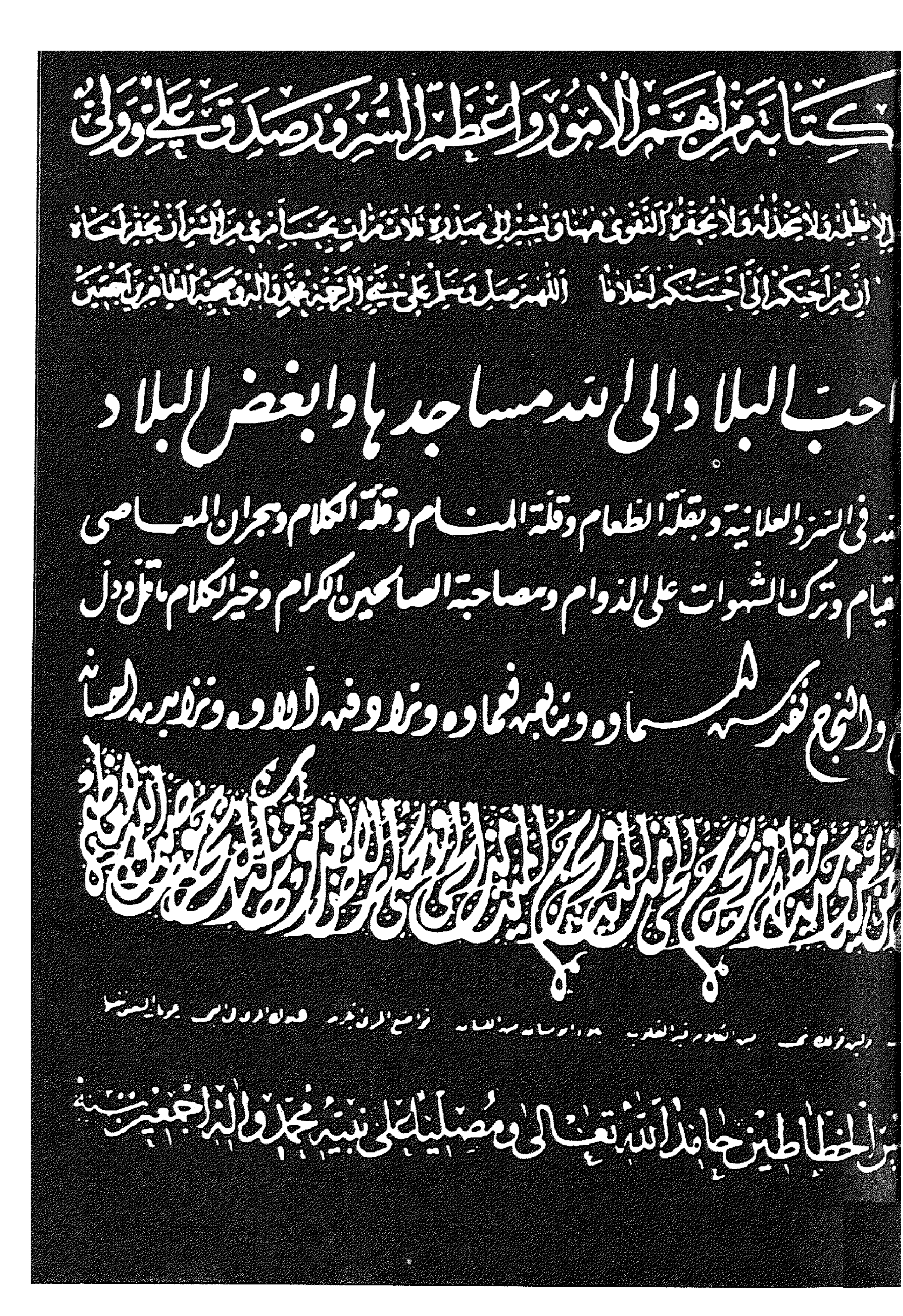
العصر الاسلامي

أوامر القرآن

كان نبي الاسلام اميا، كما أكد القرآن وقال (سورة ٢٩، آية ٤٨): «وماكنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون». وكيف لا يفتخر الاسلام أن أول وحي أوحى إليه كان في أمر القراءة وثناء القلم (سورة ٩٦: آية ١ ــ ٥):

«اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الانسان من علق. اقرأ وربك الاكرم. الذي علم بالقلم. علم الانسان ما لم يعلم».

فكان من أول اطباق هذا الأمر كتابة الوحي، وحفظ القرآن بواسطة الخط[١٤]. وله أهمية



احب البلاد الى الله مساجدها وابغض البلاد
في السر والعلانية وبقلة الطعام وقلة المنام وقلة الكلام وهجران المعاصي
قيام وترك الشهوات على الدوام ومصاحبة الصالحين الكرام وخير الكلام ما قل ودل

خاصة، فإن كل ملة تعتنى بدينه أكثر من أي شيء آخر. فاهتم المسلمون بالقرآن المكتوب جد الاهتمام ولم يزالوا في اتقان الخط وتجميله. ولا شك أن الخط المستعمل للقرآن هو من أجمل خطوط العالم. وأيضا من اتقنها لصحة التلفظ وعدم إمكان الابهام، (فكلمة HAMID مثلا يمكن أن نقرأها: حمد، وحميد، وحامد، وحاميد؛ ولا يوجد مثل هذه الامكانات والابهامات في الخط العربي مع إعرابها). وأول ما فعل النبي بعدما هاجر، هو بناء مسجد، وخص فيه صفة للتعليم، فعين أساتذة لتعليم الكتابة مثل عبد الله بن سعيد بن العاص، وعبادة بن الصامت[١٥].

ومن أول ما نزل من القرآن بعد الهجرة آية المداينة (سورة ٢، آية ٢٨٢)، فأمر بوجوب كتابة المعاقدات المالية إذا كانت إلى أجل. وقال النبي عليه السلام[١٦]: «ما حق امرىء مسلم، له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده». ومن الطف ما روي[١٧] عن النبي الأمي هو أنه لما أسر الأسارى في بدر، طلب الفداء من كل واحد منهم؛ فمن كان يعرف الكتابة، جعل فدائه تعليم عشرة غلمان من المسلمين الكتابة. (وفيه جواز المعلم المشرك لتعليم المسلمين).

ذكر الطبري[١٨] أن النبي، عليه السلام «بعث معاذ بن جبل معلما لأهل البلدين: اليمن وحضر موت». وقال أيضا[١٩]: «وكان معاذ معلما يتنقل في عمالة كل عامل». وأيضا[٢٠] «ومعاذ بن جبل يعلم القوم بتنقل في عمل كل عامل».

الكتابة بالعبرانية وغير ذلك

قبل أن نطالع تطور الخط العربي، يجب أن نذكر أن المسلمين احتاجوا منذ العصر النبوي إلى خطوط سوى الخط العربي.

ذكر المسعودي[٢١] أن زيد بن ثابت كان «يكتب إلى الملوك ويجيب بحضرة النبي وكان يترجم للنبي بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية. تعلم ذلك بالمدينة عن أهل هذه الألسن». وذكر عدد من المؤرخين[٢٢] أن النبي، عليه السلام، قال لزيد: «اتحسن السريانية؟ فإنها تاتيني كتب». قلت: «لا». قال: «فتعلمها». فتعلمتها في تسعة عشر يوما. ـــ وكأن المراد بالسريانية هي العبرانية، فإن اليهود كانوا يستعملون الخط العبراني مهما كانت اللغة التي يتكلمون بها.

ذكر ابن حنبل[٢٣] عن «عبد الله بن عمرو بن العاص قال: رأيت فيما يرى النائم لكأن في إحدى اصبعي سمنا وفي الأخرى عسلا، فأنا العقهما. فلما أصبحت، ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: تقرأ الكتابين: التوراة والفرقان. فكان يقرأهما». وذكر ابن سعد[٢٤] «... رأيت عبد الله بن عمرو يقروء بالسريانية». وروي ابن كثير[٢٥] في تفسيره: «قال النبي، عليه السلام: بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج. ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار. رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو. ولهذا كان عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما، قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما؛ بما فهمه من هذا الحديث من الاذن في ذلك».

ذكر ابن ماجة[٢٦] «أن النبي، عليه السلام، قال يوما لأبي هريرة: أشكمت درد؟ (ألك وجع في البطن؟)». ولكن لم يرو شيء عن كتابته بالفارسية. نعم ذكر السرخسي[٢٧]: «روي أن الفرس كتبوا إلى سلمان، رضي الله عنه، أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية. فكانوا يقرءون ذلك في الصلاة حتى لانت ألسنتهم للعربية». وفي النهاية حاشية الهداية[٢٨]: «روي أن الفرس كتبوا إلى سلمان الفارسي أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية. فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم: بنام يزدان بخشايندهء بخشايشكر. فكانوا يقرأون ذلك في الصلاة حتى لانت ألسنتهم بالعربية. وبعد ما كتب، عرض على النبي، صلى الله عليه وسلم، ثم بعثه إليهم. ولم ينكر عليه النبي، صلى الله عليه وسلم، كذا في المبسوط».

إن كتابة أبرهة على السد في مارب[٢٩] بالخط الحميري (المسند)، وأبرهة مات عند ولادة نبي الاسلام. فالراجح أن هذا الخط كان رائجا بين أهل اليمن، فمن أسلم منهم مثل أبي هريرة كان لا بد يعرف ذلك الخط. وأنا وجدت كتابات بذلك الخط في المدينة على العقيق عند بئر عروة.

كان للنبي، عليه السلام، ختم يختم به مكاتيبه. ولكن ذكر ابن سعد[٣٠] أن النبي

□ نقش «أم الجمال» احد النقوش الأربعة المشهورة، تعود إلى ما بين سنة ٢٥٠م وسنة ٢٧١م.

لما عاهد مع أكيدر (أخي بشر بن عبد الملك) صاحب دومة الجندل، وكان في الأصل من أهل الحيرة، وكتب الكتاب «ختمه بظفره». والختم بالابهام معروف في جميع العالم. أما الختم بالظفر فهو أمر يتعلق بالعراق خاصة. فقد نجد هناك كتابات على اللبنات، فيها علامة مثل الهلال الصغير في آخر النص ويقول الكاتب أو فريق المعاهدة: ختمته بظفري[٣١]. ولذلك ختم النبي، عليه السلام، بظفره، على طلب أكيدر.

حاجات الخط العربي

إحتاج المسلمون أولا إلى أن يكتبوا القرآن. وأمر القرآن المسلمين أن يكتبوا جميع المداينات[٣٢]. واحتاج النبي ايضا كرئيس الدولة إلى من يكتب له أموال الزكاة والمغانم، ومن يكتب له إلى الملوك وفي سائر ما يعرض له من الحوائج[٣٣].

أما الصحابة، فسوي القرآن وحوائجهم من العقود المالية، بدأوا يكتبون الأحاديث منذ حياة النبي[٣٤] وزاد شغلهم بها بعدما توفي. ونسمع عن كتب السير والتاريخ والفتاوى (الفقهية) منذ عصر الخلفاء الراشدين[٣٥].

تطور الخط

كلما زادت حاجة الناس إلى المكاتبات، زاد اعتناؤهم بالتدقيق والاتقان. والفرق بين خط الكتابات من قبل الاسلام والخط الموجود الآن الذي ننشر به هذه المجلة هو الرقش (أي النقاط المميزة بين بـ تـ ثـ نـ يـ، جـ حـ خـ، إلى غير ذلك). والاعراب (أي حركات الفتح والكسر والشدة والسكون وغيرها). وبدون هذين يهم على القارىء مراد الكاتب. ويروى عن سيدنا عمر أنه قرأ مرة «فأتوا أن يضيفوهما» بدل «فأبوا أن يضيّفوهما»، كما ورد في القرآن. وذكر

□ نقش «اننمارا» احد النقوش الاربعة المشهورة، وينقش عادة على الاضرحة، (٣٣٨م)، ويمثل شعراً للشاعر العربي امرؤ القيس.

السيوطي[٣٦] أن سيدنا عثمان كتب مرة إلى أهل مصر تولية رجل ثم قال: «فإذا جاءكم فاقبلوه»، فقرأه الناس «فإذا جاءكم فاقتلوه»، فكان سبب الفتنة وشهادة سيدنا عثمان فإن الثائرين لم يصدقوه حين حلف أنه لم يكتب بأمر القتل.

فمتى بدأ العرب بإيجاد هذه الأمور من ... قش والاعراب؟ الظاهر أن الناس لما احتاجوا ... حل هذه الصعوبات، فكر كل واحد، وتحصلت ...تراحات عديدة، ولم يبق ما بقي إلا بعد طول تجربة ومسابقة بين اقتراحات مختلفة. وهذا معنى النزاع فيمن أوجد هذه الايجادات. رأينا فيما سبق أن ابن النديم ينسب الاعجام إلى ما قبل الاسلام. وذكر الداني[٣٧] أن إيجاد الاعراب ينسب إلى أبي الأسود الدؤلي، وإلى نصر بن عاصم الليثي، وإلى خليل بن أحمد. وينسب أيضا إلى يحيى بن يعمر والحجاج بن يوسف. وكل هذا لئلا يلحن (أي يغلط) الناس في قراءة القرآن. وحكي الداني[٣٨] أيضا أن الاعراب كان أولا بواسطة النقاط مختلفة الألوان، وكذلك الفرق في محل النقطة. فلما صعب هذا، أوجدوا الأشكال ليميزوا بين الرقش والاعراب وكلاهما بمداد واحد.

هذا ما روى المؤرخون المتأخرون. ولكن من حسن حظ العلم لم تتلف جميع الوثائق القديمة، واكتشف بعضها منذ قريب. وهذه الوثائق تصحح بعض ما روى المؤرخون ،، وتخبر عن بعض ما لم يخبروا. فلنبحث عن الرقش والاغراب على حدة:

الرقش

إن حروف الهجاء العربية تحتوي على (٢٨) حرفا على عدد منازل القمر. أما الأشكال فهي نصف هذا العدد كما سنرى في الجدول التالي:

١ ــ بـ، تـ، ثـ، نـ، يـ ــ جـ، حـ، خـ ــ د، ذ ــ ر، ز ــ سـ، شـ ــ صـ، ضـ ــ ط، ظ ــ ع، غ ــ ف، ق ــ ك ــ ل ــ م ــ و ــ هـ.

ولا تتميز إلا بالنقاط.

نشر جورج مايلس[٣٩] مقالة مصورة عن كتابة وجدت على سد قريب الطائف، نقروء عليها: في ستة أسطر ما يلي:

«هذا السد لعبد الله معوية/ أمير المؤمنين، بنيه(=بناه) عبد الله بن صخر/ بإذن الله لسنة ثمن وخمسين. ا/ اللهم اغفر الله معوية ا/ميـر المؤمنين وثبته وانصره ومتع ا/ لمؤمنين به. كتب عمرو بن حباب».

ويقول صاحب المقال إنه يوجد رقش على إحدى عشرة كلمة، يعني في السطر الأول على ى من معاوية؛ وفي السطر الثاني على ب و ن و ى من بنيه (أي بناه)؛ وفي السطر الثالث على ث و ن و ى من ثمن وخمسين؛ وفي السطر الرابع مع احتمال الرقش على كلمة «اغفر»؛ وفي السطر الخامس على ث و ب و ت من «ثبته»، وكذلك ن من «وانصره»، و ت من «متع»؛ وفي السطر السادس على ن و ى (مع احتمال ن) من «المؤمنين»، و ب من «كتب»، و ب الثانية من «حباب» (ما يمكن أن نقرأ خباب أو جناب أيضا، والرجل غير معروف). هذا على كتابة من السنة ٥٨، ولكن نجد الرقش على بردى أقدم من هذا. فقال آدولف كرومان[٤٠]: «ولو انه اعتقد منذ برهة، على أساس ما ذكره المؤلفون العرب، أن إيجاد الرقش أي تنقيط الحروف لم يحدث قبل النصف الثاني من القرن الأول للهجرة... ولكن الحقيقة أن أقدم بردى (بابيروس) موجود ومؤرخ سنة ٢٢ للهجرة المطابقة سنة ٦٤٣ للميلاد المسيحي (من ذخيرة الأمير الكبير راينر، كما نشر في دليل معرض ويانا ١٨٩٤، رقم ٥٥٨) يرينا الرقش على الحروف خ، ذ، ز، ش، ن». وهذا البردى من خلافة سيدنا عمر بن الخطاب، وعليه نص عربي مع ترجمة يونانية، عثر عليه في بلدة أهنس في مصر، ويذكر الجنود البرية والبحرية، والخيل، ومن بالأسلحة الخفيفة ومن بالأسلحة الثقيلة. وهذا نص القسم العربي منه كما قرأه كرومان:

سطر ١ ــ بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أخذ عبد الله

٢ ــ ابن جبير وأصحبه من الجزر من اهنس: أخذنا

٣ ــ من خليفة تذرق ابن أبو قير الأصغر ومن خليفة إصطفن ابن أبو قير الأكبر خمسين شاة



□ نص اندلسي مغربي

٤ ـــ من الجزر، وخمسة عشر شاة أخرى أجزرها أصحب سفنه وكتّبه وثقلاه في

٥ ـــ شهر جمدي الأول من سنة اثنين وعشرين. وكتب ابن حديدة».

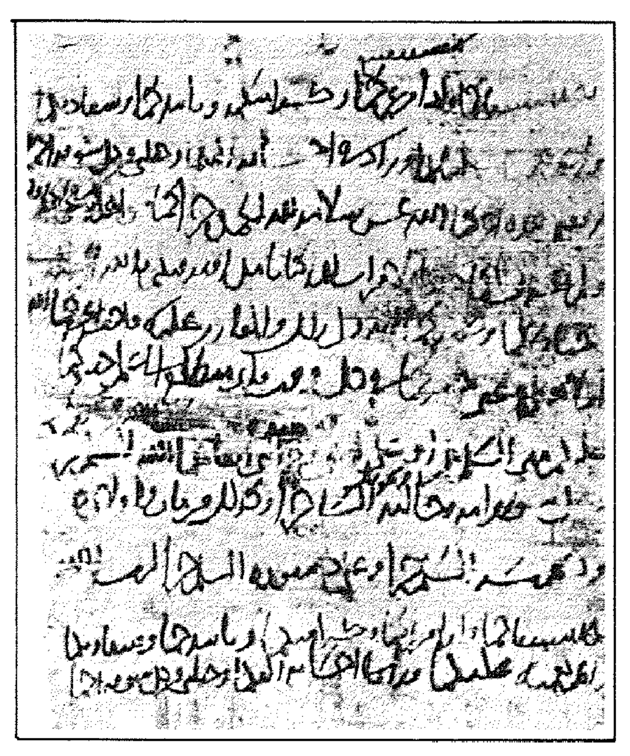
ونجد في كتاب گرومان صورة هذا البردى وترجمة النص اليوناني ومعلومات أخرى. ونشر گرومان مقالا آخر[٤١] فيه صور بينها بردى مؤرخ «سنة اثنتين وعشرين»، وبردى آخر غير مؤرخ (أرخه گرومان ٢٢ ـــ ٧٥هـ)، وآخر من سنة ٥٧ للهجرة كلها مرقوشة ظاهر الرقش.

الرقش في العصر النبوي

رأينا آنفا أن كتابة معاوية على سد الطائف مرقوشة. ومعاوية يعزو الرقش إلى النبي، عليه السلام. وجدت ذكره في تدريب الراوي للسيوطي (ص ١٥٢)، وحقق لي استاذان كريمان صبحي الصالح ويوسف العش أن نفس الرواية توجد أيضا في مخطوطتين: في تاريخ دمشق لابن عساكر (الجزء السادس، ورقة ٢ ـــ ٣)، وفي الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (ورقة ٥٥)، الأولى منهما في دمشق والأخرى في الاسكندرية. وتذكر هؤلاء المصادر:

«عن عبيد بن أوس الغساني كاتب معاوية قال: كتبت بين يدي معاوية كتابا. فقال لي: يا عبيد ارقش كتابك؛ فإني كتبت بين يدي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، رقشته ـــ (وفي رواية السيوطي: كتبت بين يدي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا معاوية ارقش كتابك) ـــ قال عبيد: قلت: وما رقشه (وفي رواية ابن عساكر: مارقشته) يا أمير المؤمنين؟ قال: اعط كل حرف ما ينوبه من النقط».

نرى من هذا أن الرقش كان معروفا في أواخر العصر النبوي (فإن معاوية صار كاتبا له بعد فتح مكة في سنة ثمان للهجرة) نعم لم يراعه الناس تماما في جميع ما يكتبون، كما نرى في برديات عصر سيدنا عمر أيضا. ولكن لا شك أن الرقشة عرفها الناس منذ العصر النبوي، فقد روى ابن الأثير[٤٢] أن النبي، عليه السلام، قال: «إذا اختلفتم في الياء والتاء فاكتبوها بالياء» (مثل ليعلم ولتعلم). ويعاضده ما روى الداني[٤٣] عن

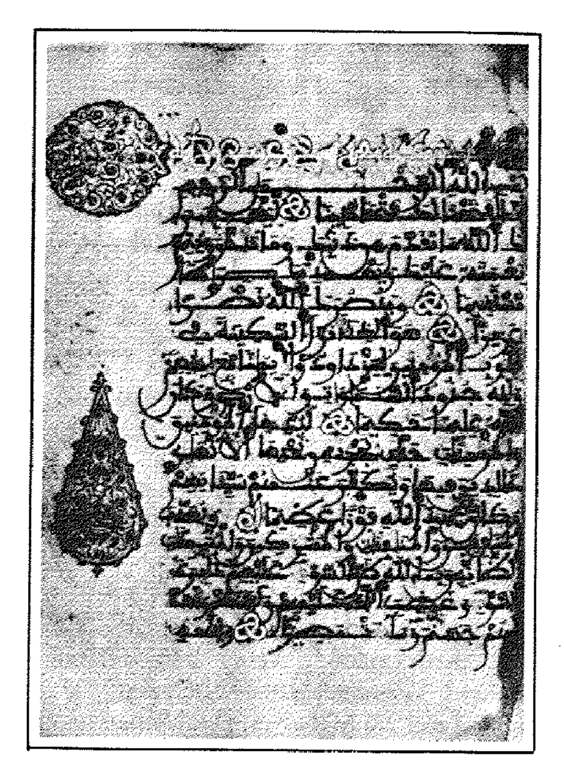


□ قرطاس مصري، حول ٨٠٠م يحتوي على مكتوب خاص.

يحيى بن أبي كثير: كان القرآن مجردا في المصاحف، فأول ما أحدثوا فيه النقط على الياء والتاء، وقالوا: لا بأس به هو نور له».

الاعراب

من المحتمل أن الاعراب شيء متأخر من العصر النبوي واحتاج الناس إليه لما الحنوا في قراءة القرآن. فيقال[٤٤] إن أبا الأسود الدؤلي اختار رجلا من عبد القيس فقال: «خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد، فإذا فتحت شفتي فأنقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف. وإذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله، فإن اتبعت شيئا من هذه الحركات غنّة فانقط نقطتين. فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره. ثم وضع المختصر المنسوب إليه بعد ذلك». وعزي الداني هذه الحكاية إلى ولاية زياد زمن معاوية، ولكن نقل بالهامش الدكتور عزة حسن، محقق كتاب الداني عن كتاب «الايضاح في الوقف والابتداء» لأبي بكر الأنباري (ورقة ١٦ ـــ ١٧) أن عمر بن الخطاب أمر أبا الأسود فوضع النحو. وأبو الأسود من التابعين توفي في سنة ٦٩ للهجرة وكان تلميذ سيدنا علي أيضا.



□ صحيفة من القرآن الكريم، بالخط المغربي.

ولكن لما نرى أن رسم القرآن (في سورة ١٢، آية ٣٢) «ليكوناً» بدل «ليكونن»، وكذلك «إذاً» بدل «إذن» (١٢/١٤)، وأيضا «لنسفعاً» بدل «لنسفعن» (٩٦/١٥) إلى غير ذلك، يمر ببالنا أن التنوين على الأقل من عصر النبي، عليه السلام. ويؤكد هذا أن رسم القرآن (في ٢١/٨٨) «نجي» بدل «ننجي». وبالعكس أيضا يرسم في القرآن (٥١/٤٧) «بأييد» ويتلفظ «بأيد».

ولكن لا نجزم به. وصرح الداني[٤٥] أن لأهل المدينة كان طريق خاص للاعجام، ثم تركوه وأخذوا طريق أهل البصرة. ولم يصل إلينا إلى الآن وثائق كافية لنعرف تطور حركات الاعراب وأشكاله.

ولا بأس بالاشارة أن الخط العربي يحذف الألف كثيرا، فيكتب بسم الله الرحمن الرحيم وكان وجب أن يكتب «بإسم اللاه الرحمان الرحيم». ولكن هذا أمر قديم ونجده قبل الاسلام أيضا، لا بالخط العربي فحسب، بل أيضا بخطوط سامية أخرى. مثلا يوجد كتابة أبرهة في مارب على السد وهي بالخط الحميري (المسند) فكتب «مسحه ورح قدس» ويجب أن نقرأ «مسيحه وروح قدس»، فهذا الخط يحذف الواو والياء أيضا. كأن الناس لم يحتاجوا إلى حروف العلة وكفاهم الحروف الصحيحة.

ويجب أن ينسب أيضا إلى أقدم العصور الاسلامية زيادة حرف الألف في صيغة الجمع من الماضي والمضارع (مثل فعلوا، يفعلوا). وسبب رأيي هذا هو أن القرآن يستعمله أحيانا ويتركه أحيانا، وأيضا يستعمل حيث لا نستعمل الألف الآن، مثلا:

ما كنت تتلوا (بدل تتلو) ٢٩/٤٨.

ما نشوا (بدل ما نشاء) ١١/٨٧. (وكذلك الضعفوا، الشفعوا، العلموا بدل: الضعفاء، الشفعاء، العلماء).

وهذا يدل أن هذا من أول أمر الكتابة. وبما أن رسم سيدنا عثمان للقرآن لم يغير — ونعم ما فعل المسلمون — وصل إلينا نماذج بدء الكتابة العربية.

النقود

يوجد في متاحف العالم نقود إسلامية من جميع العصور، منها ما ينسب إلى سيدنا عمر وإلى سيدنا معاوية. وعلى مؤرخ الخط العربي أن لا ينساها. وبما أني لم أشتغل بهذا الموضوع، أكتفي بالاشارة إليه.

الخلاصة

إن الروايات عند المؤرخين، والحقائق في الوثائق القديمة مثل أوراق البردى والكتابات على الحجر وما ينسب من المكتوبات إلى النبي[٤٦]، وكذلك النقود (الدراهم والدنانير وغير ذلك) تدل على تطور سريع للخط العربي. فرقش الحروف وعلامات الاعراب بدأت منذ العصر النبوي، وتم تطورها في عصر الصحابة. وما دام لم يكن هناك وسائل الكتابة بالماكينات، كفى للغة العربية خطها الذي ورثته منذ العصر النبوي والخلافة الراشدة. وهذا الخط لا يماريه أحد في الجمال، والاتقان والاقتصاد، فإن الخط العربي نوع من الاختزال يأخذ مكانا أقل مما تأخذ خطوط أخرى. فلو اعتنى صانعو المطابع ومهرة الخط العربي فتعاونوا لأمكن إيجاد الآلات اللازمة لكتابة الخط العربي المشكل (المعرب) مع سرعة العمل وجمال الفن. والله المستعان.

هوامش

(١) الجامع للترمذي (كتاب التفسير. سورة ٦٨، وايضا كتاب القدر رقم ١٧)؛ وسنن أبي داوود (كتاب السنة باب القدر. حديث رقم ١٠)؛ ومسند ابن حنبل. ج ٥، ص ٣١٧.

(٢) نقله البلاذري في انساب الأشراف، ج ١، ص ٣؛ روض الانف للسهيلي، ج ١، ص ١٠؛ تاريخ الطبري. طبعة ليدن، السلسلة الأولى، ص ١٧٤.

(٣) السهيلي. ج ١، ص ١٠.

(٤) تاريخ الطبري أيضا. ص ١٧٤.

(٥) كذا «يثرب» في أصل المخطوطة، وغيره دخويه في طبعة ليدن فاقترح «يتردد»، وهذا بدون حاجة.

(٦) كذا عن ابن النديم؛ وفي «المحكم في نقط المصاحف» للداني. ص ٣٥، عن هشام الكلبي «أسلم بن خدرة اول من وضع الأعجام والنقط».

(٧) كتابة الملك امرىء القيس اللخمي في النمارة في شرقي حوران المؤرخة ٣٢٨ للميلاد المسيحي، ونقش زبد في جنوب شرقي حلب المؤرخ ٥١٢م، ونقش حران في اللجا المؤرخ ٥٦٨، ونقش أم جميل من عين العصر، فراجع:
Ph.Kh.Hitti, *History of the Arabs, pp. 70, 88*
طبعة خامسة، ص ٧٠، ٨٨؛ وللنصوص
Rép. Chronolog. d'épigraphie arabe
رقم ١ — ٤، ٤ مكرر.

(٨) فتوح البلدان. طبعة ليدن، ص ٤٧١.

(٩) الفهرست. الباب الأول.

(١٠) راجع أيضا كتاب المصاحف لابن أبي داوود، ص ٤ — ٥.

(١١) الفهرست. الباب الأول.

(١٢) فتوح البلدان. ص ٤٧١ — ٤٧٢.

(١٣) أيضا، ص ٤٧٣ — ٤٧٤.

(١٤) راجع لتاريخ كتابة القرآن في العصر النبوي مقدمتي لترجمة القرآن الفرنسية، طبعة ثالثة، باريس، ١٩٦٣، حيث ذكر المراجع أيضا.

(١٥) أسد الغابة لابن الأثير. ج ٣، ص ١٧٥؛ الاستيعاب لابن عبد البر. رقم ١٦٢٧؛ الاصابة لابن حجر. رقم ١٧٦٩، ولعبادة بن الصامت. راجع التراتيب الادارية لعبد الحي الكتاني. ج ١، ص ٤٨، عن أبي داوود.

(١٦) صحيح البخاري. كتاب ٥٥، باب ١؛ طبقات ابن سعد. طبعة ليدن، ج ٤، ق ١، ص ١٠٨.

(١٧) كتاب الأموال لأبي عبيد. رقم ٣٠٩؛ طبقات ابن سعد. ج ٣، ق ١، ص ١٤؛ مسند ابن حنبل. ج ١، ص ٢٤٧، (أو رقم ٢٢١٦)؛ السهيلي. ج ٢، ص ٩٢.

(١٨) تاريخ الطبري. السلسلة الأولى، ص ١٨٥٢.

(١٩) أيضا، ص ١٨٥٣.

(٢٠) أيضا، ص ١٩٨٣.

(٢١) التنبيه للمسعودي. طبعة ليدن، ص ٢٨٢ — ٢٨٤.

(٢٢) تذكرة الحفاظ للذهبي. ج ١، ص ٢٩ — ٣٠؛ كتاب المصاحف، لابن أبي داوود. ص ٣.

(٢٣) مسند ابن حنبل. ج ٢، ص ٢٢٠ (أو رقم ٧٠٦٧).

(٢٤) طبقات ابن سعد. ج ٤، ق ٢، ص ١١.

(٢٥) تفسير ابن كثير. ج ١، ص ٤.

(٢٦) سنن ابن ماجة كتاب الطب. باب ١٠ (او رقم ٣٤٥٨).

(٢٧) كتاب المبسوط للسرخسي. ج ١، ص ٣٧.

(٢٨) لتاج الشريعة، طبع بهامش الهداية، نشرها عبد الحي اللكنوني، كتاب الصلاة.

(٢٩) مجلة المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٦، ٤/١، ص ١٨٦ — ٢١٩، مقالة جواد علي مع صورة الكتابة والترجمة.

(٣٠) طبقات ابن سعد. ج ٢، ق ١، ص ١٢٠.

(٣١) Oluf Krückmann, *Neue babylonische Rechts-und Verwaltungstexte,* Leipzig 1933, Text 37, Tafel 28; Meissner, *Babylonien und Assyrien,* I, 179; Ch. Edwards, *The Hammurabi Code, p. 11.*

(٣٢) القرآن: سورة ٢، آية ٢٨٢: «إذا تداينتم بدين إلى اجل مسمى فاكتبوه».

(٣٣) التنبيه والاشراف للمسعودي. ص ٢٨٢ — ٢٨٤.

(٣٤) راجع مقدمة صحيفة همام بن منبه، خاصة النشرة الانكليزية:
Sahifah Hammamibn Munabbih, Centre Culturel Islamique de Paris, N°. 2 (1960).

(٣٥) كان رجل جاء بمجموعة فتاوى سيدنا علي وعرضها على ابن عباس.

(٣٦) تدريب الراوي للسيوطي. ص ١٥١.

(٣٧) المحكم. ص ٣ — ٦.

(٣٨) أيضا، ص ٤.

(٣٩) George C. Miles, *Early Islamic Inscriptions near Ta'if in the Hijaz,* (Journal of Near Eastern Studies, 1948, VII/4, p. 240.

(٤٠) Adolf Grohmann, *From the World of Arabic Papyri* (Cairo, 1952), p. 82, 113 — — 114.

(٤١) *The Problem of Dating Early Qur'ans* (Der Islam, Berlin, 1958, XXXIII/3, p. 220, plate II).

(٤٢) أسد الغابة، لابن الأثير. ج ١، ص ١٩٣.

(٤٣) المحكم للداني. ص ٢، ١٧، ٣٥.

(٤٤) المحكم للداني. ص ٤.

(٤٥) أيضا، ص ٧.

(٤٦) راجع لصور ثلاثة منها: (إلى المقوقس، والمنذر بن ساوي، والنجاشي) كتابي *Le Prophete de l'Islam* وصورة المكتوب إلى كسرى، نشرت في جريدة الحياة، بيروت، المؤرخة ١٩٦٣/٥/٢٢، مع مقالة صلاح الدين المنجد.

المخطوطات العربية في مدينة حلب:

تتوزع المخطوطات العربية في مدينة حلب بالجمهورية العربية السورية بين ثلاث مكتبات رئيسية وعدد من المكتبات الخاصة والبيوت والمساجد.

جاء ذلك في رسالة بعث بها الأستاذ ظافر يوسف، المعيد بقسم اللغة العربية في جامعة حلب إلى معهد المخطوطات العربية في الكويت وتحدث فيها عن المكتبات هناك فقال:

□ المكتبة الوقفية الاسلامية (الأحمدية).

وتقع خلف الجامع الأموي الكبير عند بوابة السوق المقبي، يديرها الشيخ أحمد محمد سردار منذ عام ١٩٦٧، ويبلغ عدد المخطوطات العربية فيها ٥٢٥٠ مخطوطا، تتناول مختلف العلوم، وتتوزع موضوعاتها على النحو التالي: القرآن الكريم وتفاسيره ــ علوم القراءات ــ الحديث ــ أصول الفقه ــ التصوف ــ اللغة العربية (التي تعد أوفر الأقسام حظا، فتضم المعاجم اللغوية والنحو والصرف والبلاغة والعروض والأدب والدواوين الشعرية)، إضافة إلى التاريخ ــ الطب ــ الحكمة ــ المنطق ــ الفلسفة ــ الفلك ــ الحساب ــ والروحانيات.

وقد وضع الأستاذ أحمد سردار فهارس وسجلات لهذه المكتبة، لم تطبع بعد.

□ المكتبة المارونية.

تضم هذه المكتبة ١٥٣٦ مخطوطا أقدمها يعود إلى سنة ١٣٤٢، وأحدثها يعود إلى سنة ١٨٠٠. وهذه المخطوطات تتناول مختلف العلوم الإنسانية. وأهمها: «شرح مقامات الحريري» للشريشي، و «القاموس المحيط» للفيروز آبادي، و «شرح الألفية» لأبي المكارم الطرزي، و «شرح الفية ابن المضيف»، و «شرح البديعة» لابن حجة الحموي، و «شرح ديوان المتنبي» لمؤلف مجهول، و كليلة ودمنة»، و «العقد الفريد» للملك السعيد الظاهر بيبرس، وهو غير كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، و «ديوان ابن الفارض»، وغيرها.

□ مكتبة معهد التراث العربي العلمي.

تضم ٣١٥ مخطوطة اصلية، وأكثر من الفي مخطوطة مصورة، جميعها في موضوعات علمية كالطب والفلك والميكانيكا والرياضيات والفلسفة، وهذه المخطوطات مفهرسة وإن لم تنشر فهارسها بعد.

وتحتوي هذه المكتبة على ١٠٧٦٥ كتابا عربيا وأجنبيا تعني كلها بتاريخ الحضارة العربية، وبخاصة جانب العلوم منها. كما تضم عددا كبيرا من البحوث والمقالات التي نشرت حول ما قدمه العرب في مجال العلوم.

اكتشافات أثرية في السعودية:

● اكتشفت في قرية «صفاقة» جنوب شرقي منطقة الدوادمي شمال غرب الرياض عدة آلاف من الأدوات الحجرية المختلفة التي تعود إلى العصر الأشولي الأوسط وذلك أثناء عمليات حفر تجري هناك.. وقد لاحظ فريق من خبراء الآثار التابعين للادارة العامة للآثار أن مواقع هذه الأدوات توجد على شاطىء واد سحيق القدم، حيث عثر على مواقع شلالات مياه قديمة بالقرب من قاطع طويل يتجه من الشرق إلى الغرب.

كما اكتشفت منطقة أثرية شمال مدينة المذنب التي تقع غير بعيد عن مدينة الرياض، وقد احتوت المنطقة المكتشفة على مقابر وبيوت سكنية قديمة جدا وقطع فخارية وأجزاء من الأدوات الشعبية التي كانت تستخدم في غابر الزمان، وبعض البوابات والمداخل التي تحتوي على ملامح فنية.



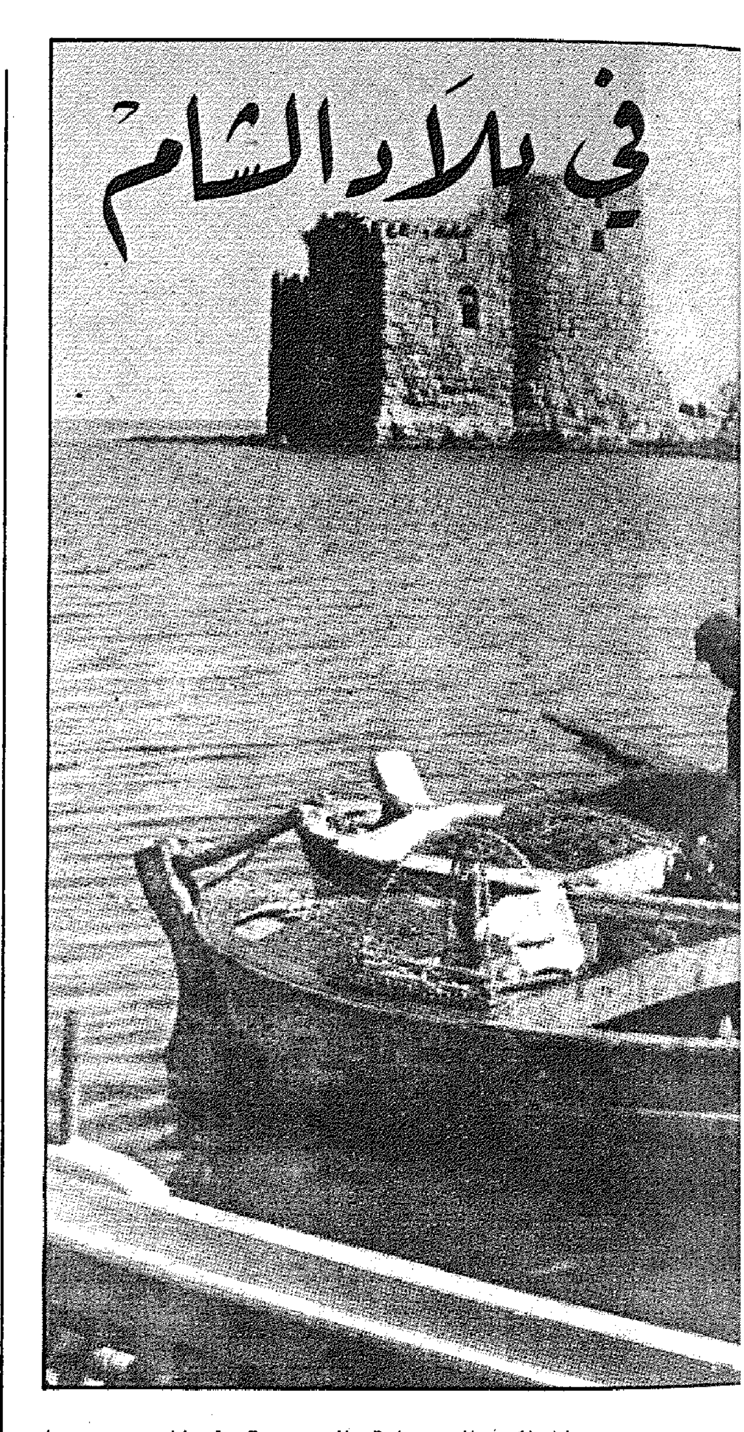
الحماية العثمانية للتجار الفرنسيين

د. حسين سلمان سليمان

معاهدة الامتيازات

لم تشكل حركة التبادل التجاري مع مصر والمغرب وبلاد العرب الجنوبية، إلا نسبة ضئيلة من العلاقات التجارية لبلاد الشام مع تلك البلاد، في حين تركز الجانب الأكبر من حركة المبادلة التجارية الشامية مع الدول الأوروبية. وكانت تقوم بها جاليات استقرت في مختلف المدن والموانىء العثمانية منذ أوائل القرن السادس عشر، بموجب معاهدة الامتيازات التي عقدها الملك الفرنسي فرنسوا الأول (١٥١٥ ــ ١٥٧٤) مع السلطان العثماني سليمان القانوني (١٥٢٠ ــ ١٥٦٦) سنة ١٥٣٥. ثم لم تلبث أن تطورت هذه المعاهدة بعقد اتفاقات أخرى، ضمنت كلها لرعايا فرنسا، حرية الملاحة والتجارة والسفر مع تركيا[١]، ولم يسمح السلطان العثماني إلا للبنادقة والانجليز والهولنديين من الاستفادة من هذه الامتيازات[٢].

وأوكلت مسؤولية معاملات تجارة فرنسا مع العثمانيين، إلى هيئة مميزة على رأسها وزير البحرية، كانت ترد إليها الرسائل بدون انقطاع



من المراكز القنصلية الفرنسية في المشرق. مما يدل على مدى يقظة وعناية الوزير بكل تفاصيل المهمة التي أسندت إليه، ومعرفته التامة بكل ما يحصل في الموانىء العثمانية، وأسماء رعايا الملك الفرنسي المقيمين في هذه الأنحاء البعيدة. وساعد الوزير موظف ذو سلطة مطلقة، مقره في غرفة تجارة مرسيليا، التي أنشئت في عام ١٦٥٠، بهدف الاهتمام بصورة رئيسية فقط بتجارة المشرق، لأن المدينة كانت مستودعا لتلك التجارة[٣].

وكان ينوب في المشرق عن غرفة تجارة مرسيليا، سفير أو قنصل أو نائب قنصل، وكان الأول يسهر على تنفيذ الأوامر الملكية والقرارات الوزارية. ويعين القنصل الملك أو السفير حسب أهمية المركز، ومن واجباته تبادل الرسائل معهما، وأن يخضع لسلطتهما وتمثيلهما أمام التجار، الذين كان يتم اختيارهم بدقة متناهية. إذ لم يكن يسمح لأي تاجر فرنسي بالاقامة في المشرق، ما لم يكن مصحوبا باذن صادر من غرفة تجارة مرسيليا. وهذه لا يمكنها منح الاذن أو تجديده لأي تاجر، إلا بعد التحري عنه بدقة، ولا تسلمه الاذن إلا بعد تقديم ضمانات، والأفضلية للشباب المنحدرين من عائلات عريقة في حقل التجارة. ولا يسمح لهم باستصحاب زوجاتهن إلا إذا كن في سن متقدمة، كما يحظر عليهم اصطحاب فتياتهن الغير متزوجات، وإنما يجب ابقاءهن في أحد الأديرة. كما حظر على التاجر الفرنسي المقيم في المشرق، أن يتزوج من نساء البلاد، نظراً لعادة الشرقيات القريات التزين بأحجار كريمة يقارب قيمتها من ٢٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ قرش، يمكن أن تشكل ثروة في أيدي زوجها إذا استثمرت في التجارة. كما نصت القوانين على العديد من الأمور الممنوعة، وذلك لابعاد التجار عن كل ما من شأنه أن يسبب لهم مضايقات. ولهذا الهدف نفسه نظم الوزير حياة التجار الخاصة، فحرم عليهم لعب الميسر، وترك الزي الأوروبي، والتجمع في أماكن التسلية، وكل من يخالف هذه الأوامر يحق للسفير أو القنصل تسفيره إلى فرنسا[٤].

الحي والخان الفرنسي

وشكل الفرنسيون في كل أسكلة[٥] طائفة أو تجمع واحد يعيشون فيه متضامنين، وأقاموا في المدن الكبرى في حي خاص، بحيث أن الفرنسي الذي يدخله يعتقد أنه في وطنه. إذ لا يشاهد في هذا الحي، ما يشاهد في باقي أحياء المدن الشرقية، من قصور واكواخ، وشوارع ضيقة متسخة، وفوضى سائدة في كل مكان، فشوارع الحي الفرنسي مقتنى بها جيدا، مضاءة بالليل، ويسهر على تأمين السكان حراس خصوصيين، وتلتف المنازل حول الكنيسة، ويرفرف فوق منزل القنصل العلم الفرنسي[٦].

وفي المدن الصغرى يتجمع الفرنسيون في مبنى واحد يدعى الخان، وهو عبارة عن بناء كبير في وسطه ساحة كبيرة مربعة الشكل تدعى الحوش، ويحيط بهذا الحوش رواق على الجوانب الأربعة، ويرتفع الرواق على أعمدة، وينزل التجار في غرف الطابق العلوي المطلة على الحوش. وخصص الدور الأرضي ليكون مستودعات ومخازن لبضائع الفرنسيين المقيمين في الخان[٧]. وقدصمم الخان بطريقة تسمح له بصد أي هجوم قد يتعرض له، فأبوابه صلبة متينة، وجدرانه سميكة قادرة على مقاومة الحريق والصمود أمام الحصار وحفظ الطائفة من الأذى. واعتادت الطائفة أن تقفل ابواب الخان، بعد أن تتزود بالمؤن اللازمة، بمجرد أن يظهر وباء في البلاد، فتعزل نفسها لمدة عدة أشهر عن كل اتصال مع المدينة الموبوءة، وأحيانا أخرى أن تهاجر جميعها، وتختار مقرا مؤقتا في بعض الأماكن المرتفعة المجاورة[٨]. وقد ترك لنا الدبلوماسي الفرنسي (Paradis) وصفا للخان الفرنسي في صيدا وما كان يجري به من نشاط تجاري خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

«... **يقيم القنصل والتجار في صيدا في خان واسع ولطيف، احدى حسناته أنه حصين لحمايته من هياج شعبي. ويعتبر القنصل بالنسبة للجالية، الشخصية الأولى في المدينة بعد الباشا. والتجارة مفيدة لكل السكان، وللحاكم الذي تعود إليه عائدات الجمرك...**»[٩].

ويعيش الفرنسيون في هذه الأحياء والخانات أشبه بحياة الرهبان والجنود، فيتوجب عليهم قلة الخروج من هذه الأماكن المخصصة لسكناهم، وعدم الاختلاط بالسكان إلا بهدف التجارة. وهناك ظروف يتوجب فيها على الطائفة الفرنسية أن تتخطى حدود الحي أو الخان، للقيام بواجب تحية باشا جديد، وتوجيه احتجاج، أو الاشتراك باحتفال. فتظهر كجسم واحد، مصطفة في شوارع المدينة في مظهر شبه عسكري، يتقدمهم العلم الفرنسي وعلى رأسهم القنصل ممتطيا جواده وسط انكشاريته[١٠].

وكانت خزينة الطائفة بمثابة منجم لا ينضب في نظر الباشا والمتسلم[١١] والموظفين وقادة



□ فرنسوا الاول.

الانكشارية[١٢]، فهو وسيلة استرزاق تثير عندهم الطمع والاغراء. ففي البداية جرت العادة أن يسحبوا مبالغ على شكل هدايا، تطلب بالحاح تحت اسم «عادة»، وهي غالبا ما تكون مطالب متشددة تحت حجج مختلفة، فأي فرنسي يدخل إلى الخان في ساعة متأخرة يتهم بأنه كان يغازل سيدة مسلمة، فيفرض الباشا على الطائفة كلها غرامات مرتفعة جدا، ويتكرر هذا السلوك دائما إلى حد أنه اخترع تعبير خاص للدلالة عليها، وصارت كلمة ظلم تعني في لغة الطائفة الفرنسية تنكيد تعسفي، وأحيانا يرفع الباشا ضرائب الديوان دون سبب ودون حساب. ومع ذلك فلم تكن الطائفة تقف مكتوفة الأيدي ازاء البلية النازلة عليها، دون أن تدافع عن نفسها، فتحتج وتناقش وتستعمل حيل ومؤامرات وتدخل في صراع، أحيانا تصل فيه إلى نتائج ايجابية وأحيانا أخرى تخرج منه خاسرة، وتلجأ إلى السفير الفرنسي في الأستانة، ليستصدر من الباب العالي[١٣] أمر بوقف المظالم المذكورة[١٤].

براءة شغل المنصب

وانقسمت المؤسسات الفرنسية في المشرق، إلى قنصليات عامة ونيابة قنصليات، وكانت حلب مركز قنصل عام فرنسا في بلاد الشام، ويخضع لسلطته قنصل في طرابلس وآخر في صيدا، نقل

مصادر الوثيقة: أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية.
وحدة الحفظ: المراسلات السياسية سجل رقم ٣٢ (C.P. Tuquie -ièces Divers en lanque Arabe.
عنوان الوثيقة: غينر يشغل منصب قنصل طرابلس مكان والده المتوفي.

قدوة الملة المسيحية وعمدة طايفة العيساوية محبنا المحتشم وكيل قونسلوس طايفة الفرنساوية بمحروسة طرابلس حالا شارلو كيز ختمت عواقبه بالخير والرشاد.
بعد السؤال عند خاطركم والاستفسار عند احوالكم المنهى لمحبتكم وصلنا تحريركم المتضمن موت والدكم قونسلوس طرابلس وأن بحسب القوانين المرتبة من جانب دولتكم ملتزمين تنوبوا بمكان والدكم وتتعاطوا وكالة القونسلية وأبقيتم أخيكم في اللاذقية وكيلا بمكانكم والتمستم من طرفنا المساعدة وأجرا المحبة كما كانت بيننا وبين والدكم جميع ذلك صار معلومنا وتأسفنا على موت والدكم لكون شاهدنا منه السلوك الحسن بمدة اقامته ولكن هذا تقدير العزيز الحكيم (؟) بحوله تعالى تنالوا رتبته من طرف دولتكم وبخصوص المساعدة والاسعاف الذي يلزم وإلى محبينا طايفة الفرنساوية بمنه تعالى ما يصير من طرفنا اغضاء به ودايما مهما جد لكم من المسولات المقتضى تحريرها لطرفنا عرفونا عنها وبحوله تعالى مقرونة بالاسعاف من لدنا هذا ما لزم تحريره لمحبتكم والسلام على من اتبع الهدى ٢١ شوال ١٢٢٧.

وهو طبق أصله

محرره
حنا
(؟)
كاتب عربي

من مجموعة د. حسين سلمان سليمان.

الأخير بعد عام ١٧٧٦ إلى عكا وتحولت صيدا إلى نيابة قنصلية، ثم أقيمت في بيروت قنصلية سنة ١٨٢٢. ولا يمكن لأحد أن يشغل أي من هذه المراكز، إلا بموجب «براءة»[١٥]، يستحصل عليها السفير الفرنسي في الأستانة من الباب العالي. ومن أهم واجبات من يشغل هذا المنصب، السهر على تنفيذ مبادىء نظام الامتيازات، وإعلام السفير الفرنسي في الأستانة بكل ما يحصل من أمور هامة في الولاية التي يقيم فيها، وأن ببيانات دورية عن حالة الملاحة والتجارة في الدائرة التابعة له. وأن يدرب أحد أبنائه أو أقربائه على الأعمال القنصلية، ودراسة اللغات الشرقية وعلى الأخص التركية، ونقله باستمرار من ولاية لأخرى لاستكمال معارفه، وحين تبرز كفاءاته يرشحه رؤساؤه لمنصب نائب قنصل أو قنصل ويؤكد ذلك رسالة من السفير الفرنسي في الأستانة إلى حكومته[١٦].

«... اقترح أن يعين لولاية عكا قنصل واحد يقيم في بيروت، أرشح لهذا المنصب السيد (ديبون) الذي يجيد لغة وعادات البلاد، وهما أمران يكفيان لتسهيل أعماله، كما أدار سابقا بشكل مرض نيابة قنصلية اللاذقية وبيروت...»[١٧].

واحتاجت الأعمال القنصلية في الأساكل المشرقية إلى مترجمين، ونظرا لتعرض أبناء البلاد المحليين من نصارى ويهود لظلم السلطات العثمانية أثناء قيامهم بواجباتهم؛ استعين بفرنسيين يؤتى بهم في سن العاشرة، فيوضعون في أديرة الآباء الكبوشيين في أزمير وأنقرة، لاجادة لغة البلاد وللعمل فيما بعد كمترجمين، ولكن الاستعانة بهؤلاء لم تسد الحاجة. فعقد اتفاق مع الباب العالي جاء فيه أن المترجمين من أبناء البلاد، يتمتعون بحماية الدولة التابعة لها السفارة أو القنصلية، على أن يقوموا بأعمال الترجمة، ويعفون من كل الضرائب التي يدفعها الرعايا من خراج وخلافه ولا يخضعون للقضاء العثماني، ويتمتعون بكل الامتيازات التي يتمتع بها أبناء الدولة الحامية، ويتم اختيارهم من قبل

السفراء والقناصل، بعد موافقة الباب العالي بموجب براءة. ثم لم تلبث أن امتدت الحماية، إلى الوكلاء القنصليين وإلى خدام السفارة أو القنصلية[١٨].

وقد أستعين بالوكلاء القنصليين منذ نهاية القرن السابع عشر، فقد اقتضت مصلحة حماية المصالح الفرنسية البسيطة في بعض الموانىء العثمانية، أن تعهد الحكومة الفرنسية إلى نصارى من أبناء البلاد، بمهمات وكلاء قنصليين. ولم يكن لهم لقب قنصل ويقومون بأعمال غير مهمة للغاية، وليس لهم أية سلطة حقوقية على أبناء الطائفة الفرنسية في الميناء، ولا صلاحيات رسمية مع السلطات العثمانية. وحددت وظيفتهم في استقبال قباطنة السفن الفرنسية الذين يرسون في الأسكلة، وتزويدهم بالمؤن وتسهيل اصلاح مراكبهم عند الحاجة، واعطاءهم معلومات عن حالة الملاحة مقابل رسم معين من قباطنة المراكب المذكورة[١٩].

ومن بين الذين أسند إليهم منصب نائب قنصل فرنسا في حلب سنة ١٦٥٥ الشيخ ابانوفل نادر الخازن من كسروان، ثم عين سنة ١٦٦٢ قنصلا في بيروت وتوارث أحفاده هذا المنصب حتى سنة ١٧٥٨[٢٠]، وظل هذا المنصب شاغرا إلى سنة ١٧٨٧ حين شغله الشيخ سعد الخوري مدبر أمير جبل الدروز يوسف الشهابي[٢١].

وكما ذكرنا فقد كان يتم تعيين المحمي العثماني من هؤلاء بموجب براءة صادرة عن السلطان أو الباب العالي، وتكون ملكا للسفارة التي أعطيت لها، وإذا توفي حاملها أو أوقف عن العمل، يستخدمها السفراء كتجارة رابحة، فيبيعونها إلى تجار محليين أغنياء مقابل مبلغ متواضع، ويصبح هؤلاء الأخيرون معفون من الضرائب والملاحقة القضائية. وصارت هذه البراءات تسلم للقادر على شرائها، وغالبا ما كانت تمتد إلى عائلة المستفيد منها ووراثية. وبذلك تحولت من وسيلة لتسهيل أعمال السفراء والقناصل، إلى أداة سياسية. واستخدمتها روسيا في وقت متأخر في اليونان، فصار لها معاهدة كوتشك قينارجة[٢٢] (Kûchük Kaynarja) سنة ١٧٧٤ أكثر من سبعة ملايين زبون من أرمن ويونان[٢٣].

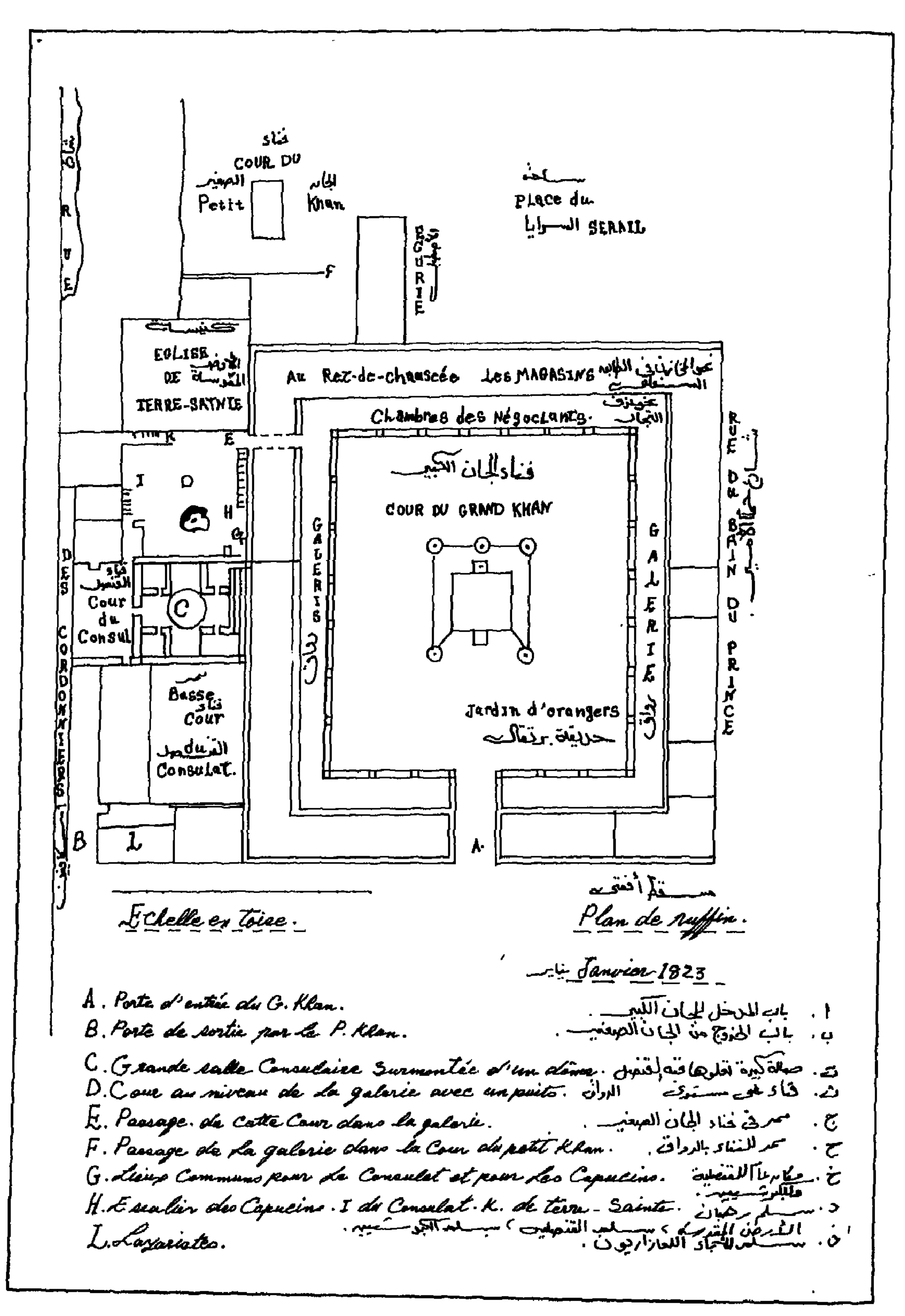
وتمتع المحمي العثماني بموجب البراءة، بالحقوق نفسها التي منحتها الامتيازات لطوائف القوى الحامية. من حرية الاقامة، والتجول في كل أطراف الامبراطورية العثمانية، وحرية التجارة والحرية الدينية وحرمة المنازل، والحصانة في القضاء المدني والجزائي. والاعفاء من الضرائب التي يدفعها النصارى واليهود من رعية السلطان، ومن الخدمة العسكرية[٢٤]. ولذا فليس غريبا أن يقول القنصل الفرنسي (هنري غيز)[٢٥]. بأن أجمل أحلام العربي أن يحصل على براءة، وأن يبذل في سبيل ذلك بكل ما يملك من قوى ووسائل، وبأن يتهافت على شرائها كل مستطيع، مهما بلغ ثمنها. ويؤكد ذلك أيضا تعهد كتبه على نفسه أحد النصارى إلى القنصل الفرنسي في يافا سنة ١٨٢٢.

«... لقد تكلمت أنا المحرر اسمي... مع... قنصل دولة فرنسا، وطلبت منه أن يشرفوني في برايا شريفة... حماية دولة فرنسا... قدر ما يكون غرش حكم البرايا الشريفة التي يخرجوهم... ندفعه حالا بزيادة...»[٢٦].

دور المبشرين النصارى

ومن أهم الواجبات الملقاة على القناصل الفرنسيين ونوابهم في بلاد الشام، حماية رجال الدين الكاثوليك والموارنة، الذين كانوا يتعرضون كغيرهم من سكان بلاد الشام، لظلم السلطات المحلية العثمانية، مما دفع ملكي فرنسا لويس الرابع عشر (١٦٤٣ ــ ١٧١٥) ولويس الخامس عشر (١٧١٥ ــ ١٧٧٤) إلى اصدار براءات، من الباب العالي إلى الولاة العثمانيين، بعدم ازعاج الموارنة واعلامهم بأن هذه الطائفة تحت الحماية الفرنسية[٢٧]. وبالرغم من هذه الحماية فقد كان للروم في معظم المدن العثمانية، الحق في طرد أتباع الكنيسة الموحدة، وعلى الأخص في طرابلس واللاذقية وأنطاكية، فيقوم هؤلاء باللجوء إلى المبشرين والقناصل الفرنسيين، حيث يجدون الحماية والمعاملة اللائقة[٢٨].

فقد استفاد المبشرون النصارى من نظام الامتيازات الأجنبية المعقود بين فرنسا والدولة العثمانية، فتوافدوا على بلاد الشام للقيام بالتبشير تحت الحماية الفرنسية. فتقربوا من



مسطح القنصلية الفرنسية في صيدا

السكان وأظهروا التواضع أمامهم، وتكلموا معهم بلغتهم، وزاروهم في المناطق النائية. وتمكنوا بمرونتهم ومهارتهم من اكتساب رضى الولاة وعالجوهم في مرضهم، وانشأوا المستشفيات وافتتحوا المدارس. ووجدوا في البداية مصاعب كبيرة، ولكن ما لبثوا أن صاروا مقبولين ومطلوبين، فانتشروا تدريجيا في كل الولايات الشامية، تسندهم حماية فرنسا التي كانت تشجعهم وتعمل لصالحهم[٢٩].

وكانت فرنسا المستفيد الأول من انتشار هؤلاء الرهبان، فقد ظهرت في الشرق كملجأ للنصارى عامة. وكان المبشرون يقوون هذا الشعور، عن طريق الدعاية المستمرة، بأن سيادة الملك الفرنسي الذي لا يقهر وحدها القادرة على تخليص النصارى[٣٠].

وبازدياد أعداد المبشرين حققت فرنسا مكاسب في المشرق عن طريقهم، فزالت اللغات الايطالية واليونانية وانتشرت اللغة الفرنسية، كما جنت التجارة الفرنسية مكاسب كبيرة، فقد كانوا بمثابة عملاء يمدون الحكومة الفرنسية بما يعلمون عن البلاد التي يعيشون فيها، من حيث انتاجها وحاجاتها والمجالات «التي يمكن لتجارتنا أن يحققوا فوائد منها، وبفضل جهودهم المستمرة وتجاربهم تمكنت تجارتنا أن تروج سلعنا وبأسعار مرتفعة»[٣١]. فنشطت تجارة مرسيليا مع بلاد الشام، وحققت ازدهارا لم تشهده مدينة في العالم[٣٢].

احتكار المعاملات التجارية

وبذلك تركزت تجارة بلاد الشام بيد الطائفة الفرنسية، يساعدها في ذلك بداعي المصلحة والتعاطف الديني الواحد، النصارى من اهل البلاد وكذلك اليهود، فاحتكروا معا كل المعاملات التجارية في حين لم يتعاط بها إلا قلة من أبناء البلاد المسلمين. وليس مرد ذلك إلى أمور دينية أو اهمال، ولكن بسبب الصعوبات التي كانت تضعها الحكومة العثمانية. فبدلا من أن يعطي الباب العالي إلى رعاياه الأفضلية في ممارسة النشاط التجاري، حظي بهذا المكسب الأجانب، الذين نجحت حكوماتهم في تخفيض الضريبة إلى ٣ ٪ من قيمتها، في حين كان يدفع أبناء البلاد ٧ ٪. كما أعفي الفرنسيون من دفع ضريبة على البضائع التي استوفي عليها رسم في أحد الموانىء العثمانية، في حين كان يدفع هذه الضريبة رعايا السلطان[٣٣].

وساعدت هذه الحماية، على بروز عدد من التجار المحليين من النصارى أبناء البلاد، فصاروا يمارسون التجارة مع أوروبا بأسمائهم، مستفيدين من الخفض النسبي للرسوم المفروضة على صادراتهم ووارداتهم، وتمكنوا بهذه الطريقة أن يعرضوا بضائعهم، بأسعار أقل من تلك التي يعرضها منافسوهم المتمتعون بالجنسية العثمانية[٣٤]، فحققوا بذلك أرباحا طائلة. مما دفع بعض التجار ممن لم يتمتعوا بالحماية الفرنسية، السعي إلى استعارة اسم أحد الوكلاء القنصليين، وصاروا يمارسون التبادل التجاري مع مرسيليا، مقابل أن يدفعوا للوكيل تعويضا ماليا قدره ٥ ٪ من قيمة الفاتورة. مما أثار قلق وكيل تجارة فرنسا في دمشق، فكتب إلى حكومته منبها، في أن الخطر الناجم من هذا التطور ليس في كمية البضائع التي سوف يصدرها هؤلاء، ولكن من الخبرة التي سوف يكتسبونها عبر علاقتهم المباشرة مع مرسيليا[٣٥]. وأكد ذلك أسعد الخياط[٣٦] المعاصر لهذه الفترة التاريخية بقوله:

أثار ذلك حسد التجار الأجانب فقالوا يتاجرون أيضا في هذه القارة من العالم، ومن يتكهن فقد يتنور هؤلاء ويتبعون طريق أسلافهم الفينيقيين، ويقبضون على عنان التجارة في الشرق والغرب.

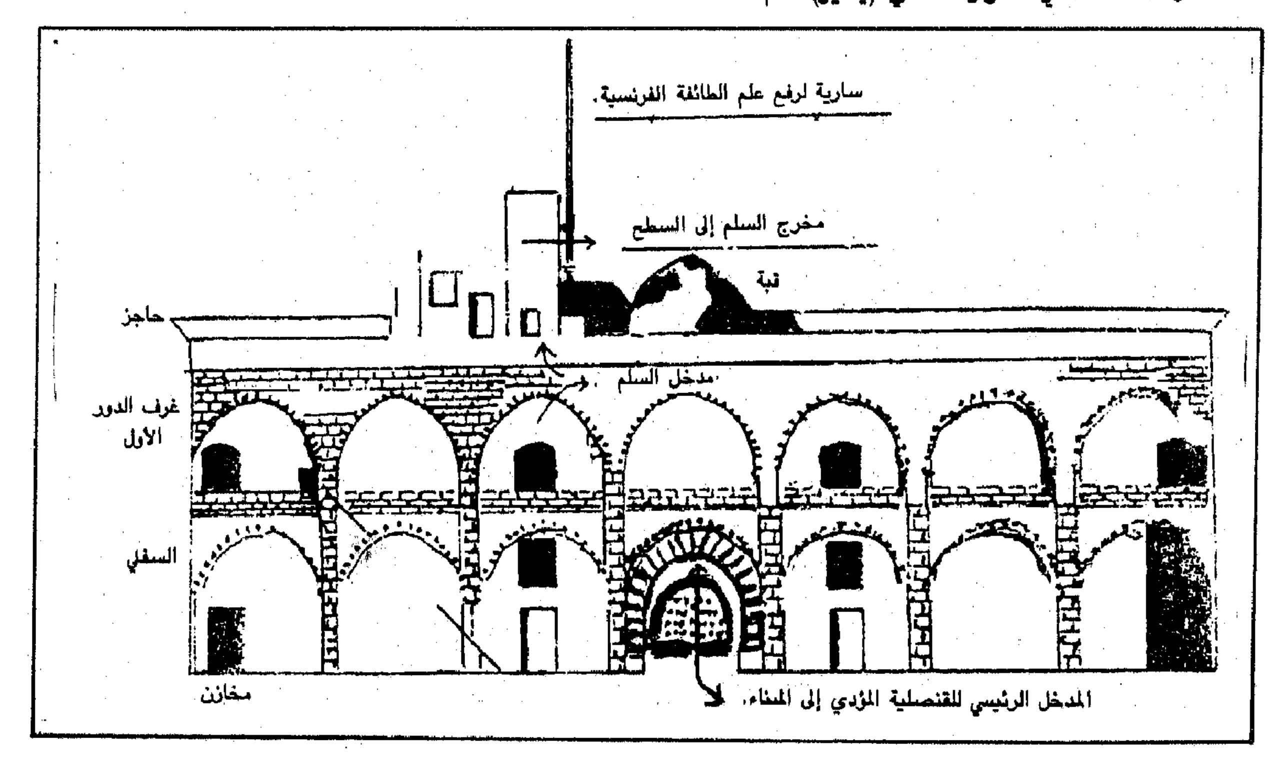
المبادلات التجارية مع أوروبا

وكانت كل بالة قماش تخرج من مصانع اللانفدون والبروفانس لترسل إلى المشرق، تخضع للتدقيق قبل أن تعطي الاذن بالتصدير. ولكي ترسل إلى الموانىء العثمانية يجب أن تخرج من مرسيليا فقط الباب الوحيد المفتوح نحو المشرق، حيث تخضع مرة ثانية للتدقيق، ثم تعطي الاذن بالتصدير، من مؤسسة تشرف على البضائع المرسلة إلى الشرق، وينحصر عملها بمنع تراكم البضائع في الأساكل لكي لا يؤدي



□ لويس الرابع عشر.

□ واجهة مبنى القنصلية الفرنسية في صيدا.
نقلا عن ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية، مجموعة المراسلات القنصلية تركيا (C.C) سجل رقم ٢٧. وضعه القنصل (Ruffin) في كانون الثاني (يناير) عام ١٨٢٣.





□ تاجر فرنسي من اساكل المشرق.



□ السلطان سليمان القانوني.

ذلك إلى انخفاض أسعارها، لأن التصدير يجب أن يتناسب مع الاستهلاك[٣٧].

واستورد التجار الفرنسيون من أوروبا عن طريق موانىء بلاد الشام، الصلب والابر وحجر الشب ومراسي المراكب والكحل والفضة وخشب البرازيل والبقيم (نوع من القرنيات) والحبال والبن الأميركي والأوراق البيضاء والسمراء والنيلة والمرجان والدبابيس والقصدير والحديد الأبيض وقضبان الحديد على أنواعها والبلاتين والفضة والبنادق والمسدسات والبارود والخردق والرصاص والكبريت وورق اللعب (كوتشينة) والعباءات والأجواخ الرقيقة والساتان والمخمل ودودة القرمز وحجر الشب والخردة والنيلة والنرنجيل والأشربة وخلافها من أشكال الأطعمة والسكر والساعات الذهبية والقرنفل. وكان يجري نقل جانب كبير من هذه السلع المذكورة عن طريق القوافل إلى دمشق وبغداد، فتبادل عليها بسلع أخرى مطلوبة من التجار الأوروبيين، مثل القمح والزيت والحرير وقطن عكا والصمغ، والعقاقير التي تأتي من اليمن عن طريق القوافل القادمة من مكة، وكذلك سلع الهند وفارس من مجوهرات وريش وأقمشة، يضاف إليها منتجات مقاطعات مرتفعات وساحل لبنان، من قطن وحرير وعفص ورماد وشمع واسفنج وزيت، وأرز من مصر، وتصدر جميعها إلى أوروبا[٣٨].

وقدرت حركة طرابلس التجارية لعام ١٨٢٥ بالفرنك الفرنسي:

ثمن زيت ٢ مليون.
ثمن صابون ١ مليون.
ثمن أحزمة حرير ٥٠٠ ألف.
ثمن اسفنج ٢٣٠,٠٠٠.
ثمن قلي ٢٠٠,٠٠٠.
ثمن برتقال وليمون ٥٠,٠٠٠[٣٩].

ويستدل من حركة التبادل التجاري مع أوروبا، بأن الفوائد التي كانت تعود من ورائها ضئيلة، فقد تألفت الواردات من المواد الصناعية والكماليات للأغنياء، على حين أن الصادرات تتكون من مواد خام غير مصنعة، مما كان يعود بالضرر على الصناعة والرخاء الاقتصادي لبلادنا، يضاف إلى ذلك أنها أرهقت توازنها النقدي، ويحتمل أن يكون هذا أحد الأسباب للهبوط في قيمة العملة الفضية في القرن الثامن عشر[٤٠]. ●

الهوامش

(١) Dambman et Noel Verney, Les Puissances étrangères dans le Levant, en Syrie et en Palestine. Paris, 1900. pp. (79-80).
(٢) Vandal, (A)., Une Ambassade Française en Orient sous Louis XV..., p. 17.
(٣) Ibid. pp. (17-19).
(٤) Ibid. pp. (19-21)
(٥) الأسكلة، ميناء او مدينة مشرقية كان يتم فيها مبادلات تجارية مع الغرب.
(٦) Vandal. op.cit. pp. (21-23).
(٧) جان سوفاجيه، دمشق الشام، لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر. تع. فؤاد افرام البستاني، المشرق م ٣٤، ص ٢٠١، سنة ١٩٣٦.
(٨) Vandal. op.cit. pp. cit. pp.(23-26).
(٩) PARADIS, (Jean Michel, Venture de) Observation sur la côte de Syrie M.S. conservé à la Bibliothèque National de Paris N 9135/n.a.F.., ff (68v-70v).
(١٠) Vandal. op.cit. p. 23.
(١١) المتسلم، شغل هذا المنصب موظفان كان كلاهما بمثابة نائب للوالي، فقد أطلق هذا اللقب على حكام السناجق أو المقاطعات الصغيرة أو المدن الهامة، وايضا على نائب الوالي في عاصمة الولاية.

(١٢) الانكشارية. حرف المؤرخون العرب هذه الكلمة عن اصلها التركي، فأصبحت تعرف بالانكشارية، ويكاد يكون القصد من تحريفها هو تعريبها، ويبدو أن شكل كتابة الكلمة قد ساعد على تحريفها، فهي تكتب «يكنجري» وتلفظ «يني تشري»، لأن حرف ك في اللغة التركية القديمة يلفظ نونا، وحرف ج الفارسية يلفظ تاء وشينا. وعليه فان كلمة «يكنجري» مؤلفة من مقطعين الأول «يكني» بمعنى جديد أو حديث، والثاني «جري» بمعنى جندي، فيكون المعنى: الجند الجديد أو العسكر الجديد. عبد العزيز عوض. الادارة العثمانية، ص ١٣.

(١٣) الباب العالي. كناية عن مبنى كبير أقيم في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٤٨ ــ ١٦٨٧)، خصص جناح منه ليقيم به الصدر الأعظم مع اسرته وخدمه وحرسه، وخصصت باقي الأجنحة لاجتماعات كبار موظفي الدولة الذين يقومون بتصريف مهامها. وغدا اسم هذا المبنى «باشا قابيي» أي بوابة الباشا، و «بابي عالي» أي بوابة عليا، ثم اكتسب اسم الشهرة في التاريخ وهو الباب العالي.

(١٤) Vandal. op.cit. pp. (26-27).

(١٥) براءة. من كلمة براءة العربية بمعنى ميزة أو اعفاء، وبالتالي شهادة تعطى الاعفاء أو الميزة. انظر: جب وبون، هاملتون وهارولد. المجتمع الاسلامي والغرب، تر. احمد عبد الرحيم مصطفى، جزءان، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠ ــ ١٩٧١. ج١ ص ١٧٤.

(١٦) دار الوثائق القومية في باريس، مجموعة (B7. 452 Marine) Ordonnance du Roi.

(١٧) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة المراسلات التجارية والقنصلية (C.C.C) الصادرة عن الأستانة بتاريخ ١٣/٩/١٨٢٧ رقم ٤٥.

(١٨) Pelissé du Raussas, (G)., Le Regime des Capitulations dans L'Empire Ottoman, 2vols, Paris, 1902-1905. Voir pp. (23-27).

(١٩) Ibid. pp. (27-28).

(٢٠) رينيه ريستلهوبر. تقاليد فرنسا في لبنان. حريصا، سنة ١٩٢١ أنظر ص (١٤٨ ــ ١٥٦)؛ راجع نص الوثيقة لدى Ismail. op.cit. t. 4, p. 35.

(٢١) شيبان الخازن، تاريخ شيبان. مخ.، نشر في مجلة **الأصول التاريخية**، م ٣، سنة ١٩٥٨، انظر ص (٣٠٢ ــ ٣٠٣)؛ ادوارد لكوروي. احمد باشا الجزار وأعماله في سوريا ولبنان وفلسطين. تر. جورج مسره، ساو باولو (البرازيل)، سنة ١٩٢٤؛ راجع النص الكامل لرسالة البراءة في بطرس غالب. صديقه ومحاميه، بيروت، ١٩٢٤، ص (٢٤٠ ــ ٢٤١).

(٢٢) اعترفت تركيا باستقلال شبه جزيرة القرم عنها، فضمتها الامبراطورة كاترين إلى روسيا بعد ذلك بتسع سنوات. كما سمح لروسيا بانشاء قنصليات في ممتلكات الدولة العثمانية، والحق لرعاياها التجارة في املاك هذه الدولة، وإقامة كنيسة ارثوذكسية في القسطنطينية، وحقد رعاياها بالحج إلى الأراضي المقدسة المسيحية التي تقع في الممتلكات العثمانية. عمر عبد العزيز عمر. دراسات في تاريخ العرب الحديث، ج ١، دار النهضة العربية، بيروت، سنة ١٩٧١، أنظر ص ١٢٢.

(٢٣) Rausas. op.cit. pp. (33-34).

(٢٤) Ibid. p. 57, Wood, Alfred. A History of the Levant Companie, Oxford University presse, 1955. See p. 135.

(٢٥) بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن، ج ١، ص (١٤٩ ــ ١٥٠).

(٢٦) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة (BE.1) محفظته رقم ١٢، تقرير صادر من بيروت بتاريخ ؟/١٠/١٨٢٨.

(٢٧) أنظر النص الكامل لهذه الوثائق لدى:
Ismaïl, Adel., Documents Diplomatiques et Consulaires..., 28 vols, Ed., des œuvres politiques et historiques, Beyrout, 1975-1983. Voir t. 4, pp. (22-26) et t. 5, pp. (175-179).

(٢٨) Guys, Henry., Exquise de l'état politique et Commercial de la Syrie, Paris, 1862. Voir pp. (110-143).

(٢٩) Vanda. op.cit. pp. (9-12).

(٣٠) Ibid. p. 15.

(٣١) Lamy, Etienne. La France du Levant, Paris, 1900. Voir. pp. (273-274).

(٣٢) Julliany, Jules. Essai sur le commerce au Marseille Jusqu'en 1841, 3 Vols., Paris, 1842-1843. Voir V. 2, p. 266.

(٣٣) Loc.cit.

(٣٤) جب وبون. المجتمع الاسلامي والغرب. ترجمة احمد عبد الرحيم مصطفى، جزءان، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١ ــ ١٩٧٢. انظر ج ٢، ص (١٦٢ ــ ١٦٣).

(٣٥) أرشيف غرفة تجارة وصناعة مرسيليا، مذكرات عن تجارة دمشق، تقرير مؤرخ في ٢٠/١/١٨٢٦.

(٣٦) صوت من لبنان، تر.، مخائيل صوايا، بيروت، سنة ١٩٥٧، انظر ص ٣٠.

(٣٧) Vandal. op.cit. pp. (27-30).

(٣٨) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة المراسلات التجارية والقنصلية (C.C.C) الصادرة عن حلب بتاريخ ١٠/٧/١٨١٦ و ٢٥/٢/١٨٢٥.

(٣٩) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة (M. et D.) Turquie وثيقة رقم ٣٦ مؤرخة في ١/٩/١٨٣٣.

(٤٠) جب وبون. مرجع سابق، ج ٢، ص (١٥٨ ــ ١٥٩).

بين عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد (*)

لما أراد عبد الملك بن مروان الخروج إلى العراق لقتال مصعب[1] بن الزبير، واخذ في جهازه أقبلت عاتكة ابنة يزيد بن معاوية، امرأته، في جواريها، وقد تزينت بالحلي، فقالت: يا أمير المؤمنين؛ لو قعدت في ظلال ملكك، ووجهت إليه كلبا من كلابك لكفاك امره، فقال: هيهات! أما سمعت قول الأول:

قومٌ إذا ما غَزَوْا شَدُّوا مآزِرَهم
دونَ النساء ولو باتَتْ بأطهارِ

فلّما أبى عليها وعزم، بكت وبكى معها جواريها، فقال عبد الملك: قاتل الله ابن أبي ربيعة؛ كأنه ينظر إلينا حيث يقول:

إذا ما اراد الغزوَ لم يثْنِ همَّهُ
حَصَانٌ عليها نظمُ دُرٍّ يزِينُها
نَهَتْهُ فلما لم تَرَ النَّهيَ عاقَهُ
بكتْ فبكَى مما دهاها قطينُها[2]

ثم خرج يريد مصعب، فلما كان من دمشق على ثلاث مراحل اغلق عمرو بن سعيد دمشق، وخالف عليه، فقيل له: ما تصنع؟ أتريد العراق وتدع دمشق؟ أهل الشام أشد عليك من أهل العراق. فرجع مكانه، وحاصر أهل دمشق حتى صالح عمرو بن سعيد على أنه الخليفة بعده، وأن له مع كل عامل عاملا ففتح له دمشق، وكان بيت المال بيد عمرو بن سعيد، فأرسل اليه عبد الملك: أن أخرج للحرس أرزاقهم. فقال: إذا كان لك حرس فان لنا حرسا أيضا، فقال عبد الملك: أخرج للحرس أرزاقهم.

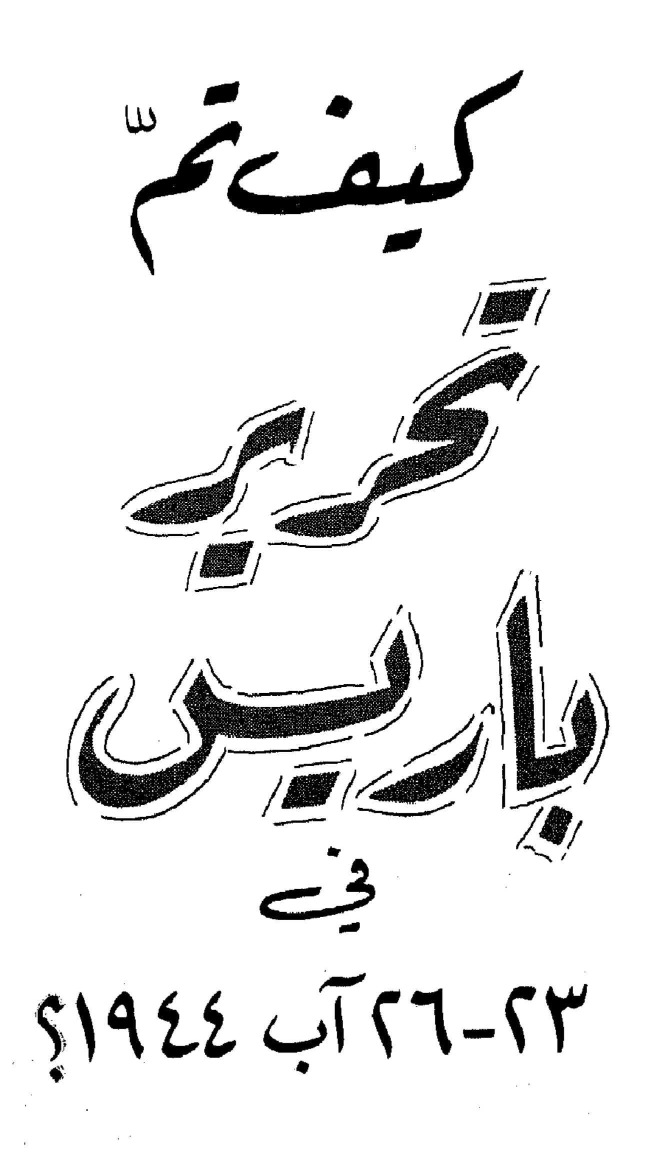
فلما كان يوم من الايام أرسل عبد الملك إلى عمرو بن سعيد نصف النهار. أن ائتني أبا امية حتى أدبر معك أمورا، فقالت امرأته: يا أبا أمية؛ لا تذهب إليه، فانني أتخوف عليك منه، فقال: والله لو كنت نائما ما أيقظني! قالت: والله ما آمنه عليك، وإني لأجد ريح دم مسفوح؛ فما زالت به حتى ضربها بقائم سيفه فشجها.

فخرج وخرج معه اربعة آلاف من ابطال أهل الشام الذين لا يقدر على مثلهم، مسلحين، فأحدقوا بخضراء دمشق، وفيها عبد الملك، فقالوا: يا أبا أمية، إن رابك ريب فأسمعنا صوتك، ثم دخل، فجعلوا يصيحون: يا أبا امية؛ اسمعنا صوتك — وكان معه غلام أسحم[4] شجاع — فقال له: إذهب إلى الناس فقل لهم: ليس عليه بأس؛ فقال له عبد الملك: أمكراً عند الموت أبا امية! خذوه، فأخذوه ثم قال له عبد الملك: إني اقسمت إن أمكنتني منك يد أن اجعل في عنقك جامعة[5]، وهذه جامعة من فضة، أريد أن أبر بها قسمي، وطرح رقبته في الجامعة، ثم نتره[6] إلى الأرض بيده، فانكسرت ثنيته[7]، فجعل عبد الملك ينظر إليه، فقال عمرو: ولا عليك يا أمير المؤمنين، عظم انكسر.

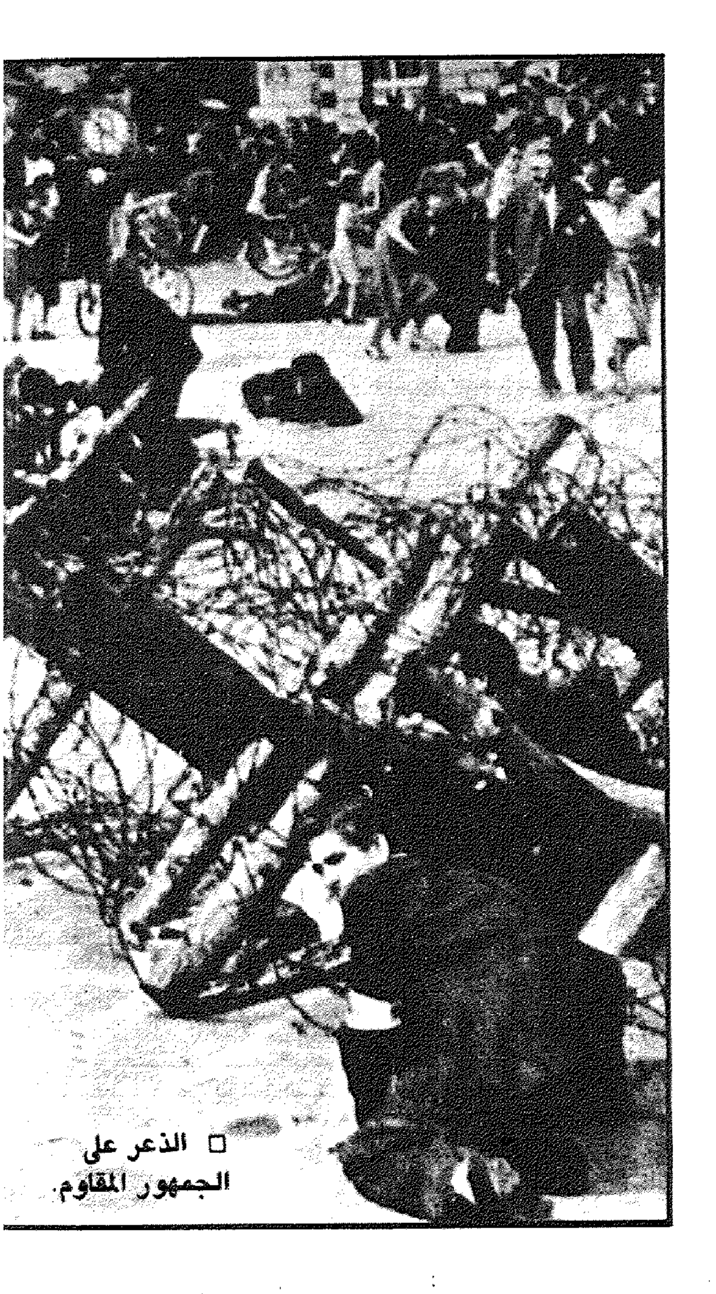
وجاء المؤذنون فقالوا: الصلاة يا أمير المؤمنين — لصلاة الظهر — فقال لعبد العزيز ابن مروان: اقتله حتى أرجع إليك من الصلاة، فلما أراد عبد العزيز أن يضرب عنقه، قال له عمرو: نشدتك[8] الرحم يا عبد العزيز الا تقتلني من بينهم، فجاء عبد الملك، فرآه جالسا. فقال: ما لك لم تقتله؟ لعنك الله، ولعن أماً ولدتك! ثم قال: قدّموه إلي، فأخذ الحربة بيده فقال: فعلتها يا بن الزرقاء، فقال له عبد الملك: إني لو علمت انك تبقى ويصلح لي ملكي لفديتك بدم الناظر، ولكن قلما اجتمع فحلان في ذَوْد[9] إلا عَدَا احدهما على الآخر، ثم رفع إليه الحربة فقتله وقَعَدَ يَرْعَد، ثم أمر به فأدرج في بساط وأدخل تحت السرير.

وأرسل إليه قبيصة[10] بن ذؤيب الخزاعي فدخل عليه، فقال: كيف رأيك في عمرو بن سعيد الأشدق، فقال — وقد أبصر قبيصة رِجْلَ عمرو تحت السرير: اضرب عنقه يا أمير المؤمنين، واطرح رأسه، وانثر على الناس الدنانير يتشاغلون بها، ففعل، وافترق الناس.

(*) العقد الفريد: ٣ — ١٥٢، الامالي: ١ — ١٤.
(١) انظر صفحة ١٦٨.
(٢) القطين: الخدم.
(٣) الجهاز — بالفتح والكسر — للمسافر: ما يحتاج إليه.
(٤) الاسحم: الاسود.
(٥) الجامعة: الغل.
(٦) النتر: الجذب بجفاء.
(٧) الثنية من الأربع التي في مقدم الفم، ثنتان من فوق، وثنتان من اسفل.
(٨) نشدتك: سألتك.
(٩) الذود من الابل: ما بين الثلاث إلى العشر.
(١٠) صحابي من الفقهاء الوجوه، كان على خاتم عبد الملك بن مروان بالشام، وتوفي بدمشق سنة ٨٦هـ.



د . رياض العالي



□ الذعر على الجمهور المقاوم.

كان الوضع العسكري بين الأول والخامس عشر من آب ١٩٤٤ يتطور لمصلحة الجيوش التي أنزلت في النورماندي منذ السادس من حزيران. وقد سمح اختراق آفرانش للأميركيين إمكانية الخروج أقوياء من رأس الجسر والتغلغل داخل أرض فرنسا. كان الجيش الثالث يتقدم بقيادة باتون نحو برست ونانت، ثم ينعطف نحو الشرق. وكانت القوى الفرنسية العاملة من الداخل، تستخدم الاختراق الأميركي، وتجمع السجناء، وتؤمن تغطية جناح الفرق الأميركية الأيمن. وقدم فرنسيون آخرون يدعمون الجيش الثالث: ونزلت الفرقة الثانية المؤللة التي يقودها لوكلرك، في الأول من آب، مستعجلة الصدام مع العدو.

ولم يكن باتون أقل رغبة في إعطاء لوكلرك فرصة التحرير. وانضم اللواء الثاني إلى القوى التي كانت تحاول تطويق الجيش السابع الألماني بالتعاون مع الكنديين والبريطانيين، المتقدمين من الشمال إلى الجنوب باتجاه فاليز. كانت تلك أول معركة على الأرض الفرنسية، للواء الثاني، الذي ربح المعركة إلى جانب اللواء الأميركي الخامس، وحرر آلانسون. وهكذا خرج الجيش الفرنسي منتصرا ضد الجيش المؤلل التاسع الألماني، مثبتا كفاءته، رغم أن الجيش الألماني كان ما يزال قويا يرهب جانبه، يشهد بذلك الهجوم المضاد الذي قاده فون كلوج واسترجع فيه مورتان. وكانت رئاسة أركان الحلفاء تنتظر انقشاع الضباب لتجعل الطيران الحليف يتدخل



في المعارك. ذلك أن كفاءة الجندي الألماني، واستخدامه الأرض على نحو مثالي، تطلب تحويل الأرض إلى «سجادة قنابل» قبل البدء بالهجوم الشامل، وهذا ما كان يزعج الباريسيين الذين كانوا يستعجلون التحرير.

بعد الخامس عشر من آب، واستيلاء الكنديين على فاليز، بدأ انهيار خطوط العدو. وساهم اللواء الثاني الفرنسي في الهجوم الأميركي نحو السين. في الوقت ذاته تمكن الحلفاء من إنزال قوات على الكوت دازور، دحرت الألمان إلى داخل فرنسا. كان إيزنهاور يطمع في كسب الوقت وقطع طريق العودة إلى ألمانيا، على الجيش الألماني. وكان يقدر أن معركة من أجل باريس لا بد أن تضيع الكثير من الوقت والمحروقات. وقد طوق الحلفاء العاصمة من الجنوب، وقد أمل أيزنهاور أن تستسلم الحامية الألمانية في باريس مع مقدم الخريف. فذلك أفضل من تعريض الجنود الأميركيين لحرب شوارع لا بد فيها من خسائر كبيرة.

غير أن انكسار الألمان في بروتاني ونورماندي والكوت دازور أثار حماسة الروح الوطنية في الجماهير، وحرض المقاومة على التفكير في الانتقام للمقاومين الذين ماتوا في المعارك أو السجون.

كان وضع السكان في باريس قلقا، وكانت الأحداث تتلاحق. فالبطالة، والتموين بلغا حد الكارثة، بسبب تعذر وسائل النقل وقلة المحروقات. وفي الوقت ذاته كانت قوافل السيارات العسكرية تخترق باريس ذهابا

وإيابا، وتعزز الأمن، ومراكز الدفاع عن باريس. ومنذ آب حدث نقص كبير في تموين الغاز، وكانت الكهرباء تنقطع باستمرار. وأصبح استخدام المترو متعذرا، في حين أن وسائل النقل الأخرى قليلة جدا. وكان بعضهم يسرق الدراجات ليصلوا إلى غاياتهم في المدينة. وكانت المقاومة توشك أن تيأس من تقدم الحلفاء من باريس رغم الاشاعات عن تحرير قطاعات من الأرض ومدن. وقد بدا للمقاومة أن لندن وواشنطن لا تستعجلان تحرير باريس. مع ذلك كانت الآمال كبيرة بقرب التحرير.

انقسام المقاومة

حتى ١٩ آب، موعد بدء التمرد في باريس، كان ثمة خلاف بين قادة المقاومة، حول الثورة



□ سفير السويد نوردلينغ رسول السلام.

مباشرة، أو انتظار اقتحام جيوش الحلفاء أبواب باريس، والاتفاق معها على التحرك. وكان الداعون إلى الثورة مباشرة، الشيوعيين. أما الآخرون فيمثلون المقاومة الملتفة حول دوغول. وكان لابد من توحيد المقاومة بدمج الطرفين وتوزيع المهمات بينهما. ورغم الجهود خلال نصف آب الأول، فإن مهمة التوحيد لم تنجح تماما.

لم يكن يشك في زعامة دوغول المقاومة، وكان رئيس الحكومة المؤقتة. وكان الجنرال كونيغ، يقود، باسمه كتائب الفرنسيين، في المنفى، التي



□ لوكليرك يدخل باريس متوكئا على عصاه.

لم يكن اندماجها وثيقا. وكان القناصة الشيوعيون، يميزون أنفسهم عن المقاومين التابعين لدوغول. لأنهم كانوا أكثر انضباطا، وأشد عنفا، وتمسكا بالارادة الثورية. فقد كان المقاومون يفضلون طاعة لجنة العمل التي يعين اعضاءها مجلس المقاومة الوطني الذي يرئسه جورج بيدو، الطموح إلى أن يكون الناطق الرسمي في مخاطبة الحلفاء في لندن، والحكومة المؤقتة الموجودة في الجزائر، التي لم يعترف بها الحلفاء حتى ذلك الوقت.

كان دوغول قد عين مندوبين أمثال الكسندر بارودي المفوض العام في فرنسا، وخليفة بولّارتَ، وجان مولان، وأمثال شابان دلماس، المفوض العسكري الوطني. وكان الهدف تطويق مبادرات القوات التي يقودها كونيغ، ومنح فرنسا المحررة إدارة مهيأة، متفقة رغباتها. وكان هذا العمل التحضيري ضروريا لدوغول الذي كان يشعر، مع أوائل آب، أن مجلس المقاومة الوطني، يحاول مشاركته الحكم بعد التحرير. في هذا الوقت كان بعض الفيشيين يتحركون سرا، عبر نواب لم يقوموا بأي نشاط منذ احتلال فرنسا.

أتى بإدوار هريو وزوجته، تحت حماية لافال والألمان إلى أوتيل دوفيل في باريس. الثالث عشر

Ce soir
GRAND QUOTIDIEN D'INFORMATION INDÉPENDANT
Jeudi 24 août 1944

DERNIÈRE MINUTE : Grenoble vient d'être occupé par les troupes alliées qui se trouvent ainsi à plus de 200 km. de la côte

PARIS EN PLEINE INSURRECTION

Le Grand Palais en flammes — Des barricades dans tous les quartiers

COMBATS DANS LES IIe, Ve, XIIIe, XVIIIe ET XXe ARRts

LA BATAILLE DE PARIS

Débarquement dans la région de Bordeaux
Anéantissement définitif de la poche d'Argentan
Poussée alliée vers la banlieue sud de Paris

LES ALLIÉS débarquent dans la région de Bordeaux

1940 DÉFENSEUR - 1944 JUSTICIER

LE PEUPLE DE PARIS EN ARMES

Parisiens, vous pouvez fabriquer des armes

□ جريدة سوسوار ــ
الخميس ٢٤ آب ١٩٤٤.



من آب ١٩٤٤، أراد لافال أن يدعو مجلس النواب والشيوخ إلى اجتماع، على أساس إقامة حكم انتقالي، يستبعد منه المتطرفون. ولكن رئيس مجلس النواب لم ينجرف في اللعبة، فاقتاده الغستابو إلى ملجأ ماريفيل قرب نانسي، واعتقل لافال في ١٩، وبيتان في ٢٠ منه.

اما مبادرات لجنة باريس للتحرير، المتصلة بمجلس المقاومة الوطني، فكانت تزعج دوغول.

السابع من آب ١٩٤٤ اجتمعت اللجنة في سان ــ مور، برئاسة النقابي تولي، ووافقت على أن يكون مدير الشرطة، الرجل الذي يختاره دوغول، وبارودي وفلوري، وتفضيله على مارّان الشيوعي. اليوم نفسه درست لجنة العمل الوضع في المنطقة الباريسية، ولاحظت تقدم التحرك في المصانع ومخازن السكك الحديد. وقد بدا أن الخلاف بين اللجنة ورئاسة أركان كونيغ وشيك الوقوع.

بدء التمرد

بدأ عمال السكك الحديدية، في ١٢ آب، إضرابا شل نقل الألمان. ووقعت احداث دامية بينهم وبين الألمان الذين جردوا ٣٧٥ شرطيا من أسلحتهم، بتهمة التساهل. لذلك قررت لجنة تحرير الشرطة الاضراب العام في ١٥ آب الساعة السابعة صباحا. اليوم التالي أعدم الألمان، في غابة بولونيا ٣٥ مقاوما.

استمر التوتر في منطقة باريس. وشلت خدمات الشرطة والمراكز شللا تاما في ١٦ آب، حين اجتمعت اللجنة الباريسية للتحرير، في «فانف»، وأعلنت الثورة العامة، وهي تحلم «بكومونة» جديدة.

اليوم نفسه كانت التعليمات التي حملها شابان دلماس مناقضة تماما. فالحلفاء كانوا ينوون تطويق باريس، لذلك كان كل تمرد مبكر ينطوي على مخاطر كبيرة، قد يدمر باريس نفسها.

ولكن الكولونيل رول، ومساعده غير الشيوعي الكولونيل ليزي، أخذ مبادرات مختلفة وأمر باحتلال المباني الرسمية جميعا، ومهاجمة الجيوش الألمانية. وكانت دائرة الشرطة هدف الهجوم الأول، في الساعة السابعة صباحا.

تسلم لويزي رئاسة شرطة باريس، مكان بوسيير الذي عينته فيشي.

ورغم تسلح لجنة العمل الضئيل، فقد أخذت على عاتقها تحرير باريس، ووضع الحلفاء أمام الأمر الواقع.



□ حرس القيادة الألمانية في باريس يستسلم.

احتلت المقاومة عدة مراكز رئيسية في باريس. واضطر الكسندر بارودي للموافقة على بدء الثورة رغم الأوامر التي صدرت إليه، لتأخيرها. وتحدث إلى شابان دلماس، فوجدا أن لجم اندفاعة قوات كونيغ مستحيل، لذلك أبرقا إلى لندن يطلبان العون. بعد الظهر حمل أنباء إنذارات موجهة إلى مندوبي الجنرال دوغول الذين كانوا يعلمون أنهم لا يستطيعون التعويل على الجيوش الأميركية قبل أسبوع. تحركت مصفحات فعزلت مركز قيادة الشرطة. واستعاد الألمان بلدية نويي. وبدا أن فون شولتز قرر إعادة الوضع إلى نصابه بكل قسوة.

أصبح الوضع حرجا. فقد استبعدت لجنة العمل. وأبدى الألمان قدرة كبيرة على تحطيم الثورة «في البيضة» وفي الوقت ذاته كانت عشرون فرقة ألمانية سلمت من معارك نورماندي واجتازت السين، وانعطفت نحو بونتواز وميلان، ولكن شولتز لم يكن يعول عليها. كان همه الوحيد الدفاع عن باريس ضد الحلفاء. لذلك نظم خطوط الدفاع، ووضع مضادات المصفحات على طوق باريس الغربي. وجعل ثلاثين ألف رجل بينهم مظليون يؤمنون الحماية مزودين بمدافع ٨٨ الخطيرة.

وبقيت لديه داخل باريس خمسة آلاف جندي مع مختلف الأسلحة الثقيلة والسريعة.

هدنة العشرين من آب

اليوم الذي أعلنت فيه الثورة، كان الألمان قد قرروا حسم الأمر في عشرين مركز استناد. ولكن شولتز لم يكن راغبا في معركة شوارع. وفي الوقت ذاته بدأ تدخل دبلوماسيي الدول المحايدة، لتجنيب باريس كارثة لا يدري أحد مداها. وقام نوردلنغ سفير السويد بوساطة لدى شولتز بالافراج عن مساجين كان الألمان ينوون ترحيلهم إلى ألمانيا. فوافق القائد الألماني على ذلك، شرط تهدئة الوضع داخل باريس. غير أن المقاومة كانت بدأت معاركها، فاندفعت القوة الألمانية بعنف، من كل مراكز الاستناد، لتقصف وتقتل فإذا وضع المقاومة لا تحسد عليه. وتدخل سفير السويد ثانية بوقف إطلاق النار حرصا على باريس ومعاهدها، فوافق شولتز على التفاوض مع أقطاب المقاومة. وجرى الاجتماع في منزل السفير السويدي. وعلمت لجنة العمل أن اتفاقا تم بوقف إطلاق النار، دون معرفتها، وقد وقع الاتفاق — ومدته ٤٨ ساعة — شابان دلماس، ورولان بري، وليو هامون. ولم تسمع بعد إلا طلقات متفرقة، رغم أن أركان رول حاولت تأجيل الهدنة، وأمرت قادة البوليس بعدم نشر نبأ الاتفاق على الهدنة.

أوقف الغستابو، صدفة، سيارة كان فيها بارودي، رولان بري، ولافون. ولكن شولتز أطلق سراحهم.

في هذا الوقت كان مودل مصرا على استتباب الأمن بأي ثمن. ووعد بتعزيزات. ولكن القوات الألمانية كانت قد تركت الاليزيه، والوزارات، مبقية فيها بعض الكوماندوس. الواحد والعشرين من آب. احتل موراندا وزوجته أوتيل ماتينيون. وقد قدم حرس لافال إليه سلاحهم. والتاريخ نفسه اجتمعت لجنة المقاومة الوطنية لدرس مسألة الهدنة. واختصم شابان دلماس والمندوب الشيوعي تيّون. وجمع جورج بيدو اللجنة وقرروا رفض الهدنة. ودعي الشعب إلى إقامة المتاريس.

وضع المقاومة الحرج

منذ ٢٢ آب غدت المعارك شديدة. ولئن لم يكن لدى الألمان إلا ١٥٠ مصفحة، فقد جعلوا من الأبنية التي يقيمون فيها قلعات حصينة، وكانوا يقاتلون شبرا فشبرا. وراحت قواتهم تلاحق سيارات قوات كونيغ، فيما امتلأت الشوارع بالمتاريس.

تلقى شولتز أوامر هتلر بتحويل باريس إلى ركام. ولكنه لم يفعل، واتصل بلويزي وبارودي وأفهمهما أنه لن يسلم باريس لقناصة، ولا بد من انتظار قدوم الجيوش الأميركية. وذكرهما أن ثمة فرقتين قادمتين لتمزيق المقاومة. وعلم أيزنهاور بذلك. فسمح للجنرال لوكليرك باجتياز مائتي كيلومتر تفصله عن باريس تدعمه الفرقة المدفعية الرابعة الأميركية.

بدأ لوكليرك تحركه، مخالفا أوامر رئيسه الجنرال جيرو. واتجه صوب أرباجون، في الطريق إلى باريس، مستندا إلى تأييد دوغول.

٢٣ آب كانت باريس مسرحا لمعارك طاحنة حول مراكز استناد القوات الألمانية. واحترق الغران بالي (القصر الكبير) وتزايدت المتاريس، غير أن شولتز رفض تدمير باريس. ولكن المقاومة ضعفت جدا في ٢٤ آب، وخاصة لنقص المؤن والسلاح.

كان لوكليرك على علم بمأساة المقاومة. أرسل برقية يشجع على الثبات. وقد بلغت العربات (٤ آلاف) منطقة رامبولي، ٢٣ آب مساء. وفي الوقت ذاته حطت طائرة دوغول في نورماندي. ثم التقى لوكليرك في رامبويي الساعة ١٨، وشجعه على الهجوم في اليوم التالي لتحرير باريس.

٢٤ آب كانت الفرقة الثانية المدرعة تسلك إلى باريس طريقين: فقسم منها بقيادة بيّوت سلكت محور أرباجون — لونجومو، باتجاه جانتيي. والثاني بقيادة لانغلاد، وسلكت طريق تراب — فرساي، جسر سيفر على أمل لقاء القسم الأول في ساحة الكونكورد.

قاومت القوات الألمانية تقدم قوات لوكليرك في فريسن وويسو وتوسو لونوبل، ودمرت بعض المصفحات.

الساعة الواحدة والعشرين، دخلت قوات الكابتن درون باريس من باب إيطاليا، واتجهت صوب أوتيل دوفيل، وبدأت الأجراس تقرع.

قرر شولتز ألّا يدّمر أي بناء، وألا يغادر باريس.

باريس محررة

الفرقة الثانية المصفحة في باريس صباح ٢٥ آب. جرت معارك أخرت تحرير كل باريس. هاجم الكومندان ماسو أوتيل ماجستيك. واستسلم شولتز لليوتنان كارشي. ودخلت قطعات أخرى باريس.

الكي دورسي، ومجلس الشيوخ ظلا يقاومان. اقتيد شولتز إلى مقر البوليس حيث قدم له لوكليرك بيان الاستسلام فوقعه إلى جانب توقيع لوكليرك. وشاء الكولونيل رول توقيعها فسمح له لوكليرك بذلك. وجه شولتز أوامره بوقف مقاومة جنوده.

الساعة السادسة عشرة وصل دوغول محطة مونبارناس، وأبدى انزعاجه لتوقيع رول على بيان استسلام شولتز.

الساعة ١٨ دخل دوغول رئيس الحكومة المؤقتة وزارة الدفاع وطرد منها لجنة العمل. والساعة ذاتها، استسلمت القوات الألمانية حين تأكدت من أوامر شولتز.

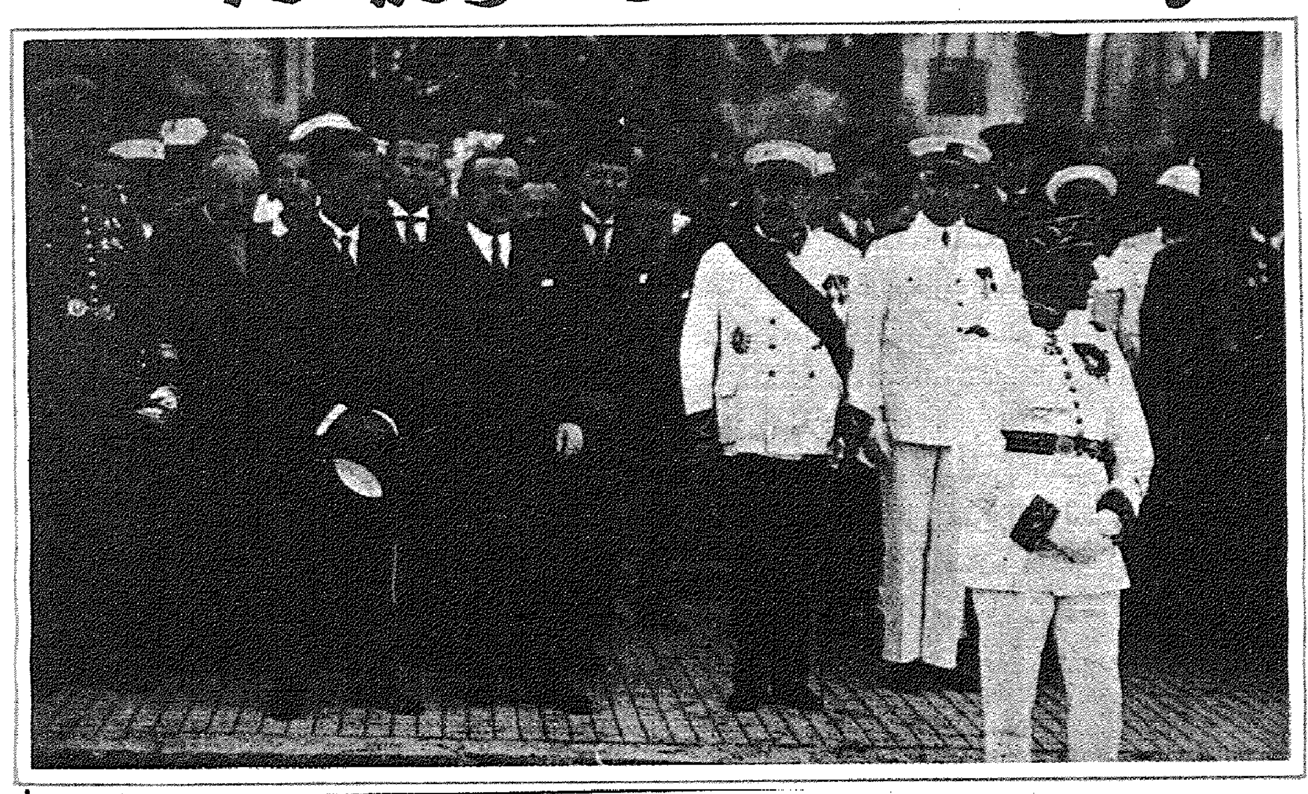
اكتشفت الجماهير جثث من أعدموا في غابة بولونيا، فثارت ثائرتها وحاولت الانتقام من الأسرى الألمان. ولكن أوامر دوغول صدرت بالتصدي لذلك.

جرى عرض النصر يوم السبت ٢٦ آب، وكان دوغول في طليعة المحتفلين. ●



جان سرور

كيف حاول الانتداب الفرنسي فرض معاهدة على سوريا ولبنان



□ الرئيس اميل اده مع بعض ضباط الانتداب الفرنسي ويبدو في الصورة الرئيس عادل شهاب.



انتهى الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان مع نيل كل من البلدين الشقيقين استقلاله ــ لبنان في العام ١٩٤٣ وسوريا في العام ١٩٤٥ ــ وترك وراءه الكثير من الذكريات والصفحات المليئة بأخبار النضال الوطني من أجل التحرير والاستقلال.

من هذه الصفحات واحدة تحكي قصص محاولة استبدال الانتداب بمعاهدات سلم وصداقة مع الدولة الافرنسية، وأخرى تكشف الستار عن صلات تعاضد وتفاهم كانت قائمة بين حزب الكتلة الوطنية السورية وحزب الاستقلال الجمهوري في لبنان، وكان الدافع لهذا الترابط إدراك كل منهما أن أوضاع بلديهما واحدة ومصيرهما واحد كما أن معاناتهما من السيطرة الأجنبية متشابهة، الأمر الذي فرض على الحزبين التعاون والتفاهم ومساندة أحدهما للآخر لمقاومة سلطة الانتداب التي كانت بدورها تعرف حق المعرفة أن مصالح البلدين مترابطة بدليل أنها أنشأت لهما إدارة مالية واحدة سميت دائرة المصالح المشتركة وهي تشمل واردات

الجمارك والموانىء وحصر التبغ والتنباك والسكك الحديدية ومراقبة الشركات ذوات الامتياز، وكانت توزع حاصلاتها بين البلدين بنسب معينة بعد اقتطاع نفقات جيوش الاحتلال منها.

وكان الحزبان يتدارسان شؤون السياسة كلما دعت الحاجة إلى ذلك مع محافظتهما على السرية الواجب اعتمادها خشية أن يذهب العلن بفوائد التضامن.

وتجدر الاشارة هنا أن رئيس حزب الاستقلال الجمهوري الشيخ عزيز الهاشم كانت له آراء حول وضع البلدين وضرورة إقامة اتحاد سياسي واقتصادي بينهما، وقد جاء هذا في كتاب جريء وضعه باللغة الافرنسية عنوانه (سياسة لا وجدان) وتسبب نشر هذا الكتاب في نقمة المفوضية العليا عليه فأوعزت إلى الحكومة بإقالته من وظيفة كان يشغلها في القضاء اللبناني هي وظيفة محقق.

وكان من أبرز ما أعطى التفاهم بين الحزبين التعاون في معالجة مشكلة كانت على قدر كبير من الأهمية هي مشكلة مشروع عقد معاهدة بين سوريا وفرنسا تحل محل الانتداب، حاول المفوض السامي آنذاك السيد (بونسو) تحقيقها بتدابير خاصة مهّد لها بتدابير زعم أنها توصله إلى ما يريد وفيما يلي تفاصيل ذلك:

وكان المفوض المذكور يعلم أنه من الصعب نجاح مشروعه وفي الساحة رأي عام وطني وكتلة وطنية ذات نفوذ وسيطرة على الحكم، فعطل الدستور؛ وبعد فترة دعا إلى انتخابات نيابية جعل موعدها منتصف عام ١٩٣٢ وجهد على أن لا تنال الكتلة فيها سوى عدد قليل من المقاعد بحيث تبقى عاجزة عن تحقيق أي عمل معارض لما ينوي إجراءه، وتم له ما أراد بفضل الهيمنة في الاشراف على صناديق الاقتراع الذي أسفر عن سبعة عشر مقعدا فقط للكتلة من أصل ٦٨ مقعدا، وتبع ذلك انتخاب صاحب الأكثرية صبحي بركات رئيسا للمجلس ومحمد علي العابد رئيسا للجمهورية وتولى حقي العظم رئاسة الحكومة.

ثم سافر المفوض إلى باريس للتشاور مع حكومتها في طرح مشروع المعاهدة، وعاد بعد حين ولم يلبث أن دعا الحكومة إلى التفاوض في المشروع غير أن «بونسو» لم يتمكن من إنجاز مهمته لأن الحكومة الفرنسية نقلته إلى بلد آخر وعينت مكانه الكونت (دي مارتيل) الذي قدم في شهر تموز ١٩٣٣ إلى مقره في بيروت وبعد وصوله بأيام قليلة دعا الحكومة السورية إلى استئناف التفاوض من أجل المعاهدة، وأنجز المشروع بسرعة وتم التوقيع عليه في بيروت.

□ الشيخ عزيز الهاشم.



موقف الكتلة من المشروع

إلا أن الكتلة أعلنت رفضها له بعد أن اتضح لها أنه يتعارض مع مصلحة البلد الراغب في الاستقلال لأنه يتضمن مواد تبقي السيطرة العسكرية في مناطق معينة من البلاد، إضافة إلى ضمان الاستقلال الاداري والمالي لحكومتي اللاذقية وجبل الدروز.

وأثار التوقيع على المشروع الرأي العام الشعبي وعاشت دمشق مدة حياة قلق واضطراب واشتد نشاط الكتلة التي وإن كانت قليلة العدد في المجلس إلا أنها تبقى مالكة زمام الشعب



□ على مدخل سراي دمشق عام ١٩٢٨، من اليمين إلى اليسار: اسكندر البستاني، عبد القادر العظم، يوسف الحكيم، الداماد احمد نامي، شاكر الحنبلي، هنري بونسو، حقي العظم، خليل رفعت، محمد المسالخي (مرافق الداماد)، نقولا شاهين، نصوح بابيل.

وسيدة الكلمة وجرت تظاهرات في مختلف المدن السورية كانت تقاوم بعنف وتوقع ضحايا دون أن تخفف من نشاط الشعب ونقمته.

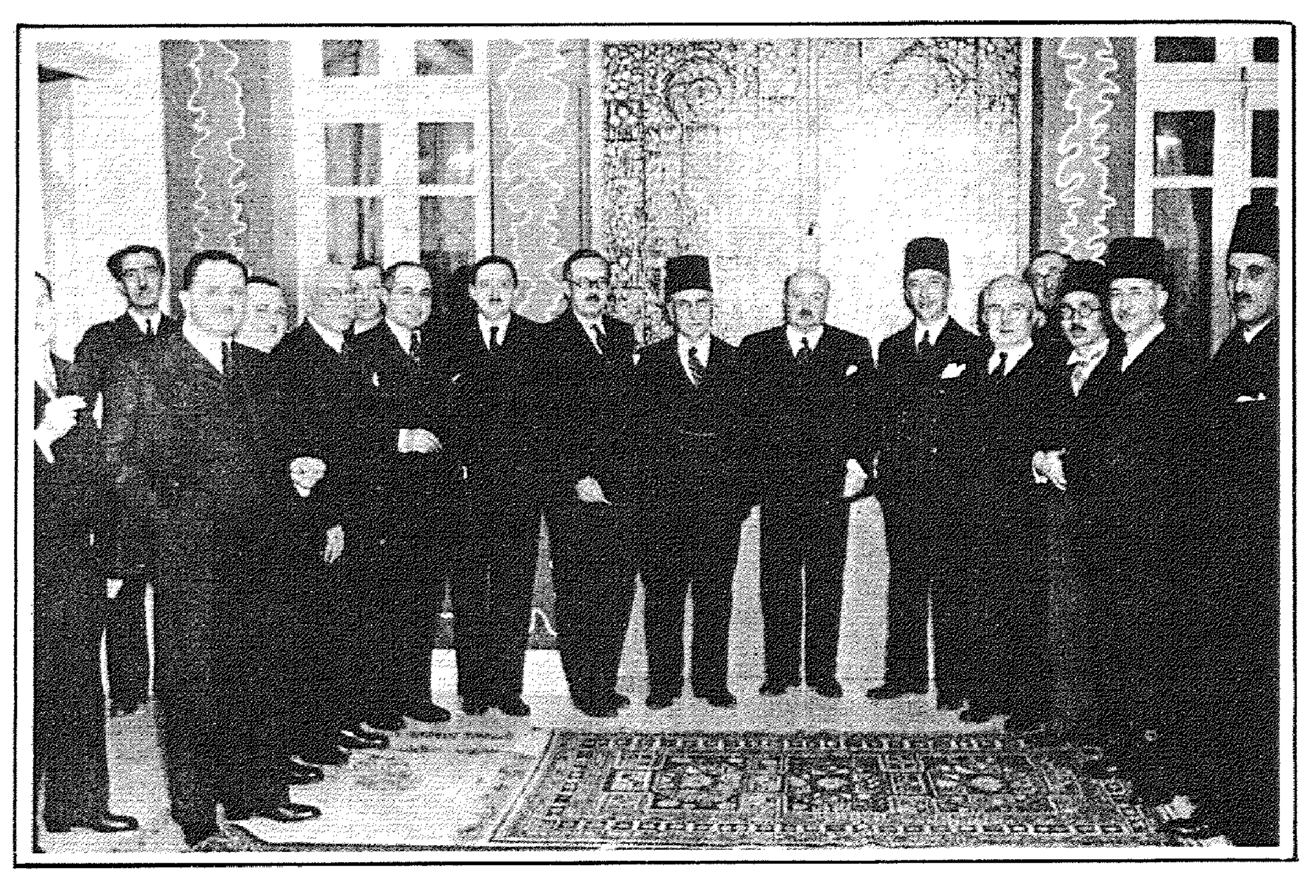
في هذه الأثناء كان حزب الاستقلال الجمهوري في لبنان يراقب تطور الحال في البلد الشقيق ويولي اهتمامه بما يجري تحسبا لما يمكن أن يعد للبنان، وارتأى أن يوفد إلى دمشق نائب الرئيس عادل الصلح بغية تتبع الحوادث عن كثب والاتصال بالكتلة لأخذ رأيها فيما يجب أن يفعل لمساندتها.

وذهب عادل الصلح في مهمته وباشر اتصالاته فتبين له أن الكتلة ترى ضرورة معالجة الأمر مع صبحي بركات زعيم الأكثرية في المجلس، وطلبت إليه أن يحاول إقناعه برفض المشروع اعتمادا على صلة قرابة وصداقة شخصية تربطه به.

وعمل مندوب الحزب بما طلب منه وكثف من اتصالاته مع نسيبه رئيس المجلس، ودامت المحاولة بضعة أيام شعر بعدها أنه بات مرتاحا لنجاح مهمته دون أن يطلب من الرجل إعطاء جواب صريح عن رأيه تاركا له أمر الاحتكام إلى ضميره وإحساسه الوطني.

وجاء يوم طرح المشروع على المجلس فإذا بالوضع في دمشق قد بلغ منتهى الشدة وأقفلت المدينة إقفالا تاما واتجهت الأنظار إلى الندوة تترقب ما سوف يصدر عنها.

وبالمناسبة أذكر الحادث الآتي: شئت في ذلك اليوم العصيب أن أذهب والصديق روفائيل أبو جودة إلى دمشق بدافع الفضول لمشاهدة المدينة الثائرة واستقصاء الأخبار دون تكليف من الحزب، وهناك رأينا ما يدعو للاعجاب في تحركات الجماهير في الشوارع المؤدية إلى دار المجلس وتوزع الشرطة في زوايا الطرق وهي على أتم الاستعداد لمقاومة الجماهير، ولم نتمكن في هذا الجو المشحون بالحذر من الاتصال بأحد ممن قصدنا الاجتماع بهم فقفلنا عائدين إلى بيروت قبل أن نعرف ما سوف يسفر عنه الوضع — وفي بيروت بلغنا أنه ساعة انعقاد الجلسة وفيما كان النائب جميل مردم يتلو مذكرة كان قد توصل إلى جمع تواقيع عدد كبير من النواب عليها مطالبين برفض المشروع بدخل



□ حفلة استقبال المفوض السامي الكونت دي مارتل في ١٩٣٥/١/٢٢ في منزل عطا الايوبي، من اليمين: شكري القوتلي، سعد الله الجابري، جميل مردم بك، فارس الخوري، عطا الايوبي، الكونت دي مارتل، هاشم الاتاسي، ديليلي ويلوح، ادمون حمصي، سعيد الغزي، بهجت الاتاسي.

مندوب المفوضية مقاطعا وأبرز قرارا بوقف أعمال المجلس بضعة أيام، وبدا من هذا القرار أن المفوضية عمدت إلى إصداره بعد أن استشعرت ميل عدد كبير من النواب إلى رد المشروع — غير أن رئيس المجلس رفض تبلغ قرار المفوضية ومضى في الجلسة التي انتهت بالتصويت على الرفض.

وكانت دهشة رجال الانتداب من موقف صبحي بركات بالغة التأثر لأنهم كانوا يظنون أن الرجل يعمل بإرادتهم فإذا به يقف ضدهم.

العمل لمعاهدة ثانية

وبدا بعد هذا الفشل أنهم أحجموا عن طرح مشروع مماثل مع لبنان كما كان متوقعا.

هذا ما كان من أمر المحاولة الأولى لعقد معاهدة مع سوريا ويأتي الحديث عن المحاولة الثانية بعد عرض الحالة التي كانت تعانيها البلاد في ذلك الحين إذ كانت الضائقة الاقتصادية التي اجتاحت أوروبا في الثلاثينات قد وصلت سوريا ولبنان، وكان من الطبيعي أن يكون تأثيرها على البلدين أشد منه في أوروبا نظرا إلى أن الحكم فيهما كان عاجزا عن اتخاذ التدابير التي تحد من تأثيرها على الشعب، فالتجارة في انخفاض ومزاحمة البضاعة الأجنبية للبضاعة الوطنية تشل كل مسعى محلي من أجل الصمود، والشباب يعاني من بطالة وجمود والمفوضية العليا لا تبالي بما هو جار في البلاد ولا تهتم باتخاذ إجراءات ترفع الضيق عن الشعب.

وهذا ما دفع بالحزبين إلى إعلان الاضراب في البلدين معا واجتمع تجار بيروت في نادي حزب الاستقلال بتاريخ ١٩٣٥/٥/٢ لتدارس الأمر واتفقوا على عرض شكواهم بواسطة الحزب إلى المراجع المختصة كما عرضوا أن يسلموا مفاتيح متاجرهم إلى السيد (لافون) مندوب المفوضية العليا في لبنان تدليلا على ما يعانون من اشتداد الضائقة.

وقام الحزب بإيصال الشكوى إلى السلطات المحلية والسلطات الافرنسية بواسطة الأحزاب الراديكالية والاشتراكية التي سبق التفاهم معها



□ مظاهرات في ساحة المرجة بدمشق ضد الانتداب الفرنسي.

عندما قام وفد للحزب بزيارة باريس في العام ١٩٣٣ بقصد إطلاع الفرنسيين على ما كان يجري من قبل الذين يتولون مهام الانتداب من ممارسات وسوء إدارة.

وكانت الاضرابات تتوالى في البلدين منها إضراب في سوريا دام شهرين متواليين وكان من الطبيعي أن يتأثر به لبنان بالنظر للترابط الحياتي بين البلدين.

في هذا الوقت أخذ الوضع يتبدل في فرنسا عندما فازت الجبهة الشعبية التي يراسلها (ليون بلوم) بتولي الحكم، وبدأ أن تعليمات جديدة وصلت إلى المفوض دي مارتيل الذي أخذ بنتيجتها التقرب من جماعة الكتلة شيئاً فشيئاً وصولا إلى دعوتهم للتفاوض معه في بيروت لأجل عقد معاهدة جديدة تختلف عن الأولى، بين فرنسا وسوريا تحل محل الانتداب وبعد مفاوضات لم تدم طويلا تم الاتفاق على مبادىء معاهدة تدرس في فرنسا.

وسافر وفد الكتلة إلى باريس برئاسة هاشم الأتاسي وعضوية فارس الخوري وسعد الله الجابري وجميل مردم وأدمون حمصي ونعيم الانطاكي، وتبعهم فيما بعد رياض الصلح والتقوا

هناك المفوض دي مارتيل مع وفد فرنسي من كبار السياسيين وجرت مفاوضات دامت ما يقارب الخمسة أشهر أسفرت عن اتفاق على مشروع معاهدة تم التوقيع عليها في أول تشرين الأول ١٩٣٦ وهذا أهم ما تضمنه المشروع(*).

من مظاهر الفرح في لبنان:

وقابل الناس هذه الظاهرة بفرح وسرور خفف بعض الشيء من حال القلق والتوتر الذي كان سائداً في البلدين وللتعبير عن رضا الشعب اللبناني بهذا الاتفاق أقام حزب الاستقلال الجمهوري حفلة كبرى في باحة فندق بيت مري الكبير الخارجي وكان موسم الاصطياف ما زال قائما شاركت فيها وفود كثيرة من القرى المجاورة وتضمنت الحفلة خطبا وازجالا ورقص دبكة ولعبة سيف وترس وعزف موسيقى من فرقة بيت مري واطلقت الأسهم النارية بكثرة، هذا في الوقت الذي كانت تجري فيه حفلات ابتهاج في مختلف المدن السورية.

المعاهدة مع لبنان

ولما كان من المفروض أن تعقد معاهدة مماثلة مع لبنان فقد دعا دي مارتيل أثر عودته من باريس إلى مفاوضات لدرس مشروع معاهدة، اشترك فيها أميل اده رئيس الجمهورية وعدد من السياسيين برئاسة الشيخ بشارة الخوري وبعد مفاوضات قصيرة جرى التوقيع على مشروع معاهدة مدتها خمس وعشرون سنة، غير أن هذا المشروع لم يكن على مستوى المشروع مع سوريا في نقاط عدة أهمها الشؤون العسكرية التي تتعارض مع الاستقلال الأمر الذي أوجب اعتراض الحزب وانصرف إلى انتقاده في الصحف وفي أوساط الشعب.

ولما تحول المشروع إلى المجلس النيابي دعا الحزب إلى إقفال المدينة والتظاهر أمام المجلس النيابي في محاولة لرد المشروع.

غير أن البرلمان اللبناني لم يتأثر بهذه المحاولة وأقر المشروع الذي كان وراءه الرئيس أميل اده وعدد من النواب المحازبين له.

ولما جاء دور البرلمان الفرنسي للنظر بالمشروعين: الفرنسي السوري والفرنسي اللبناني قضى بردهما معا في جلسة واحدة متأثرا بآراء العسكريين في فرنسا الذين لم يروا فيهما ما يتوافق مع مصلحة الدولة ومكانتها العسكرية.

وهكذا قضى برلمان فرنسا على جهود مضنية دامت أكثر من أربع سنوات! ●

أهم نقاط المعاهدة(*)

- إلغاء الانتداب وإعلان استقلال سوريا.
- تسليم القوى العسكرية المؤلفة من عناصر سورية إلى الحكومة السورية.
- تسحب فرنسا قواتها البرية من سورية على أن تبقى بصورة مؤقتة لمدة خمس سنوات في موقعين في الشمال والجنوب.
- يكون لفرنسا في سوريا مطاران بعيدان عن المدن.
- تعقد سوريا معاهدة مع فرنسا مدتها ٢٥ سنة تتعهد فيها فرنسا بالدفاع عن سوريا ضد كل اعتداء خارجي.
- عندما يصدق البرلمان السوري على المعاهدة تبدأ الحكومة السورية استلام الصلاحيات التي بعهدة المفوض السامي.
- تجري المفاوضة بعد تصديق المعاهدة على المصالح المشتركة وتستلمها سوريا عند انتهاء المفاوضة.
- تذيع الحكومة السورية تصريحا باستعدادها للمحافظة على الحقوق العامة المنصوص عنها في الدستور السوري.
- يكون التمثيل الخارجي من حقوق سوريا في كل مكان على أن يعهد إلى قناصل فرنسا بالمحافظة على حقوق السوريين في المراكز التي لا تنشىء سوريا فيها قنصليات.
- تكون القوانين والمعاهدات والاتفاقات الجمركية والاقتصادية حرة، وأما السياسة منها فباستشارة متبادلة فيما كان منها يضر لمصلحة الحليف الآخر.
- حقوق الرعايا الفرنسيين في سوريا تؤسس على قاعدة الدولة الأكثر رعاية، كما تكون كذلك حقوق السوريين في فرنسا ومستعمراتها.
- يجري انتقال الحقوق والواجبات الناشئة من العقود والمعاهدات التي عقدتها فرنسا باسم سوريا ولحسابها إلى الحكومة السورية.

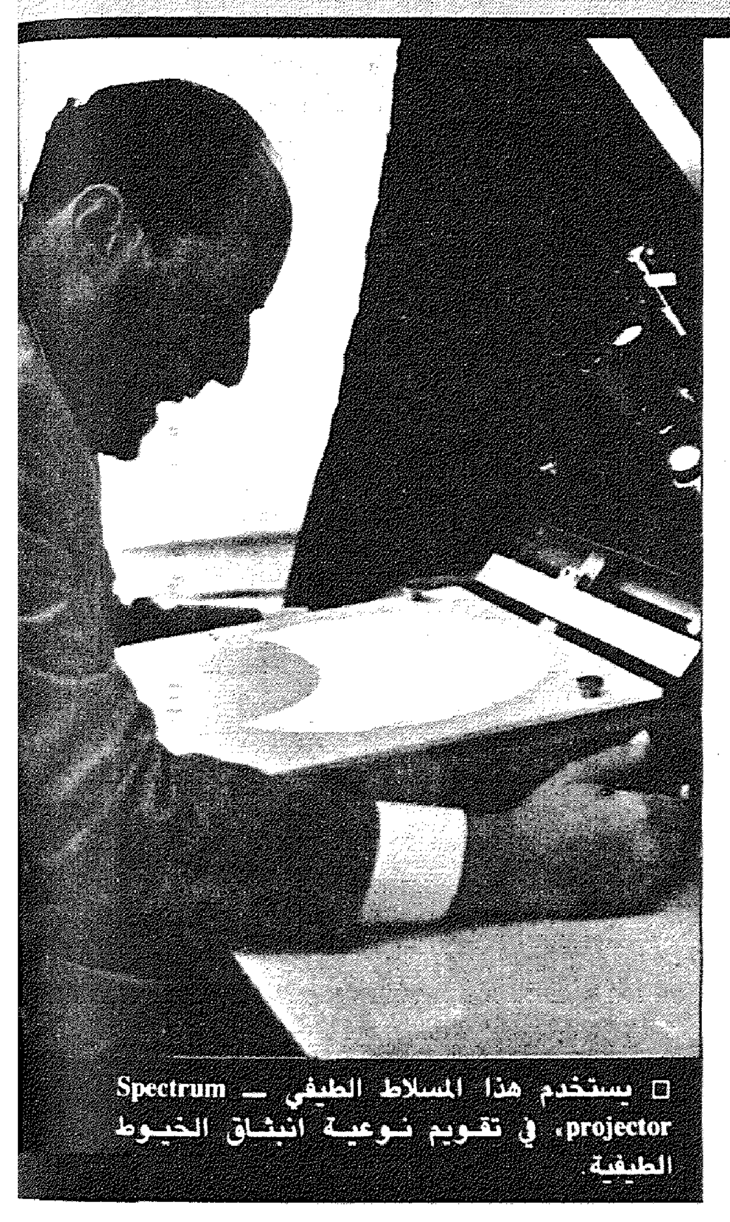
قياس أبعاد الأجرام السماوية في الأرض وعن بعضها البعض

نقولا شاهين

فالمتر وهو أساس وحدات الطول في النظام المتري، يحدد بكونه المسافة بين علامتين على عارضة من سبيكة «بلاتينيوم — ايريديوم»، وذلك عندما تكون الحرارة معادلة لدرجة الجليد الذائب أي درجة الصفر المئوية، وهذه العارضة محفوظة في المكتب الدولي للأوزان والمقاييس في مدينة «سفر» في فرنسا. ولكي يعاد صنع هذه العارضة في حال ضياعها أو إتلافها، جعلها المصممون معادلة لجزء من عشرة ملايين جزء من المسافة بين القطب وخط الاستواء، على دائرة كبيرة بين المركزين، وقد تبين أن هذا التحديد الأخير ليس مطابقا للواقع. وقد أصبح المتر حديثا يحدد على ضوء طول موجة الخط الأحمر في طيف عنصر «كادميوم» عندما يكون الهواء جافا، والحرارة ١٥ درجة مئوية فوق الصفر، والضغط ٧٦٠ مليمترا من الزئبق.

هذا مثل عن تطور وحدة القياس، وهناك الكثير من وحدات القياس المختلفة التي ظهرت كنتيجة ملحة لحاجة العلم إليها، ومن هذه الوحدات تلك التي استعملها العالم الفلكي ابن الصوفي في دراساته الفلكية، والتي جاءت بنتائج دقيقة وصحيحة حسب رأي العلماء الأوروبيين. ومن هذه الوحدات القياسية: الرمح ويساوي ١٤ درجة، والذراع ويساوي ١/٦ رمح أو درجتين و ٢٠ دقيقة، والشبر ويساوي ١/٣ ذراع أو ٤٠ دقيقة و ٤٠ ثانية، والاصبع ويساوي ١/٣٢ ذراع أو دقيقة و ١٦ ثانية.

وقد أشار «ابن الصوفي» إلى إحدى هذه الوحدات في وصفه الدب الأصغر:

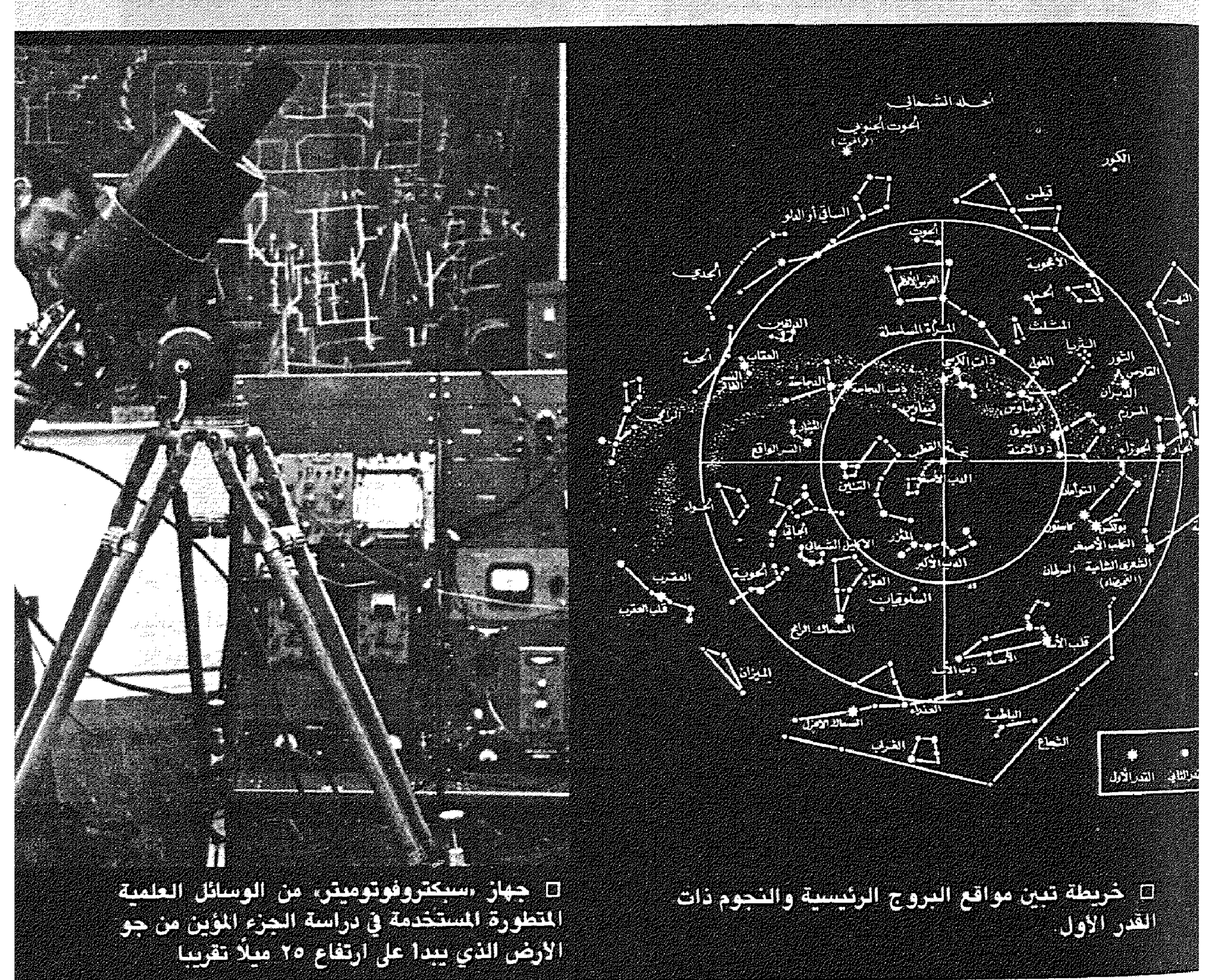


□ يستخدم هذا المسلاط الطيفي — Spectrum projector، في تقويم نوعية انبثاق الخيوط الطيفية.

في جملة الصورة كوكبان
مقدار ما بينهما شبران
سمتهما العرب بفرقدين
ترى دويمن أنور الاثنين

وفي عالم النجوم وغيرها من الأجرام السماوية، يحتل قياس البعد عن الأرض المرتبة

ليس من اليسير اثبات حقيقة من الحقائق العلمية دونما اللجوء إلى استخدام وحدات ومقاييس دقيقة تثبت الأبعاد العلمية التي بنيت عليها تلك الحقيقة. ومع أنه أتى على علم الفلك حين كانت فيه المقاييس مبنية على وحدات بدائية غير متطورة إلا أن تلك الوحدات أعطت نتائج ظلت لأزمان طويلة أساسا لكثير من الحقائق العلمية. ومع مرور الزمن تقدمت الوسائل العلمية الخاصة باجراء المقاييس إلى حد تسنى لعلماء الفلك بفضلها دراسة الظواهر الطبيعية وغيرها من الأمور الفلكية المبهمة.

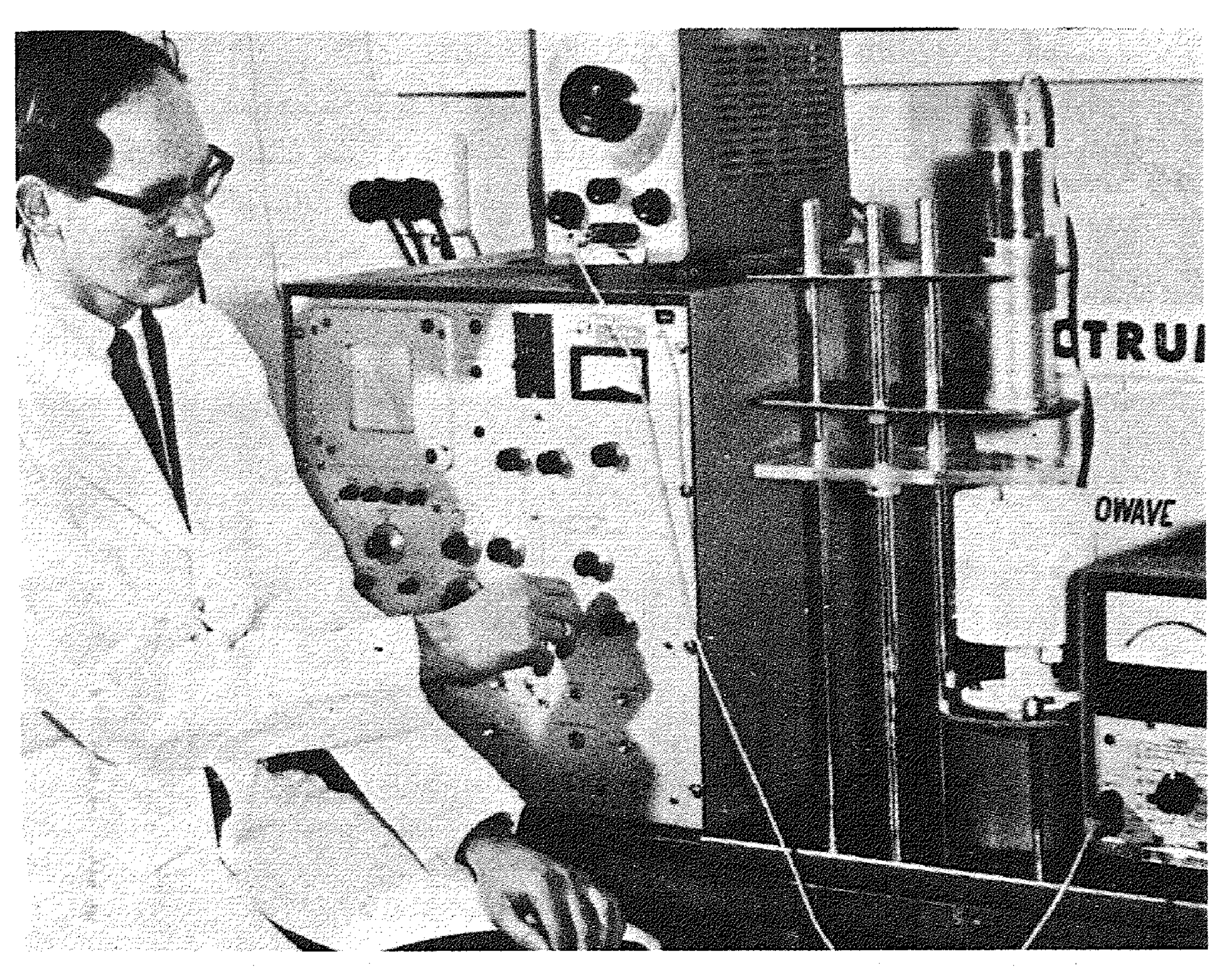


□ خريطة تبين مواقع البروج الرئيسية والنجوم ذات القدر الأول

□ جهاز «سبكتروفوتوميتر» من الوسائل العلمية المتطورة المستخدمة في دراسة الجزء المؤين من جو الأرض الذي يبدأ على ارتفاع ٢٥ ميلاً تقريبا

الأولى بين المعلومات الرئيسية. وبعدم معرفة هذا البعد، يتعذر علينا معرفة مقاييس فلك الجرم بشكل دقيق، ومعرفة حجمه وكتلته إلى غير ذلك من الحقائق الفلكية. ومن المعلوم أن ظاهرتي خسوف القمر وكسوف الشمس يتوقفان على حجم القمر والبعد بينهما في حالات مختلفة، لأن طول الظل الذي يتسبب في حدوث هاتين الظاهرتين، يتولد من أشعة الشمس التي تنعكس على سطح الأرض أو سطح القمر في أوضاع مناسبة.

وللتوصل إلى معرفة الأبعاد في علم الفلك، لجأ الفلكيون إلى قواعد معروفة في علم الهندسة



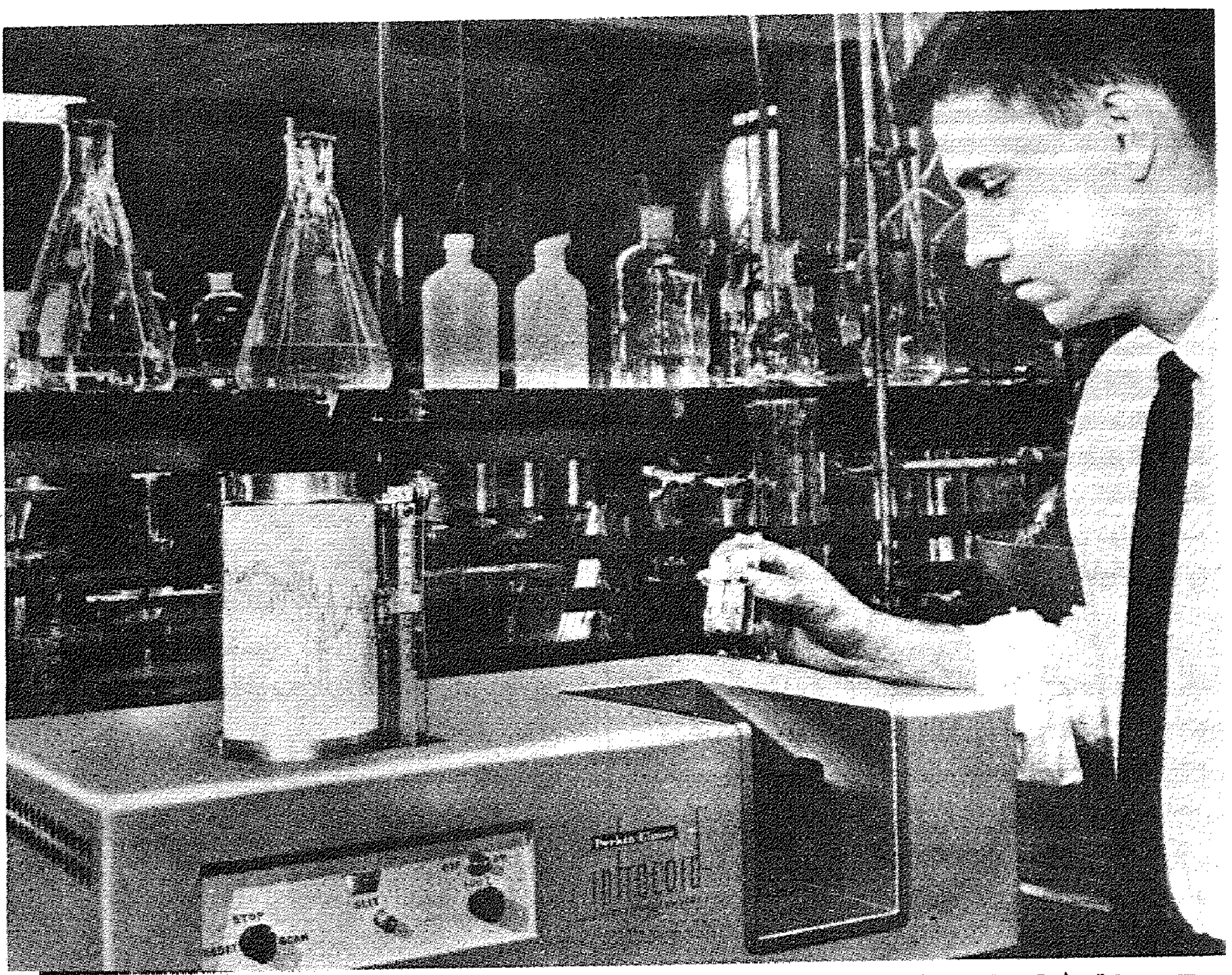
□ «المطياف ـ Spectroscope» من الأجهزة العلمية الدقيقة التي يستعين بها العلماء في دراسة التحليل الطيفي للألواح الفوتوغرافية.

لقياس المسافات على الأرض، وطوروها بشكل يتلاءم مع الأجرام البعيدة المدى. ولما كانت معرفة قطر الأرض من الركائز الأساسية التي تقوم عليها عمليات قياس أبعاد الأجرام، فقد بذل العلماء جهودا كبيرة لتحقيق ذلك. وقد توصل أبناء موسى بطلب من الخليفة المأمون إلى معرفة دورة الأرض عن طريق مقياس درجة من خط الهاجرة، فوجدوا أنها تساوي نحو ٢٤٠٠٠ ميل كما جاء في أخبار الأوائل. وفي ضوء هذه الحقيقة العلمية، تسنى للعلماء تعيين مقدار قطر الأرض، كما هو معروف في علم الهندسة.

بعد القمر والشمس عن الأرض

بعد أن وصل الرواد إلى سطح القمر في ٢١ تموز (يوليو) عام ١٩٦٩، ازداد تطلع الانسان إلى فهم الكثير عن طبيعة هذا الجرم. ومن المعروف أن معدل بعد القمر عن الأرض يبلغ نحو ٤٠٠ ٣٨٤ كم، وقد استطاع العلماء تحديد هذا البعد من خلال طريقة تعرف في الأوساط الهندسية بطريقة التثليث. وقد اعتمد اليونانيون هذه الطريقة في قياس بعد القمر عن الأرض، فوجدوا أن ذلك يساوي ضعف قطر الأرض ثلاثين مرة.

لنفرض أننا نرغب في تعيين المسافة بين نقطة حيث يقف أحد المراقبين وبين القمر، معتمدين على الطريقة الهندسية المألوفة. يتم الاتفاق مسبقا مع مراقب عند نقطة مقابلة على سطح الأرض، ويصبح تعيين اتجاه القمر من النقطتين في الوقت نفسه. ويتمكن المراقب الأول من تعيين المسافة بينه وبين المراقب الثاني، ومن معرفة طول وعرض المركزين، وهكذا يصبح لدينا قاعدة المثلث والزاويتين المحاذيتين، ويكون كل ضلع مساويا للمسافة بين مركز المراقبة والقمر. غير أن الملمين بالأمور الهندسية يعلمون أن حل هذه



□ «سبكتروفوتوميتر» جهاز يستخدم لقياس شدة الضوء النسبية بين مختلف اجزاء الطيف.

المسألة هو أمر سهل ويحتاج إلى بعض التعديلات البسيطة، نظرا لكون القمر جسما متحركا بالنسبة إلى كوكب الأرض، ولأسباب أخرى يعنى بها الفلكيون من حيث دقة العملية.

وعندما نصل إلى قياس بعد الشمس والكواكب السيارة بطريقة «التثليث» الهندسية، حيث يرسم خطان من طرفي قاعدة أرضية إلى الجرم السماوي نجد أن قطر الأرض لا يصلح كقاعدة لأن الزاوية التي تتكون عند التقاء الخطين، تصبح صغيرة جدا ولا يمكن قياسها بشكل دقيق. لذلك راح الفلكيون يبحثون عن قاعدة أطول بكثير من قطر الأرض، فوجدوا ضالتهم المنشودة في قطر مدار الأرض حول الشمس، وهو يساوي ٣٠٠ مليون كيلومتر أي أنه يكبر قطر الأرض بأكثر من عشرين ألف ضعف. وقد اتخذت هذه القاعدة أساسا في قياس بعد الكواكب السيارة عن كوكب الأرض.

لكن مثل هذه العملية تقتضي إجراء مقاييس لهذه الأبعاد في أوقات مختلفة بينها ستة أشهر، وهذا ما يفسح المجال أمام الأرض لتقطع نصف المسافة في مدارها حول الشمس، وبذلك يتمكن المراقبون من رسم خطين من طرف القاعدة التي هي قطر مدار الأرض حول الشمس، إذ تتألف زاوية عند ملتقى الخطين تدعى زاوية الاختلاف ويسهل قياسها نظرا لكبرها، وتصبح القضية موقوفة على حل أضلاع المثلث. وقد تمكن الفلكيون من قياس بعد الشمس عن الأرض بدقة فائقة، كما توصلوا إلى أن الأرض تكون عند أقرب بعد لها عن الشمس في ٣ كانون الثاني (يناير) من كل سنة، وعند أقصى بعد لها عنها في ٤ تموز (يوليو) من كل سنة، أي بفرق في كلتا الحالتين يبلغ نحو مليونين ونصف مليون كم. أما معدل بعد الأرض عن الشمس فهو نحو ١٥٠ مليون كيلومتر، وشكل مدارها اهليلجي

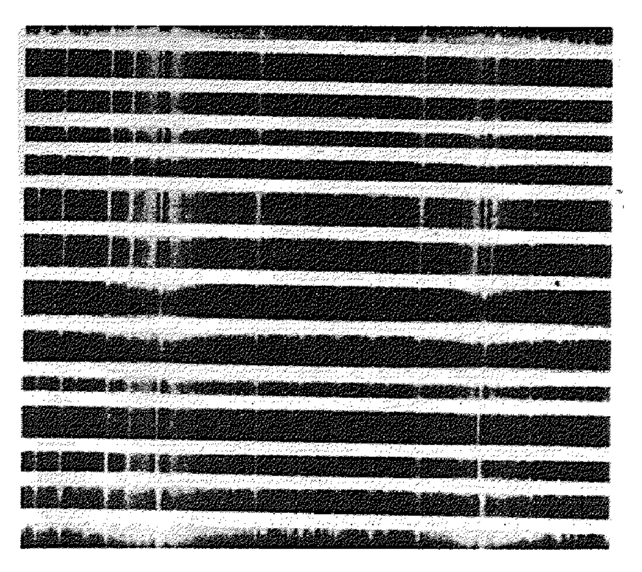
وتقع الشمس في أحد محرقيه.

وهناك طرق أخرى لمعرفة بعد الشمس عن الأرض، منها تلك التي تعتمد على بعد النجيمات التي تقترب كثيرا من الأرض، وتبلغ صحة هذه الطريقة نحو جزء من ٢٠٠٠٠، فكانت النتيجة أن معدل بعد الشمس عن الأرض يبلغ ٩٢,٩١٣,٠٠٠ ميل (الميل يساوي ١,٦١ كم). ويعتقد أن انعكاس أشعة الرادار عن سطح الكواكب السيارة القريبة والشمس، سيكون مكملا للطرق السابقة، لأن الأشعة هذه تنطلق بسرعة الضوء. ومن خلال معرفة الزمن اللازم لوصول هذه الأشعة إلى جرم سماوي والعودة منه بسبب الانعكاس، يتم تعيين المسافة بين الشمس والأرض وذلك بضرب نصف الزمن بالثواني بسرعة الضوء. هذا يذكرنا بقياس المسافة بين مركز ما وجبل أو بناية، عن طريق الصدى الذي يحدث بسبب ارتداد أمواج الصوت المنطلقة من المركز، وقد استخدمت هذه الطريقة في قياس عمق البحار أيضا.

وقد تم بالفعل قياس بعد كوكب الزهرة عن كوكب الأرض عن طريق الأمواج الراديوية كما تم مسحها عن طريق هذه الأمواج وانعكاسها، فأصبح العلماء بذلك مطلعين على طبيعة سطحها وما يغلفه من غيوم. ولما هبط رواد الفضاء على سطح القمر كان من بين أهدافهم العلمية تركيز صف من المرايا العاكسة، تصوب نحوها أشعة لازر من تردد يبلغ نحو ١٠٠ مليون ذبذبة في الثانية، وذلك حتى يتمكن الفلكيون من تعيين المسافة بين الأرض والقمر بدقة لا متناهية، وقد تم بالفعل قياس هذه المسافة بخطأ لا يزيد على متر واحد. ومن المنتظر أن تقوم استراليا بقياس هذه المسافة عن طريق جهاز لازري، تبلغ تكاليفه نحو مليون دولار استرالي، وذلك لتمكين العلماء من تحديد حركات قطبي الأرض، والحركات غير المنتظمة في دورانها.

أبعاد النجوم عن طريق اختلاف النجم السنوي والتصوير الضوئي

يواجه الفلكيون صعوبات عديدة في عمليات قياس أبعاد النجوم، لأن الطرق المستخدمة في قياس أبعاد الشمس والقمر والكواكب السيارة،



□ صورة لاطياف عدد من النجوم يستعين بها العلماء لمقارنة إشراقها الظاهري بإشراقها الحقيقي وذلك لتحديد ابعادها.

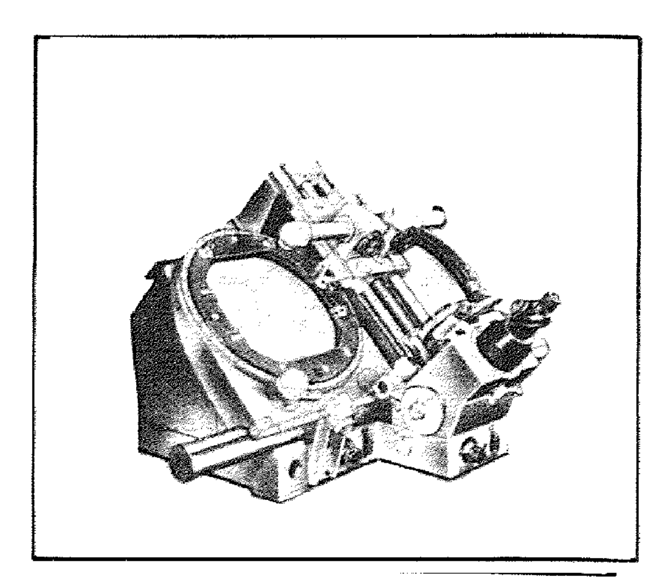
تصبح محدودة عندما ندرك أن أقرب نجم إلى الأرض يبعد عنها نحو ٣٨ ألف بليون كيلومتر، لذلك يغدو من غير الممكن قياس اختلاف النجم السنوي، أي الزاوية عند النجم التي يقابلها قطر فلك الأرض، بالطرق الهندسية المألوفة. هنا كان لا بد من اتخاذ وحدة خاصة لقياس أبعاد النجوم وهي المعروفة باسم «بارساك» وهي تساوي ٣٠٠٠٠ بليون كيلومتر. عند هذا البعد يصبح مقدار اختلاف النجم السنوي ثانية واحدة. ولما كان هذا الاختلاف يتناقص تدريجيا مع بعد المسافة، فإن مقدار اختلاف أقرب نجم إلينا وهو «الفا قنطوروس» يصبح نحو ٠,٧٦ من الثانية. وهناك معادلة بسيطة لاستخراج المسافة بعد معرفة الاختلاف بالثواني وهي:

$$\text{المسافة} = \frac{1}{\text{الاختلاف}}$$

(المسافة هنا هي بالبارساك).

لقد اعتنى علماء الفلك بقياس الاختلاف السنوي للثوابت، وأول من نجح في ذلك العالم الفلكي «بسل» في كونغسبرغ، ومما يشير إلى دقة الأجهزة المستخدمة أنه لو اختلف بعد نجم عن بعد نجم آخر بحيث يقتضي مليون سنة لكي يكمل دورة واحدة، فإن تلك الحركة يمكن كشفها في نصف سنة.

أما «بسل» فقد اخترع آلة سماها، «هيليومتر» وأكملها عمليا «فراونهوفر». وعندما أخذ هذا الأخير يرصد نجما مزدوجا يعرف باسم «٦١/

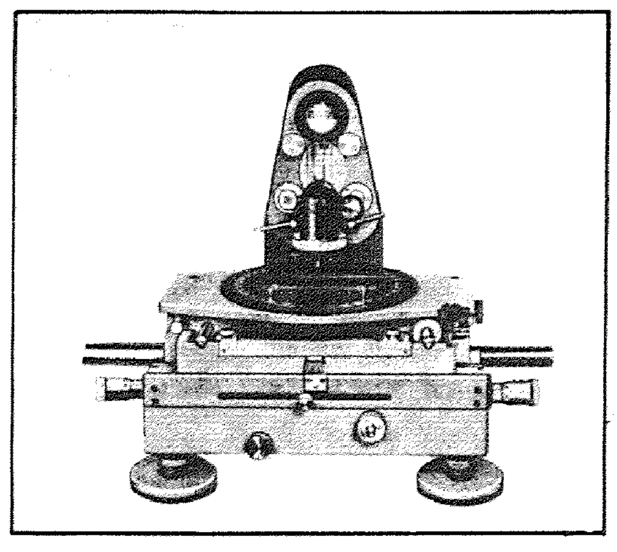


□ مقياس ضوئي لدراسة الالواح الطيفية وتقويم نوعيتها.

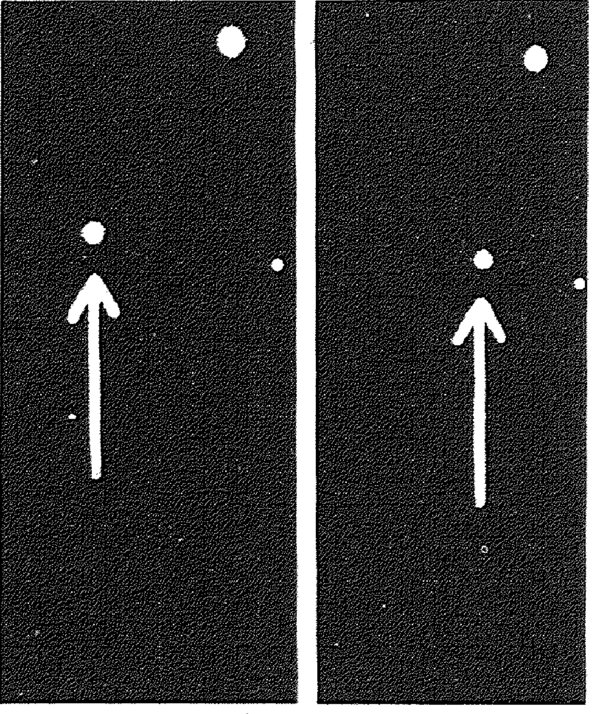
الدجاجة» من أواسط آب (أغسطس) سنة ١٨٣٧ إلى أواخر أيلول (سبتمبر) سنة ١٨٣٨م، اكتشف أن هناك اختلافا بسيطا جدا في عملية رصد هذا النجم. ثم أعاد الرصد سنة أخرى وثالثة، فتبين له أن الاختلاف صحيح ويبلغ ٠,٣٤٨ من الثانية.

إن الوقت الذي يقضيه علماء الفلك في مراقبة النجوم عبر المراقب لا يساوي سوى القليل بالنسبة إلى ما يقضونه في تحليل الصور الضوئية. إذ أن الصورة التي تغطي مساحة تبلغ بضعة أضعاف حجم القمر، تحتوي على عشرات آلاف النجوم. ومع تقدم نظام التلقائية في عمل الآليات، توصل العاملون في المراصد الانجليزية عام ١٩٧٠ بالتعاون مع بعض الشركات إلى صنع جهاز يوجهه دماغ الكتروني، يستطيع تحديد مركز ١٠٠٠ نجم وقياس درجة لمعانها في الساعة. وفي الأشهر الثلاثة الأولى من العمل، تمكن هذا الجهاز من تعيين مواقع أكثر من ربع مليون نجم، بالاضافة إلى قياس لمعان وحرارة ٤٠ ٠٠٠ نجم آخر استنادا إلى اللون بواسطة مرشحات ضوئية مختلفة.

هذا وقد كان للألواح الفوتوغرافية دور كبير في تسجيل أوضاع النجوم، وتحديد مواقعها ومعرفة أبعادها. لكن الضوء الضعيف المنبعث عن نجم ما يظل لعدة ساعات ذا فعالية على اللوح الفوتوغرافي، فيحدث انطباعا يمثل مصدر



□ يستخدم هذا الجهاز في دراسة الألواح الفوتوغرافية المأخوذة للنجوم، وفي تقدير مدى انتقالها بالنسبة إلى مركز معين.



□ صورتان للكوكب السيار «بلوتو» تبينان حركته خلال ٢٤ ساعة. وهو يبعد نحو ٥٨٧٠ مليون كلم عن الارض.

الضوء، وتظل الصورة تمثل ذلك الواقع على مر السنين، فيتمكن الفلكيون من مقارنته مع حدث آخر. ونظرا لأهمية هذه الطريقة في تعيين مراكز النجوم لمعرفة أبعادها، قام عدد من المراصد الفلكية في بلدان مختلفة بوضع دليل لعدد من النجوم لغاية القدر الحادي عشر يبلغ ستة ملايين، سيكون في متناول علماء الفلك إلى أجل

طويل، يمكنهم من تعيين مواصفات وضع هذه النجوم مع مرور الأيام.

ومعلوم أن الزمن هو العنصر الأساسي لرصد تحركات النجوم القريبة بالنسبة إلى البعيدة منها، فكلما طال الزمن ازدادت قدرة التحرك بين نجم وآخر. لذلك نرى علماء الفلك يلجأون إلى صور تفصلها أزمنة تقدر بزهاء ٥٠ عاما كي يتسنى لهم معرفة تحركات النجوم البعيدة للغاية وذلك باتخاذ مركز خلفي هو أحد المجرات المتناهية في البعد. ومع تقدم وسائل الرصد الحديثة، اكتفى علماء الفلك بالتقاط صور لتلك النجوم البعيدة المدى مرة كل ٢٠ سنة أو ٢٥ سنة، على أمل التوصل إلى معرفة تفاصيل دورة مجرتنا حول نفسها، لأن المجرات الأخرى لا تسهم في هذه الحركة.

تحركات الأرض والمجرة (الطريق اللبنية) على ضوء مقاييس حديثة

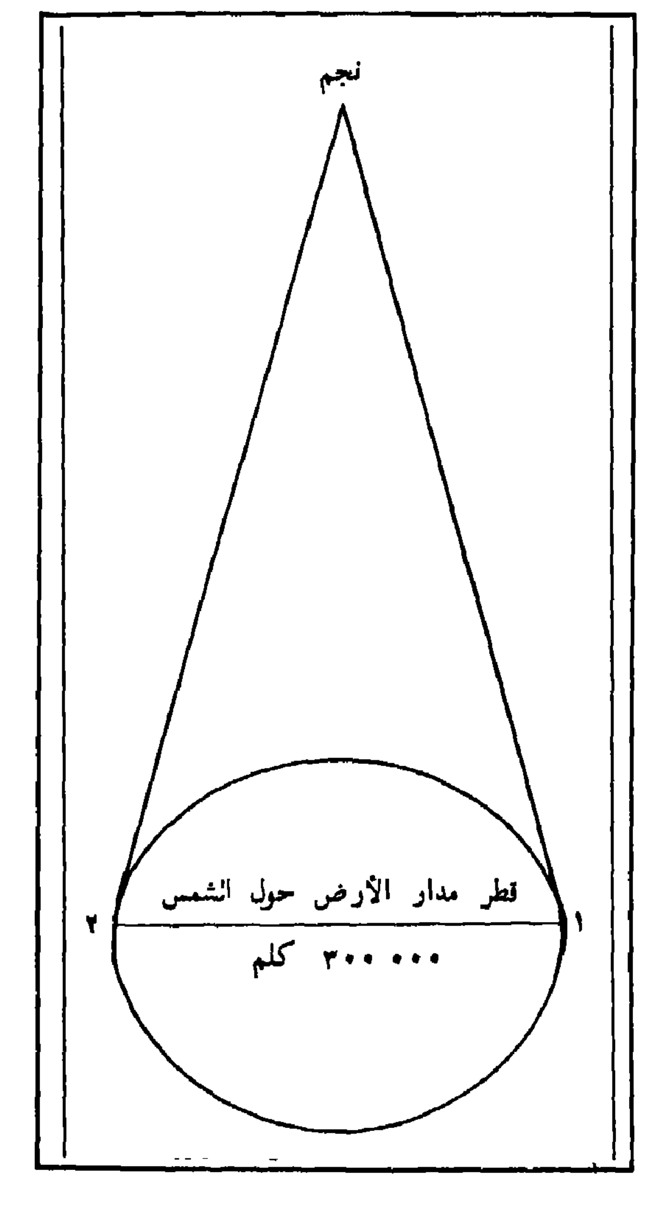
كان من بين الأهداف الكامنة وراء هبوط رجال الفضاء على سطح القمر، وضع جهاز للمواصلات مكون من ١٠٠ مرآة مهمتها استقبال حزم من أشعة لازر تبثها محطات معينة، وإرسالها إلى الأرض. وتستمر هذه التجربة مدة عشر سنوات لمعرفة المسافات بين الأرض والقمر في أزمنة مختلفة أثناء دوران القمر حول الأرض، وكذلك التغيرات التي يحتمل حدوثها في مدارات وأزمنة دوران هذين الجرمين.

ومع أن الفلكيين تمكنوا منذ زمن بعيد من معرفة سرعة الأرض في دورانها حول الشمس وهي ١٠٧٢٨٠ كم في الساعة، وكذلك سرعة دوران النظام الشمسي حول مركز مجرتنا وهي ٦٠٠ ٧٦٩ كم في الساعة، بالاضافة إلى معرفة سرعة دوران المجرة حول مركز تجمع جبار مؤلف من ٢٥٠٠ مجرة مجاورة لمجرتنا وهي ٠٠٠ ١٦٠ ٢ كم في الساعة، إلا أنهم لم يتوصلوا إلى معرفة سرعة الأرض ومجرتنا بالنسبة إلى هذا الكون الشاسع الفسيح. وتوضيحا لضخامة هذه الأبعاد، نكتفي بالاشارة إلى أن الشمس والكواكب السيارة تحتاج إلى ٢٠٠ مليون سنة بسرعة ٦٠٠ ٧٦٩ كم في الساعة لتدور مرة واحدة حول مركز المجرة.

لقد عجز علماء الفلك عن قياس سرعة الأرض ومجرتنا بالنسبة للكون المحيط بنا، لأنه لم يكن لديهم مرجع يعتمدون عليه في هذا المجال، الأمر الذي لا بد منه في قياس كل سرعة لجسم متحرك. غير أن فلكيا أميركيا في الثانية والثلاثين من عمره ويعمل في جامعة ستانفورد، قد توصل إلى حل هذه المعضلة معتمدا على ظاهرة مجال الاشعاع الذي يغلف جميع أجزاء الفضاء، وهو ضعيف للغاية وله تردد عال.

وبواسطة مرقبين راديويين أقيما على رأس جبل عال باتجاهين معاكسين، صار مسح أرباع

□ رسم يبين كيفية إجراء قياس خط الاتجاه من الأرض إلى النجم بعد أن يكون قد مر ستة اشهر على قياس الاتجاه الأول عندما تكون الأرض في النقطة المقابلة من قطر مدارها.



مختلفة من الفضاء بشكل يمنع حدوث أي خطأ يتولد عن تركيب الأجهزة الالكترونية. وبعد الحصول على معلومات تم جمعها في مدة ٢٣ يوما، تمكن هذا العالم الفلكي من معرفة سرعة الأرض باتجاهها نحو ربع الاشعاع.

دور المطياف في قياس أبعاد النجوم بمساندة الاشراق

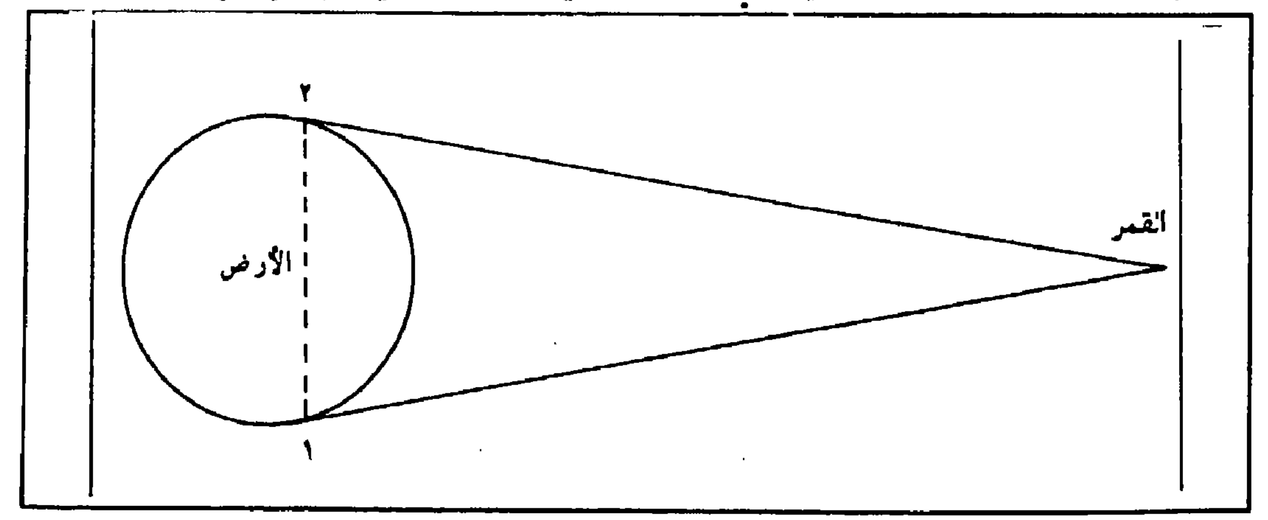
يوالي العلماء تحقيق انتصارات عديدة في شتى الحقول العلمية ومن بينها حقل الفلك، إذ تمكن العلماء من تعيين بعد النجم المعروف برقم ٦١ في كوكبة الدجاجة، ومقدار ذلك عشر سنوات ضوئية. ولقد تطورت معدات التصوير الحديثة وأصبح بالامكان قياس أبعاد جميع النجوم الواقعة ضمن دائرة يبلغ نصف قطرها ٥٠٠ سنة ضوئية قياسا علميا دقيقا. أما مقياس أبعاد النجوم الواقعة خارج هذه الدائرة، فإن أساليب التصوير وما يرافقها من معدات دقيقة، تقف عند هذا الحد حيث يصبح المطياف مع ما يرافقه من معدات، الوسيلة الوحيدة في قياس الأبعاد الشاسعة.

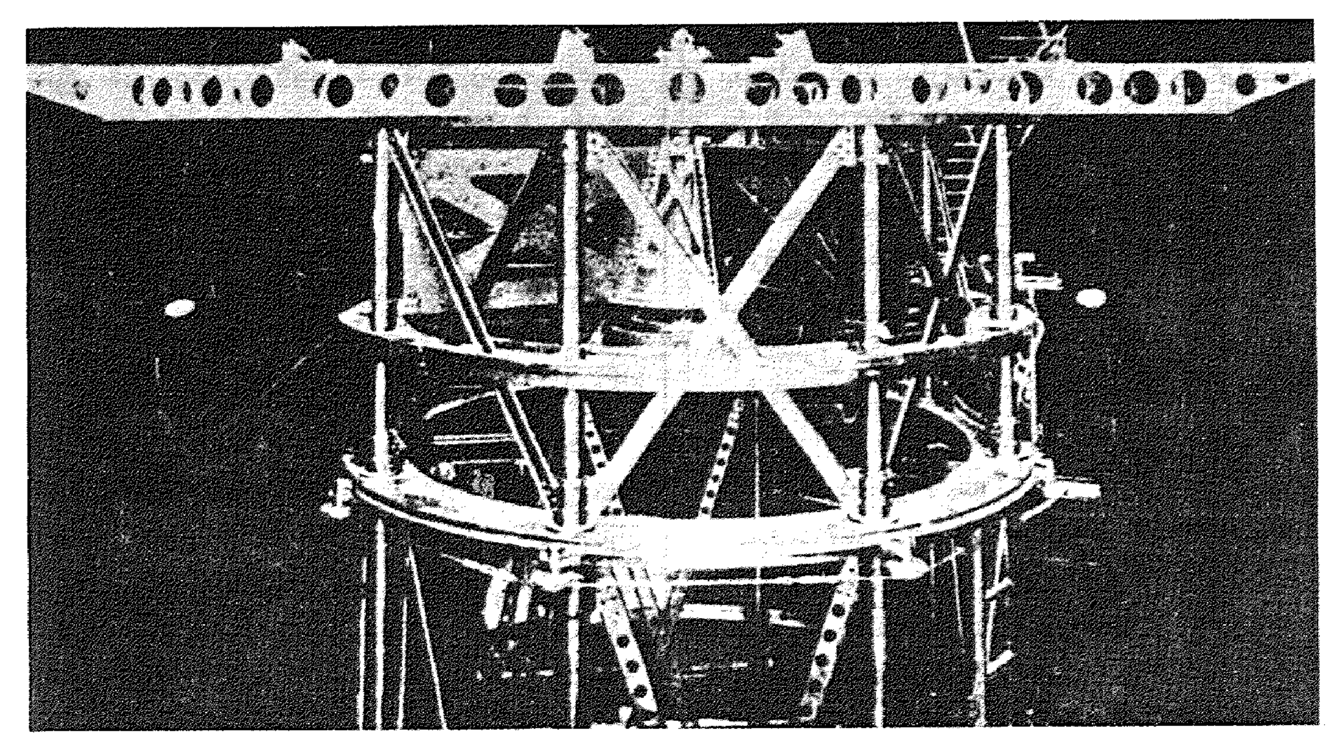
والمعروف في علم البصريات أنه إذا مر شعاع نور نجم من النجوم في المطياف، فإن هذا الشعاع يتحلل إلى الألوان التي يتألف منها، وينتشر على شكل حزام عريض من النور، يتخلله عموديا عدد كبير من الخطوط الضيقة المظلمة. وقد أطلق على هذه الظاهرة اسم «الطيف». وبذلك غدا المطياف وسيلة أساسية لمعرفة مقدار حرارة النجوم ومقدار قوة شعاع نورها ومدى بعدها، وكذلك معرفة سرعة اقترابها أو ابتعادها من كوكب الأرض.

وقد أصبح معروفا عن طريق المطياف أن التجمع النجمي في برج «هرقل» يقترب من الأرض بسرعة ٣١٣ كيلومترا في الثانية. ويتألف هذا التجمع أو العنقود من نجوم تبلغ كتلتها ما يساوي كتلة ١٠٠٠٠٠ شمس كشمسنا. وهذه النجوم تتحرك باستمرار بالنسبة إلى بعضها البعض. أما قوام هذه العملية فهو الحيود إلى الاحمرار أو البنفسجي في خطوط الطيف، فعندما تحيد الخطوط إلى الاحمرار، فمعنى ذلك أن الجسم أخذ في الابتعاد، وعندما تحيد الخطوط نحو البنفسجي فذلك دليل على أن الجسم آخذ في الاقتراب. ومن خلال معرفة مقدار نسبة الحيود في خطوط الطيف، يتم تعيين مقدار الاقتراب أو الابتعاد على نمط ما يحدث لأي مصدر من مصادر الصوت، الأمر الذي نلاحظه عند اقتراب أو ابتعاد القطار عنا، من اختلاف في ارتفاع درجة صفيره الذي يتولد عن تغير ظاهري في عدد الاهتزازات التي تصدر منه في الثانية.

وهناك طريقة أخرى مساندة للطرق التي مر ذكرها لقياس الأبعاد السماوية تم اكتشافها حديثا. وتقوم هذه الطريقة على أساس وجود نجوم يتغير إشراقها تغيرا دوريا، فكأن كلا منها قلب ينبض بانتظام، وهي تعرف بالمتغيرات القيفاوية. فإذا راقبنا قيفاويين متغيرين لهما دورة تغير واحدة، وكان إشراق أحدهما الظاهري

□ علم المثلثات من الوسائل العلمية التي يعتمد عليها العلماء في تعيين المسافة بين الارض والقمر.

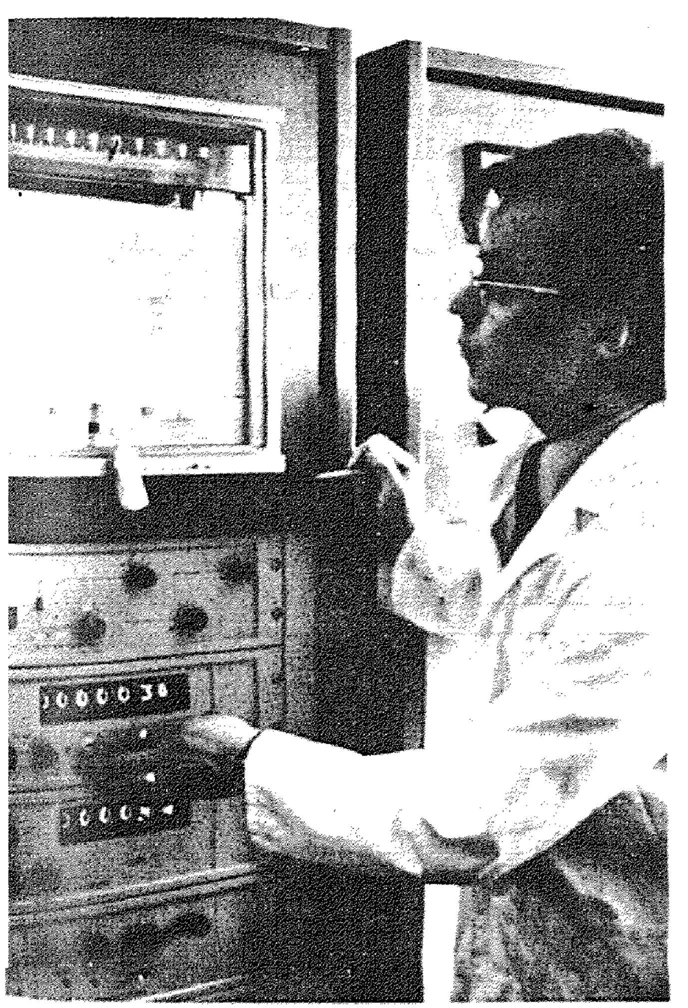




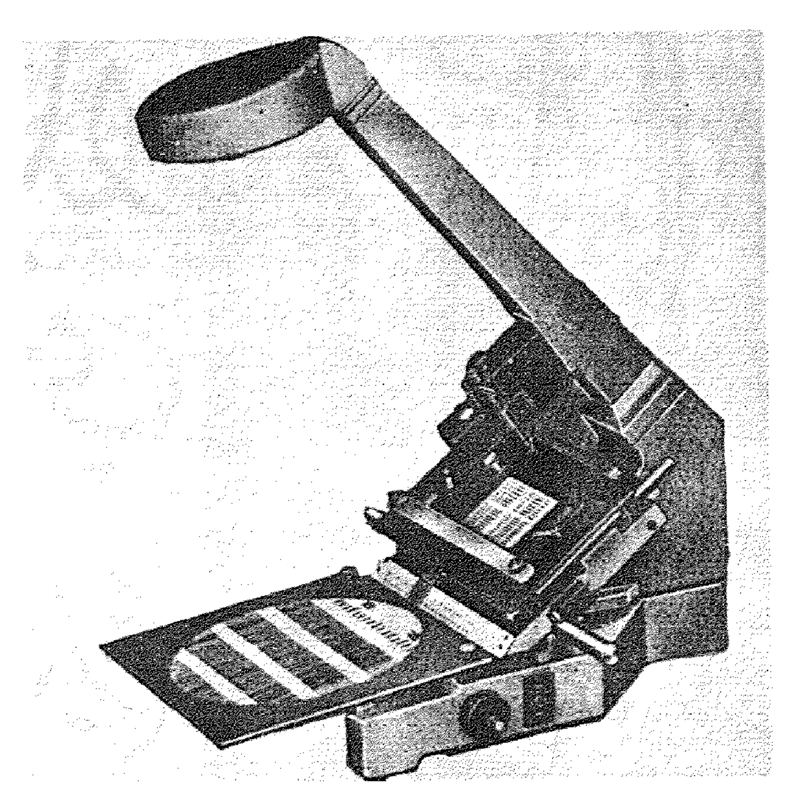
□ جهاز «انترفيرومیتر ــ Interferometer» أو مقياس التداخل، وهو أداة تستخدم ظواهر التداخل الضوئي لتحديد طول الموجة ومعامل الانكسار لدى قياس الأبعاد بين الكواكب والنجوم من على سطح الأرض.

يفوق إشراق الآخر مائة ضعف، فإنه يمكن القول بأن أقلها إشراقا هو أبعد من الآخر بمقدار عشرة أضعاف، وإذا كان أحدهما يقع في مجموعة معينة من النجوم وعرف بعدها عن الأرض بالوسائل السالفة الذكر، فإنه يصبح بالامكان استخراج بعد الآخر. وقد طبق العلماء هذه الطريقة على نجوم ومجرات عديدة، فأصبح لديهم رصيد هائل من القياسات الكونية.

وبإدخال جهاز «التداخل ــ Interferometer» على المراقب الضوئية، تسنى للفلكيين معرفة مقاييس فلكية تفوق تصور العقل البشري. ومن محاسن هذا الجهاز تمكين العلماء من قياس قطر النجم المعروف بمنكب الجوزاء (٣٤٤ مليون كم)، وقطر النجم السماك الرامح (٣٣,٥ مليون كم). وقطر النجم قلب العقرب (٦٤٠ مليون كم). وقد أمكن تحقيق ذلك عن طريق مرآتين صغيرتين توضعان على الحرف العلوي وعلى مقربة من طرفي العارضة بحيث تجمعان إشعاعين من الضوء. ومن تداخل هذين الاشعاعين يمكن تعيين قطر المصدر.



□ «مقياس الطيف ــ Spectrometer» من الأدوات الفعالة التي تسهم في تحليل الكثير من المعلومات التي تساعد على دراسة الألواح الفوتوغرافية.



□ جهاز خاص بعرض الالواح الطيفية بغية تدقيقها وتعيين مراكز الاطياف.

تعرف إلى سماء بلادك

وضعت الخرائط على أنواعها لتوضيح مواقع معالم الأرض من جبال وسهول وبحار وأنهار، ومدن ومراكز تساعد على الأسفار وضبط المسافات بين مكان وآخر. وكان هذا أمرا سهلا نظرا لتمكن الانسان من الوصول إلى بقاع الأرض القريبة والنائية. وقد أسهمت الأقمار الاصطناعية أخيرا، في ضبط المسافات بشكل دقيق مما زاد في معرفة ما يحتاج إليه المهندسون في تخطيط مواقع ما كان مجهولا إلى يومنا هذا، من مواقع مراكز الثروات الطبيعية المختلفة التي تحتضنها الأرض.

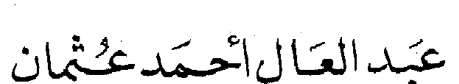
وهناك ناحية لا بد من التعرف إليها في حياتنا الخاصة والعامة، وذلك في القبة الزرقاء التي تعشقها الأقدمون وأكبوا على دراستها ووضع خرائط لها، وأطلقوا أسماء الأبراج على بعض تجمعاتها، وحددوا مواقع النجوم بشكل دقيق حسبما تيسر لهم من وسائل.

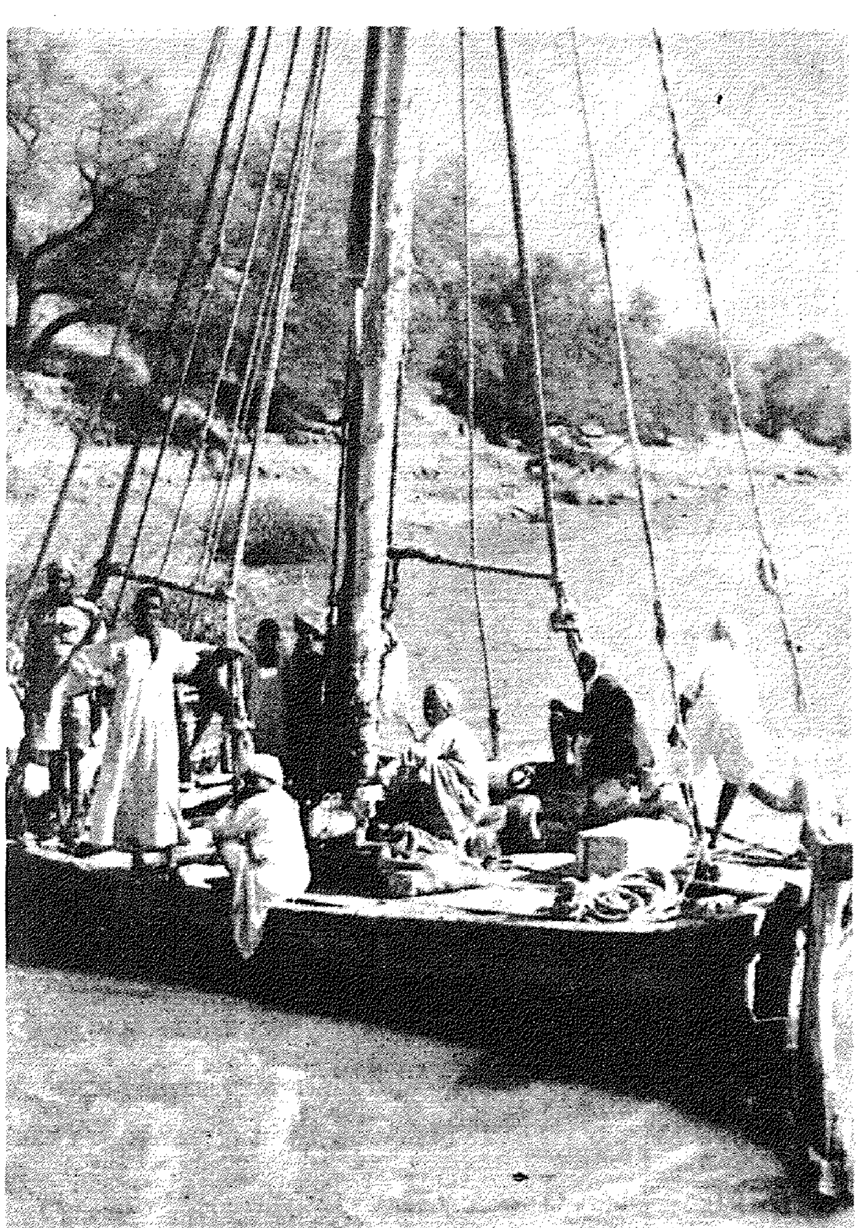
وبسبب دورة الأرض يتغير وضع النجوم والأبراج من فصل إلى آخر، كما يتغير وضع الشمس الذي يسبب الفصول، لذلك تظهر تجمعات النجوم في أوقات مختلفة من السنة وتغيب لتعود ثانية إلى وضعها الأول، فأصبح بعض الأبراج يعرف بأبراج الصيف أو الخريف أو الشتاء أو الربيع.

وليس من العسير على من أراد تتبع ظهور الأبراج الرئيسية، وما فيها من نجوم بارزة، أن يتعرف إلى نجم القطب الشمالي الفلكي، لأن هناك علاقة ثابتة بين هذا النجم وبرج الدب الأكبر أو بنات نعش، التي اتخذها الأقدمون من بابليين ومصريين وعرب، وسيلة يهتدون بها في أسفارهم.

ويجب أن لا يغرب عن بالنا، أن مشاهدة النجوم في النصف الشمالي من القبة الزرقاء، تزداد وضوحا كلما اتجهنا شمالا من خط الاستواء ويختفي بعض ما كان ظاهرا منها في النصف الجنوبي من القبة الزرقاء. وينطبق الشيء نفسه على من يتجه جنوبا من خط الاستواء، إذ يشاهد ما كان منحجبا عنه قبلا من الأبراج الجنوبية، تاركا وراءه بعض الأبراج الشمالية. وعندما يقترب المشاهد من أحد القطبين، يستطيع رؤية بعض الأبراج بصورة دائمة. وهناك كثير من التحركات النجمية، تبدو كواقع حقيقي لمن يدقق في تعيين مراكز النجوم وتجمعاتها وتحركاتها. ●

دنقلا العجوز عبر التاريخ





□ بحارة وتجار من دنقلا، وقد لعب هؤلاء دورا بارزا في انفتاح جنوب السودان الاقتصادي خلال القرن التاسع عشر.

أصل اسم المدينة:

يذكر السيد محمد سعيد أحمد عبد الله حديثا منسوبا إلى السيد (حسن أحميدي)[١] أن (دنقل) معناها في اللهجة الدنقلاوية الطوب الأحمر[٢] ولما كانت دنقلا العجوز في معظمها مبنية بالطوب الأحمر وكان يقيم فيها الحاكم العام) حيث كان المظلوم يقول لخصمه سوف أشكوك في الدنقل أي في المكان الذي يقيم فيه الحاكم والمبنى من الطوب الأحمر ويرى أنه بمرور الزمن حرف الاسم إلى دنقلا والكلمة مشتقة أصلا من دنقل.

ولكن بما أني دنقلاوي وأجيد لهجة الدناقلة فإن كلمة دنقل لا تعني الطوب الأحمر فقط إنما تطلق أيضا على كل شيء صلب قوي ومن هنا ربما سميت دنقلا العجوز (بدنقل) ثم حرفت إلى دنقلا لأنها تقع في أرض صخرية صلبة مرتفعة أو ربما كان الحاكم المذكور قاسيا صلبا في حكمه وسمى (بدنقل) ويؤيد قولي هذا وصف يونيه (الطبيب الذي مر بالبلاد في طريقه إلى الحبشة سنة ١٦٩٨)، إذ يقول (وصلنا إلى دنقلا فأذن لنا الملك بالدخول وبيوتها مبنية بناءا رديئا وطرقاتها شبه مهجورة وقصر الملك في وسط المدينة وهو مبعث رهبة في نفوس العرب الذين هم سادة هذه المنطقة)[٢].

اما دنقلا الحالية العرضي فيرى الدكتور مكي شبيكة (أن المماليك اتخذوا من مراغة الواقعة شمال دنقلا عاصمة لهم وسموها دنقلا الجديدة)[٣].

وهناك رأي آخر يتداوله أهالي المنطقة وهو أن دنقلا مكونة من (دنق) ومعناها بلهجة الدناقلة النقود. (ولا) النافية ويقال أن سان المدينة كانوا يقولون (دنق لا) عند حضور جامعي الضرائب أي لا توجد نقود ثم حرفت العبارة إلى دنقلا.

وللتمييز بين دنقلا الحالية وعاصمة المقرة فإن الأخيرة تسمى دنقلا العجوز والأولى دنقلا وقد تسمى العرضي أو الأوردي، ويقال أن اسماعيل باشا وضع فيها أورديا (أي فيلقا من العساكر) فأطلق عليها اسم الأوردي وحرف إلى العرضي)[٤].

نشأة المدينة:

تعتبر مدينة دنقلا من المدن السودانية الحديثة حيث بدأ ظهورها على مسرح التاريخ بعد سقوط دولة المقرة المسيحية التي كانت تتخذ من دنقلا العجوز عاصمة لها. ويبدو أن المدينة بدأت كقرية زراعية إذ أن المصدر الوحيد للحياة فيها هو النيل الذي تطل عليه المدينة مباشرة من جانبه الغربي بالاضافة إلى خصوبة تربتها التي تعتبر من طمى النيل حيث كانت تتفرع ترعة قديمة من النيل من جنوب المركز وتصب شمال الديم الحالية ومما يرجح نشأتها الزراعية أيضا أن المباني القديمة نسبيا تقع إلى الغرب بمسافة من النيل بينما شاطىء النيل مبانيه حديثة ومعظمها مباني حكومية وهذا يدل على أن السكان اتخذوا من مكان المباني القديمة مسكنا لهم بينما استخدموا الأراضي القريبة من النيل للزراعة يضاف إلى كل ذلك وجود الجنائن وسط مباني المدينة.

ثم بدأت تظهر التجارة بما نسبة لوقوعها في منطقة غنية بالسلع الزراعية التي كان لا بد لها من سوق، فناسب موقع دنقلا خلق سوق وسط وزادت أهميتها التجارية مع مرور الزمن بعد إزالة الصخور التي كانت تعوق الملاحة بين كريمة وكرمة[٥] وبعد فتح حياض دنقلا حيث أخذت المراكب تسير في النهر صاعدة وهابطة وهي محملة بالبضائع بين كريمة ودنقلا بالاضافة إلى الطريق البري الذي كان يربط بينهما بالجمال وبينها وبين أم درمان كذلك.

وصف المدينة:

تشبه مدينة دنقلا مستطيلا يمتد طوله من الشرق إلى الغرب وعرضه من الشمال إلى الجنوب ويأخذ في الاتساع لناحية الغرب حيث الأراضي الواسعة التي تلتقي بالسلسلة الجبلية.

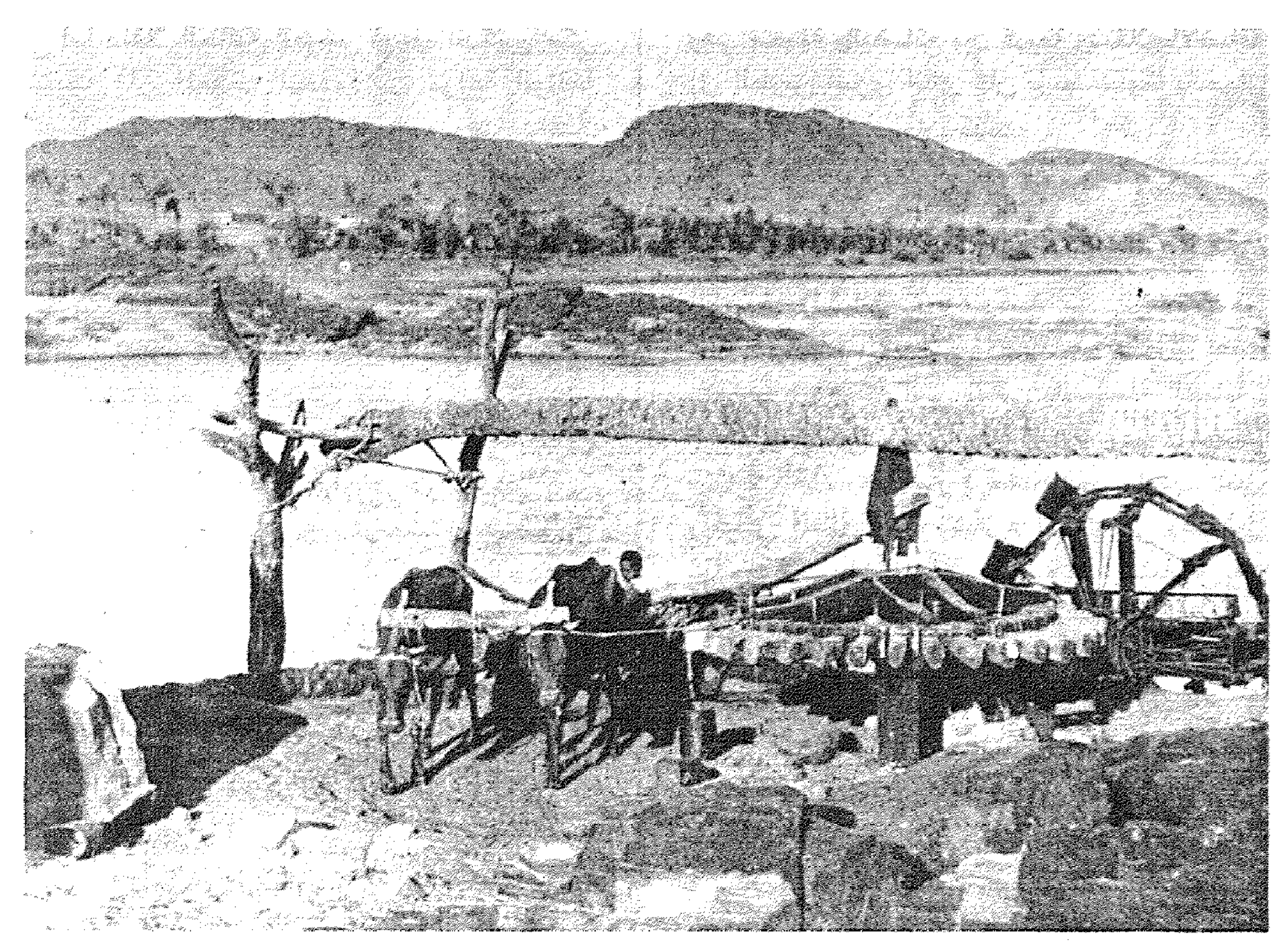
أما شوارع المدينة فمنتظمة، ومن أشهرها شارع النيل وهو شارع قصير يمر ما بين النيل والمباني المطلة عليه، وشارع المستشفى وهو أول شارع غرب الشارع السابق. وهذا الشارع يعج بالحركة الدائبة لمروره بالسوق والمنطقة التجارية، أما شارع المسرح فيتجه من الغرب إلى الشرق واكتسب اسمه حديثا بعد افتتاح المسرح في يناير ١٩٧٨ وشوارع المدينة عموما مشجرة بأشجار النيم وتشق الجداول الشوارع لري الجنائن داخل المدينة وأشجار الزينة والنخيل داخل بعض المباني الرسمية كالمستشفى والمجلس وأقيمت لهذا الغرض طلمبة على النيل حيث تجاور مبانيها مباني البريد والبرق.

السكان:

تشمل كلمة دناقلة سكان المنطقة الواقعة ما بين الدبة جنوبا وكرمة شمالا دون تمييز لأصل القبائل وإن كان الدناقلة النوبيون هم اقدم السكان وأكثرهم عددا وعند بداية نشأة المدينة كانوا أساسا نواة السكان ومن الصعب تمييزهم اليوم عن الآخرين بسبب الاختلاط فالمماليك بعد اتخاذهم مراغة عاصمة لهم تصاهروا معهم بعد أن أعادوا زوجاتهم إلى مصر[٦]، وكذلك الحال مع القبائل الأخرى، وفيما يلي نستعرض بعض القبائل:

(أ) الدناقلة:

يشكلون اغلب السكان وما زالوا محتفظين بلهجتهم بالرغم من استخدامهم للغة العربية وانتشار التعليم ومتطلبات الحياة المدنية، غير أن تأثير اللغة العربية في لهجتهم تبدو اليوم واضحة.



□ دنقلا الزراعية، حيث النيل هو مصدرها الوحيد للحياة.

وأهم ما يميزهم الهجرة إلى داخل البلاد وخارجها لدرجة أضرت بالمدينة وعاقت نموها العمراني، أما دافعهم إلى الهجرة فهو عجز المهن المتوفرة بالمدينة على استيعابهم لعدم قيام الصناعة بشكل واسع بها فدنقلا مدينة تجارية ولم يألف الدناقلة النوبيون التجارة وهم يتركزون حاليا في أطراف المدينة حيث تقع بعض الأراضي الزراعية كما يقومون بزراعة جزيرة المساكين.

وقد قفز عدد المهاجرين حسب احصاء نشر بمجلة الشباب العدد ٢٦٨، ١٩٧٨ من ٣٥١١ مهاجرا في سنة ١٩٥٦ إلى ٦٢٧٥ في سنة ١٩٧٣.

(ب) القبائل الأخرى:

يقطن المدينة قبائل أخرى وبأحجام مختلفة وأبرزها مجموعة السكان المعروفة محليا باسم (الحلب) أو (الفلاليح) يستخدم الاسمين الدناقلة ويقصد بهما كل ذي بشرة صفراء وهم بالطبع لا ينتمون إلى قبيلة واحدة ومنهم القناوية ويعني أنهم قدموا من صعيد مصر من قنا ثم النزهية والسيسبين.

والحلب يمثلون أغنى طبقة إذ يعمل أغلبهم بالتجارة والمقاولة ويتركزون في وسط المدينة، وبالاضافة إلى هؤلاء هناك مجموعات صغيرة من قبائل المناطق المحيطة بمنطقة دنقلا كالمحس وعرب الكبابيش.

المراحل التاريخية للمدينة:

١ ــ عهد المماليك:

لم تظهر دنقلا العرضى على مسرح التاريخ إلا بعد سقوط دنقلا العجوز ولم تذكر المراجع أهمية لها في العهد المسيحي فبعد سقوط دنقلا العجوز على أيدي المماليك عقد الشايقية صلحا معهم يحتل بمقتضاه المماليك كل البقعة الغربية للنيل ما بين الخندق جنوبا والحنك شمالا واختاروا

مـراغة عـاصمـة لدارهم ومملكتهم الجـديـدة وسرعان ما ازدهرت المدينة الجديدة التي سموها دنقلا الجديـدة وقد اهتم المـاليك بـالزراعة وخاصة انتاج القمح وقام من كان معهم من مهرة الصناع بصنع المراكب وأصبح في عهدهم لدنقلا الجديدة مركز تجاري ممتاز ولا زالت صناعة المراكب هذه تتم في جزيرة لبب الواقعة جنوب المدينة وبعد مرور أشهر على إقامة المماليك في عاصمتهم الجديدة تصاهروا مع سكان البلاد بعد أن بعثوا بنسـائهم لمصر وأصبح لدنقـلا اتصال بمصر في عهدهم. وبعد أن استقروا بها حوالي عامين بدأوا بحملات تأديبيـة لتسويـة حساباتهم مع من يقتسمون معهم الملك والسيادة وهم الشايقية.

«سير المماليك حملة في يناير ١٨١٢ اتجهت من مراغة إلى دار الشايقية وبينما كانت هذه الحملة تشق طريقها كانت فرقة من الشايقية قد وصلت إلى مراغة وأوقعت خسـائر فـادحة في ما خلفه المماليك من أمتعة وممتلكات في مراغة».

«وعند سماع المماليك بنبأ الاغارة انقسموا إلى فرقتين كانت احداها تحت امرة ابراهيم بك ورجعت إلى مراغة والأخرى بقيادة عبد الرحمن بك إلى دار الشايقية وعادت هذه الأخيرة بعد أن نشبت بينهـا وبين الشـايقية معـركة في حلة حتانى[٧].

٢ ــ العهد التركي:

تظهر وتتضح أهمية دنقلا العرضى مع الحكم التركي حيث دخل جيش محمد علي دنقلا بقيادة ابنه اسماعيل باشا دون مقاومة تذكر لأن الأهالي ذاقوا الأمرين من الشايقية والمماليك وفوق ذلك فهم شعب شغلوا بفلاحة الأرض[٨]. وعند قدوم اسماعيل باشا كان بمراغة عاصمـة المماليـك ثمانون رجلا فأتى عشرون منهم مسلمين وفر الباقون إلى شندى.

اختار اسماعيل باشا دنقلا عاصمة للبلاد بدل دنقلا العجوز فوضع فيهـا أورديا أي فيلقـا عسكريا. وقد جاءت تسمية المدينة فيما بعـد بدنقلا الأوردي كما ذكر.

بقي اسماعيل بدنقلا.. يخـاطب الشايقيـة بتسليم أسلحتهم وخيولهم ولما رفضـوا زحف نحوهم في عصر ٤ نوفمبر عام ١٨٢٠ وعين بدنقلا مديرا.

ولما كان هم محمد علي جلب الرجال والذهب فقد أرسل الدفتردار خمس ألف من الأسرى من اقليم كردفان في قوافل تشمل كل واحدة منها الألف إلى دنقلا ليرسلهم مديرها بعد ذلك إلى



□ احد امراء دنقلا، الأمير يونس.

المحروسة كأسرى النصوب فقويت صلة دنقلا بمصر في ذلك العهد. ومن ناحية العمران فإن المدينة لم تشهد إضافات في عهدهم سوى أن جعفر باشا مظهر أنشأ ضبطية لحفظ الأمن كما أنشأ اسماعيل ايوب مدرسة بها.

٣ ــ دنقلا والمهدية:

«بعد الانتصارات التي حققها جيوش المهدي على قوات غردون بعثت حملة الانقاذ بقيادة وسلي إلى الخرطوم ولكن الحملة اقفلت راجعة بعـد سماع مقتل غردون. تراجعت الحملة نحو دنقلا وأسند المهدي تعقبهم لعامل بربر محمد الخير ولكن الانجليز أخلوا دنقلا قبل وصوله فبعث محمد الخير بابن أخيه عبد الماجد محمد خوجلي لاحتلالها وفعلا تم له ذلك وأعلن ضم دنقلا إلى الأراضي المهدية».

وعنـد زحف النجومي عـلى مصر شرع في ترحيل جيشه إلى دنقلا منذ أوائل أبريل ١٨٨٦م

□ سرايا الحكومة في دنقلا، وهو المبنى الوحيد الذي كان يتكون من طابقين بالمدينة.

وبقي بها في انتظار الاشارة من الخليفة بالزحف. واتخذ مكانا بالديم على بعد ثلاثة أميال شمال مركز الأوردي وعلى نحو ميل غرب النيل.

«أما مركز دنقلا القديم فقد هدمه الدراويش[٩] عند دخولهم البلاد وبنوا بأخشابه ديمهم وجعلوا من مركز المديرية شونة للغلال[١٠]. ولم يكن الوئام يسود بين رؤوس الأنصار في دنقلا إذ كان النجومي ومساعده قيدوم على خلاف دائم مما جعل الخليفة يبعث بأمناء لبحث أسباب النزاع». وحكموا بأن يعود مساعد إلى أم درمان وعين الخليفة يونس الحكيم أميرا عاما لدنقلا يقيم فيها. ثم تحرك الأمير عبد الرحمن من دنقلا صوب مصر في ٣ مايو سنة ١٨٨٩ مع أربعة آلاف مقاتل وسبعة آلاف من النساء والأولاد[١١].

وعند حملة كتشنر لاسترجاع السودان من قبضة المهدية كان ود بشارة في دنقلا عاملا عليها له الادارة المدنية والعسكرية والتقى بجيش كتشنر عند بلدة الحفير التي تقع إلى الشمال من دنقلا ثم عاد ودبشارة بعد أن أخلاها ليرابط في عاصمته دنقلا، أما كتشنر فقد عبر بجيشه إلى



إحدى قرى دنقلا، ١٨٩٨م.

البر الغربي وواصل زحفه جنوبا صوب دنقلا ليحاصرها من الجانب الصحراوي أي الغربي، وتصلها البواخر من الناحية الشرقية، وقبل أن يطل الجيش البري على دنقلا كان الأسطول الخديوي يطلق قذائفه على أنصار المهدي في المنازل وفي المعتصمات من الطوابى ولم يترك لهم زمنا يتممون حصونهم ويحسنون مواقعهم. وبينما هم في معركة متصلة مع الطوابى إذا بالجيش البري يظهر في الأفق وينتشر حول المدينة محاولا احتضانها بين فكي كماشة. أما ودبشارة فقد انسحب تجاه الدبة بعد أن ترك فرقة قليلة العدد من الجهادية تحمي ظهورهم أثناء انسحابهم. ووجد الجيش البري عندما أطل على المدينة أن جنود الأسطول النيلي سبقوهم باحتلال الجزء الأكبر منها وعلى أثر ذلك رفرف العلم المصري على بناية المديرية دلالة على سقوط دنقلا.

٤ ــ دنقلا والحكم الثنائي: ١٨٩٨ ــ ١٩٥٦

هنا تبرز أهمية دنقلا وتزدهر من الناحية العمرانية والتجارية والادارية. حيث اتصلت المدينة بالعالم الخارجي وبالعاصمة بعد إنشاء



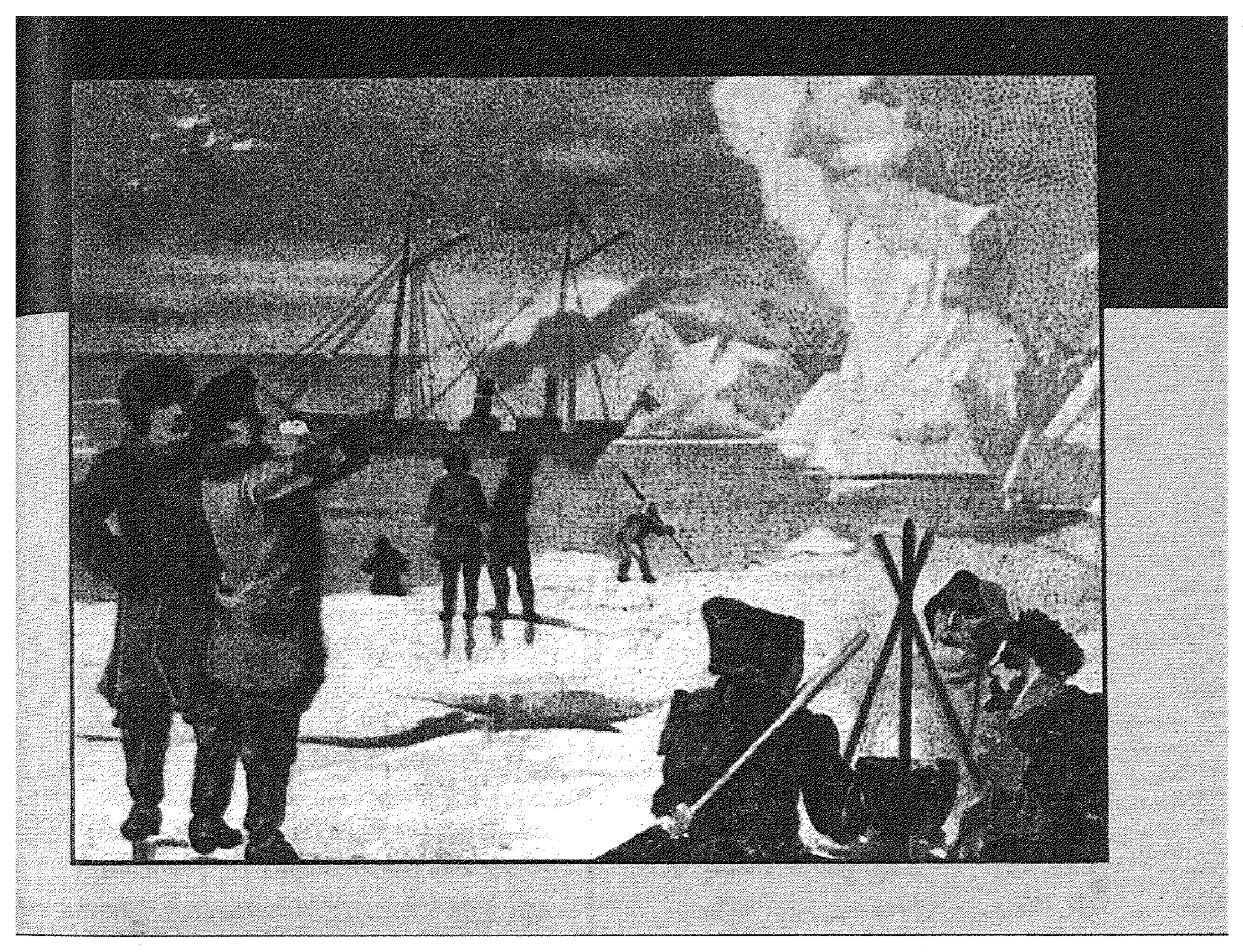
خط سكة حديد أبى حمد كريمة في ٨ مارس سنة ١٩٠٦ ليكمل الملاحة النهرية بين كريمة ودنقلا. كما أعد مهبط جديد في فبراير ١٩٥٠م وبدأت الخطوط الجوية السودانية رحلاتها بانتظام[١٢].

«وفي مجال العمران تم تشييد مستشفى دنقلا والسجن العام ولكن سرعان ما نقل الأخير إلى مروى وبدأ العمل في بناء محكمة دنقلا ومنازل البوليس في سنة ١٩٠٨[١٣]. أما سرايا الحكومة فيذكر المستر أي. جي كارتون (أن تشييده تم بعد عودة الاحتلال وجلب له الخشب عن طريق كرمة) ويقع المبنى على النيل مباشرة من طابقين وهو المبنى الوحيد الذي يتكون من طابقين بالمدينة وقد استخدم كاستراحة بعد الاستقلال واليوم يستخدم كمدرسة ثانوية عليا للبنات».

وفي سنة ١٩٠١ أخذت الحكومة تنشيء مسجدا في المدينة وقد تم بناؤه سنة ١٩٠٥ من الأجر دفعت الحكومة ٨٣ ﻟـ من جملة تكاليف والباقي جمع من الاكتتاب وفي سنة ١٩١١ تم بناء مسكنين للبوليس ورصيف حجري للنهر للوقاية من شر الفيضان والهدام وفي مجال التعليم افتتحت مدرسة بدرجة كتاب في سنة ١٩١٣ بسعة ٩٠ تلميذا».

الهوامش

(١) يعمل حاليا مساعد المحافظ للشؤون الدينية بالمديرية الشمالية.
(٢) نولكز: الشايقية، ترجمة د. عبد المجيد عابدين.
(٣) د. مكي شبيكة: السودان في قرن.
(٤) نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان.
(٥) تقارير الحالة المالية والادارية في السودان ١٩١١.
(٦) د. مكي شبيكة: السودان عبر القرون.
(٧) نوكلز: الشايقية، ترجمة الدكتور عبد المجيد عابدين.
(٨) نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان.
(٩) كذا يطلق نعوم شقير والمؤرخون الأجانب هذا الاسم على أنصار المهدي.
(١٠) نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان.
(١١) دكتور مكي شبيكة: السودان عبر القرون.
(١٢) تقارير الحالة المالية والادارية في السودان ١٩٥٠.
(١٣) تقارير الحالة المالية والادارية في السودان ١٩٠٨.



ثلاث طرق ممكنة

لقد عرفت منطقة القطب الشمالي قبل منطقة القطب الجنوبي، ولكن صعوبات بلوغ تلك المناطق كانت كبيرة جدا، والتضحيات في سبيلها أكبر. فمنذ القرن السادس عشر، قام البحارة الأوروبيون بمحاولات لبلوغ القطب سالكين الطريق الشمالية الغربية، وكان الهدف منها الوصول عبر الباسفيك إلى الهند. فالايطالي جان كابو اكتشف، وهو يبحث عن طريق الهند، اللابرادور والأرض الجديدة. بعد زمن يسير سار جاك كارتيي عبر مضيق سانت ــ لوران. واتصل البريطاني مارتان فروبيش بالاسكيمو، واكتشف جون ديفيس الممر الذي يفصل غروونلاند عن أرض بافن.

في مطلع القرن السابع عشر، عرف هنري هودسون خليج هوسون وبلغ الدرجات ٨٠، ٢٣ شمالا، من خطوط الطول والعرض، على شاطىء غروونلاند الشرقي. في الشمال الشرقي من أوروبا، كان البريطانيون والهولنديون الرواد. فالسيرهوغ ويلوفبي ورفاقه ماتوا من البرد خلال محاولتهم الاقامة شتاء، شمال لابوني. ريتشارد شانسلّر بلغ البحر الأبيض. بورو وصل أول من وصل إلى شواطىء زامبل الجديدة. ويلّم بارنت تخطى هذه الأرض، شمالا، وتوغل في بحر قارا، آملا في الوصول إلى الصين ليعود منها بأقمشة الحرير. وخلال رحلة ثالثة اكتشف جزيرة الدب وسبيتزبرغ، شمال لابوني. وقد اضطر إلى تمضية الشتاء في زامبل الجديدة، فأضاع سفينته ومات على طريق الرجوع. ومنذ ١٦١٦ أعلن بافن الذي بلغ مضيق لانكستر، والأرض التي أطلق عليها اسمه: «لأنه لا بد من التخلي عن الأمل في اكتشاف طريق شمالية غربية إلى القطب». وخلال قرنين، تخلت الأميرالية

سباق نحو القطب الشمالي بين روسيا وأميركا

د. سامي زكي

تميز القرن التاسع عشر برحلات الاستكشاف إلى أفريقيا، وأوستراليا، وآسيا الوسطى، في الوقت الذي كان فيه التوسع الاستعماري قد جعل من أوروبا سيدة كوكبنا الصغير.

كان الحافز إلى الاستكشاف متعدد الوجوه: الفضول العلمي، المشاعر الوطنية، الفوائد التجارية، الرغبة في التبشير، حب السفر والرحلة الخ... وقد اكتشفت كل اسرار الأرض جغرافيا، ما عدا سرا واحداً، هو القطب الذي بقي مجهولا حتى مطالع القرن العشرين. فلم يبلغه أحد، لأنه وسط مسافات وكتل ضخمة جليدية. والحال واحدة بالقياس إلى القطب الشمالي والقطب الجنوبي. الواقع ان الصعوبات كثيرة أبرزها البرد الشديد، القطاعات الثلجية الضخمة المتحركة، الليل الشتوي الطويل. مع ذلك بدأت محاولات بلوغ القطب الشمالي منذ القرن السادس عشر. اما القطب الجنوبي فتأخرت محاولات بلوغه.

كان الابحار في المياه القطبية شديد الخطورة، يدل على ذلك اختفاء السفينة (فرانكلين) عام ١٨٤٧، وكارثة السفينة (جانيت) عام ١٨٨١، وهي التي حملت بعثة (دولونغ) الأميركية، في سبيل البحث عن طرق إلى القطب.

على أن الراي العام الأوروبي كان إلى جانب القيام بالاستكشافات، رغم الضحايا الكبيرة، مما شجع على «السباق الحثيث» إلى القطب.

البريطانية عن كل محاولة تجاه تلك الأصقاع. بينما بدأت بعثات روسية تستكشف فعرفوا شواطىء المحيط المتجمد السيبرية.

بلغ الدانمركي بيرنغ، الذي عمل لدى بيرلوغران، المضيق الذي يفصل أميركا عن آسيا، وقد سمي باسمه.

عاود البريطانيون البحث عن طريق شمالية غربية غداة حروب الثورة والامبراطورية. وقاد اختفاء جون فرانكلين عدة بعثات، إلى أرخبيل كندا الشمالية، وقد أحرزت تقدما حاسما في مجال معرفة تلك المناطق، التي انطلقت منها الحملة الظافرة على القطب. فقد فرض بلوغه خيارات ثلاثة بين الطرق: شمال الأرض الأميركية، الطريق التي تعبر مضيف ديفس، وبحر بافن ومضيق سميث الذي يفصل غرونلاند عن أرض إلمير. شمال أوروبا، بدءا من سبيتزبرغ وأرض فرنسوا جوزيف التي اكتشفها عام ١٨٧٣ النمساويان جوليوس فون بيتر، وكارل وبيرتش. شمال شرق آسيا عبر البحار المطلة على شواطىء سيبريا الشرقية. وكانت أفضل اختراقات، تلك التي سلكت الطريقين الأخيرتين.

تقدم البريطاني كونستانتان ج. فيبس، عام ١٧٧٣ شمال سبيربرغ وبلغ درجتي الطول والعرض (٨٠°، ٤٨′) شمالا.

بعد سنوات، بلغ أحد مرافقي بروتون كريغولين، الفيكونت دوباجس، درجة (٨٢°) شمالا. البريطاني ويليام سكورسبي بلغ (٨١°، ٣٠′) شمالا. عام ١٨١٧ توقفت سفينتا دوروتي وقائدها ديفيد بوشان، وترنت ويقودها جون فرنكلين، توقفتا بسبب قطاعات الثلج المتحركة، التي يبدو أنها تمنع كل محاولة وصول إلى القطب. كان لا بد لبلوغ القطب من ترك السفن في مكان صالح للرسو، وأن يمضي المستكشفون



□ مساحات من الجليد في القطب الشمالي.

سيرا، أو بوسائط الزحافات وما أشبه مما يصنع خصيصا لمثل هذه الرحلات.

عام ١٨٢٧، ترك وليام إدوارد باري انكلترا، على سفينة هيكلا. ثم ترك سفينته شمال سبيتزبرغ، وحاول التقدم على قطاع ثلجي متحرك، يجعل سطحه غير الثابت السير عليه صعبا جدا. وعندما أدرك أن المسافة التي قطعها، بعد بذل جهود جبارة، ألغيت تماما بسبب انجراف القطاع، قرر أن يتوقف بعد أن وصل إلى درجتي (٨٢°، ٤٥′) شمالا.

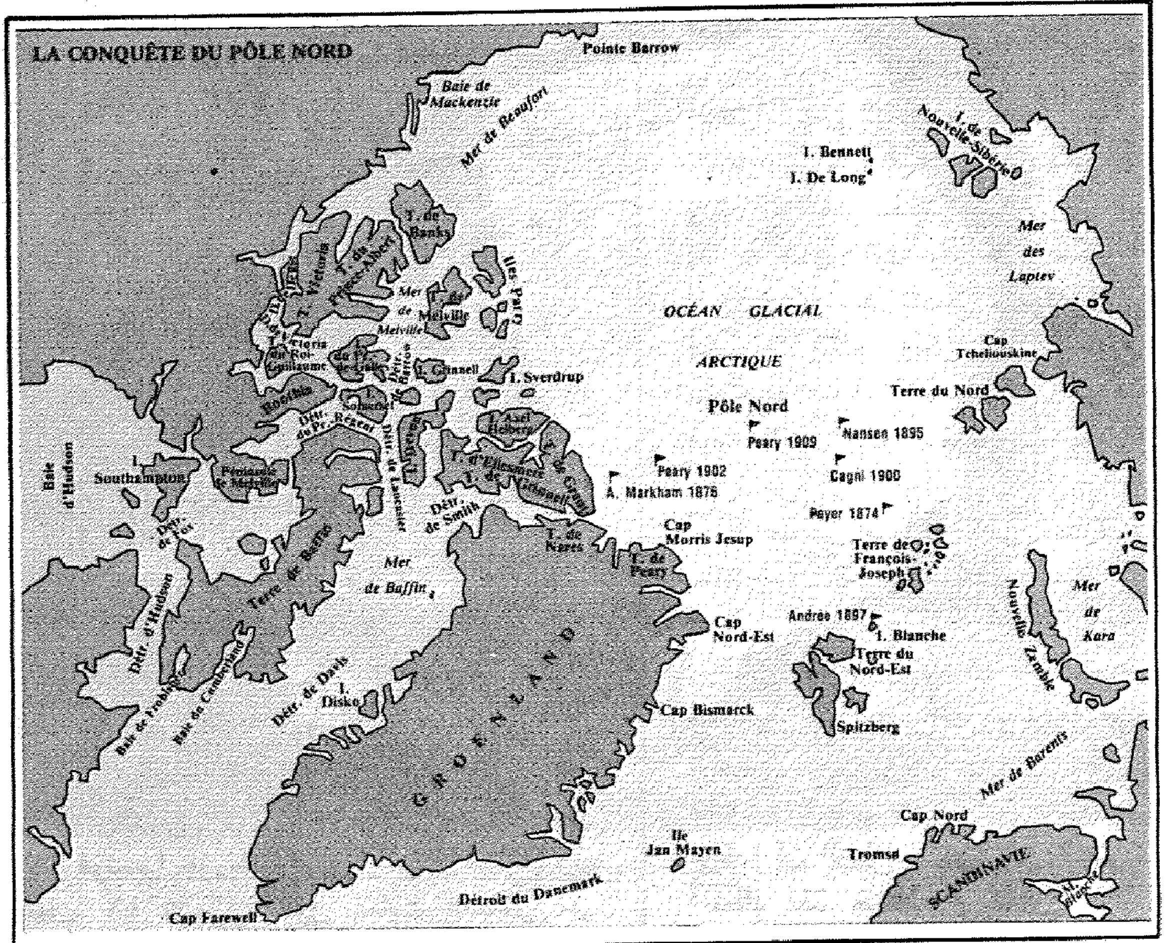
عام ١٨٦٩ ــ ١٨٧٠، تقدمت الجرمانيا، سفينة الألماني كارل كولدوي إلى شواطىء غرونلاند، وبلغت مضيق بيسمارك، ولكنها لم تستطع التقدم شمالا. عام ١٨٧٢، فشلت حملة السويدي نوردن سكيولد، فشلا ذريعا، وكانت تنوي التقدم نحو القطب. بزحافات تجرها وعول.

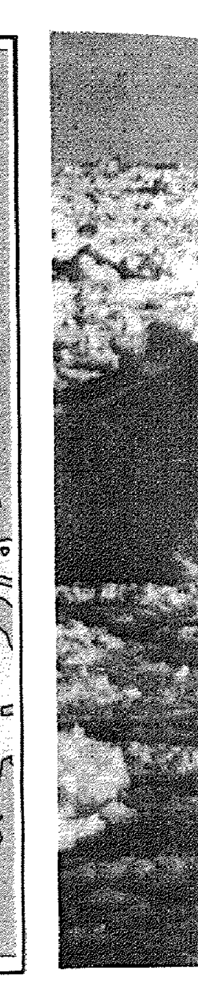
الأشهر التالية بلغ النمساويان بير وويبريشن بسفينتهما نيغتوف أرض فرانسو جوزيف، واندفعا بالزحافات إلى درجتي (٨٢°، ٥٠′) ش.

عام ١٨٧٩ قاد الليوتنان دولونغ، من مضيق بيرنغ حملة مولها غورون بينيت، مالك النيويورك هيرالد. وسرعان ما حوصر بالثلج، وأصيبت سفينته (جانيت) إصابة فادحة، وظلت هائمة سنتين، قبل أن تتحطم عام ١٨٨١. وقد أهلك فريقه أنه شتا مرتين على مستوى الدرجة (٧٧°) شمالا. حاول الانسحاب صوب مصب اللينا. وقضى الانجراف الثلجي على الجهود الخارقة التي بذلها. وعند ظهرت المياه دمرت العاصفة زورقا، وبلغ الثاني حدود سيبريا، حيث احدى القبائل التي أنقذت ثلث الفريق.

أما فريق دولونغ الذين بلغوا منطقة صحراوية فقد ماتوا الجوع، في محاولة الوصول إلى أرض معمورة.

عثر على بقايا السفينة جانيت على الشواطىء الشرقية من غرونلاند. وكان كولدوي لاحظ أن بقايا حرجية تقدم من سيبريا. كل هذه الدلائل عززت الاعتقاد أن تيارا في المحيط المتجمد يتجه





□ خارطة القطب الشمالي.

صوب الشمال الغربي، مارا شمال أرض فرانسوا جوزيف وسبيتزبرغ. «جوا القطب على الأغلب». ولوحظ أن الحطام الذي وصل شواطىء غرونلاند الشرقية، قد جرف نحو الجنوب بالتيار المحاذي لتلك الأرض الواسعة.

استنتج فريتدريوف نانسن، وهو المعروف برحلاته إلى الشواطىء الغرونلاندية، استنتج «أن كل هذه الملاحظات تقدم برهانا لا يدحض على وجود تيار كبير ينطلق من محيط سيبريا المتجمد، ويصل إلى الشاطىء الشرقي من غرونلاند مارا بالحوض القطبي». لذلك وضع مخططا وهو أن يبلغ «جزر سيبريا الجديدة، ثم يتقدم إلى أبعد حد ممكن نحو الشمال، شاقا معبرا عبر الثلج، ثم يترك التيار يجرف سفينته نحو الشمال الغربي، تيار المحيط المتجمد المنطلق من سيبريا إلى غرونلاند».

صدم طموح مثل هذا المشروع أفكارا كثيرة، ولكن نانسن بدأ العمل رأسا، ليعد لهذه المسيرة الشجاعة في المجهول. كان يردد: «البحث عن نقطة حسابية تشكل القطب، لا تقدم إلا نفعا جزئيا». كان، رغم التنافس الدولي، أو الصراعات القومية، يعتقد أن الارادة وحدها، هي الفاعلة في النهاية. ولا بد أن تدفع بقواك إلى الأبعاد الممكنة، بحثا عن قمة العالم. أضف إلى ذلك ما في المحاولة من رد اعتبار للنفس، وارضاء غرور.

بنى نانسن سفينة فرام، لتكون مقاومة لعوامل الطبيعة، وأعد للرحلة بعناية فائقة، وترك كريستيانا (أوسلو) في حزيران ١٨٩٣.

دخل بحر كارا في آب. وبلغ رأس تشيليوسكين، وفي نهاية أيلول حاصرت كتل الثلوج السفينة. وكان الانجراف نحو الشمال خلال الشتاء بطيئا جدا. في شهر شباط، والحرارة خمسون درجة تحت الصفر، بلغت السفينة درجة العرض (٨٠°). وظهرت الشمس في ١٦ شباط، بعد ليل دام ١١٢ يوما. ولكن تحرك السفينة ظل بطيئا. وحسب نانسن أن التقدم إن ظل على هذه الوتيرة، فإنه لن يصل



□ نانسن احد المخاطرين في بلوغ القطب.

غرونلاند إلا بعد ثماني سنوات.

وقرر: «عدم النشاط هذا يثير الغضب. وأرى ألا بد من تمارين قاسية. وأن يترك الانسان نفسه لقوى الطبيعة العمياء تقوده، دون أن يتدخل، يستلزم طاقة تفوق طاقة القتال عشر مرات». الربيع التالي، بعد شتاء آخر، تخطى أرض فرنسوا جوزيف. فقرر أن يتجه مباشرة إلى القطب ١٦ تشرين الأول غابت الشمس من جديد، وكان عليه أن يشتو شتاء آخر بعد أن بلغ درجة العرض (٨٢°) شمالا.

نانسن يفشل على طريق القطب

الخامس من كانون الثاني ١٨٩٥، وسط ليل قطبي، أوشكت سفينة فرام أن تطحن تحت كتلة ضخمة من الثلج. ولكنها قاومت الضغط، فيما كان بحارتها قد أخلوها.

١٤ آذار، بلغ نانسن درجة العرض (٨٤°). فمضى مع جوهانسن في الزحافة نحو القطب: «كانت رحلة طويلة خطرة، لم يسبق أن غامر بشر بمثلها. ولم يكن لدينا أي خط للرجعة. وفي أثناء تقدمنا نحو الشمال، كانت فرام تتابع انجرافها. لذلك كان مستحيلا لقاؤها. ولم يكن لنا إلا أن نتابع المسير إلى الأمام. وكان البرد شديدا (٤٤ تحت الصفر). وكانت الأرض المليئة بالمفاجآت تحول دون التقدم».

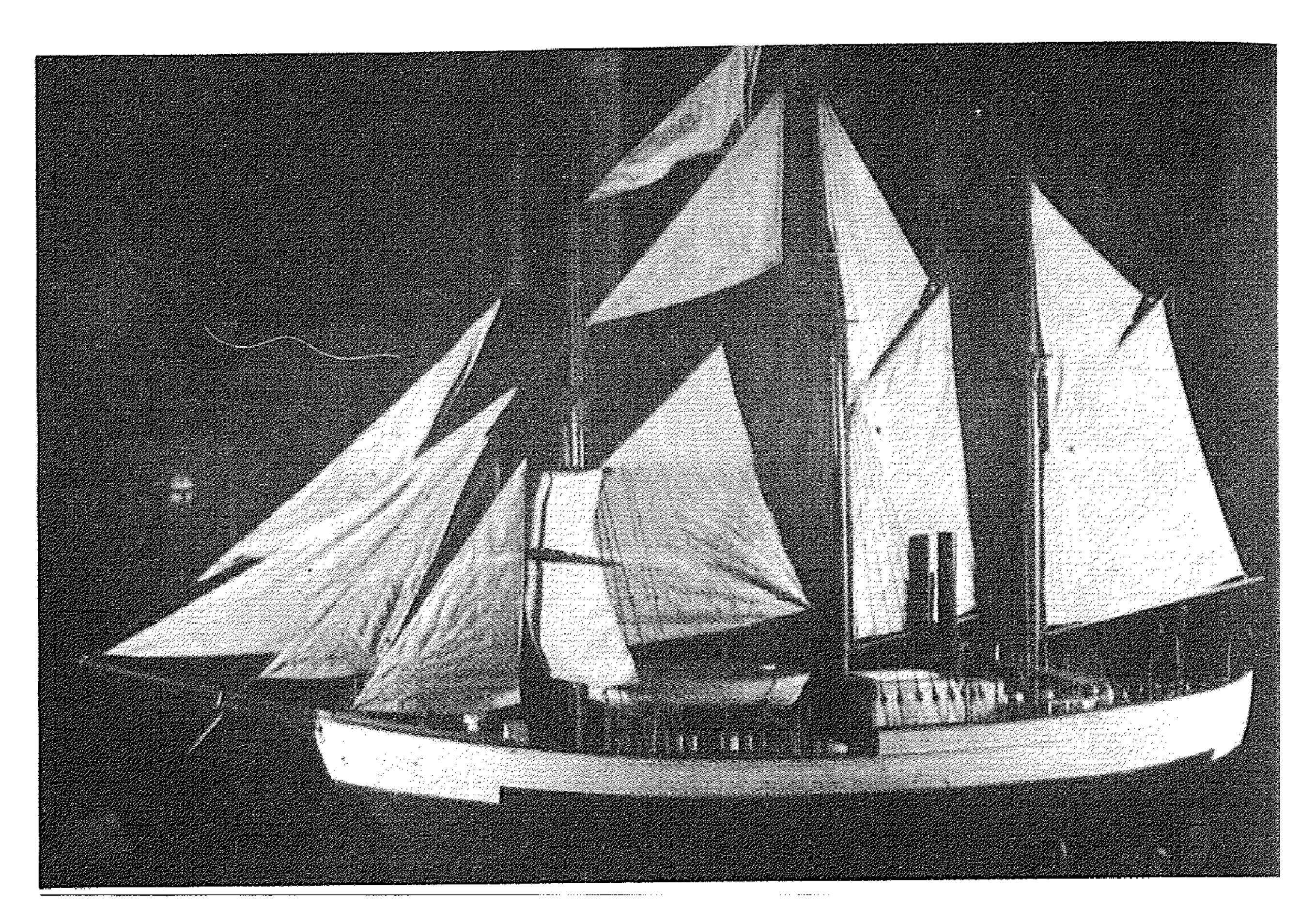
الثامن من شباط قرر نانسن ورفيقه أن من المستحيل التقدم، وقد أرهقت قوى الطلاب، وعزما على العودة إلى رأس فلايجلي، شمال أرض فرانسوا — جوزيف. وبلغا درجة العرض (٨٦°) ودرجة الطول (١٤′)، مسجلين رقما قياسيا في الاقتراب من القطب. وكانت العودة خطرة مع قدوم الشتاء. وكان لا بد من ذبح الكلاب لأكلها، وقتل الفقمات تجنبا للجوع. ولم يصلا الأرض إلا في شهر آب. ولم تكن ممكنة العودة إلى النروج، فاضطر نانسن ورفيقه إلى قضاء شتاء آخر بين الثلج. ولكن، بعد أسابيع كان اللقاء ببعثة بريطانية، أتاحت لهما العودة إلى النروج. فيما كلف «أوتو سفردروب» بقيادة فرام إلى سبيتزبرغ.

في طريق العودة التقى بحارة فرام بفريق سالومون أندريه، الذي أعد منطادا لبلوغ القطب.

كان سالومون يجهل كل شيء عن الرياح القطبية. كان يقدر أنها ستدفعه من الجنوب إلى الشمال، على مسافة ١١٠٠ كم وعلى خط مستقيم. نصح سفر دروب بعدم القيام بالرحلة، مؤكدا أن الرياح لا تهب من الجنوب. ولكن قائد المنطاد نفذ خطته في تموز ١٨٩٧، بمنطاده (النسر). وجدت بقايا من النسر بعد أشهر من ذاك. وعام ١٩٣٠ اكتشفت الباخرة النرويجية براتفاغ جثة أندريه. وكان فريقه بعد أن بلغ الجزيرة البيضاء، على بعد ٨٠٠ كم من القطب، قد قرر قضاء الشتاء فيها. ولكنه لم يحمل معه ثيابا كافية، فمات جميع أفراده من البرد والجوع.

١٨٩٨ حاول الأميركي والترويلمان، ولكن تحطم فخذه حال دون تجاوزه الدرجة (٨٢°).

السنة التالية قامت محاولة الايطاليين. وأولهم لويس — آميدي دوسافوا، دوق أبروز، وابن عم الملك فكتور عمانوئيل الثالث. وقد قرر أن يمضي إلى القطب من طريق أخرى، هي شمال الاسكا على الباخرة «النجمة القطبية». بلغ رأس فلايجلي. ثم شتا في خليج تبليتز. ومن هناك، في الربيع التالي أبحر القبطان أمبرتو كانيي مع تسعة رفاق، وخمسة وأربعين كلبا. وقد بترت أصابع كف دوق أبروز اليسرى فلم يستطع المساهمة في الحملة على القطب. انقسم الرفاق إلى فريقين، ضاع أحدهما في طريق العودة. ولما حالت الثلوج دون استمرار كانيي، قرر العودة



□ الباخرة فرام التي استخدمت اكثر من مرة في مغامرات بلوغ القطب.

بعد أن حطم الرقم القياسي الذي حققه نانسن، فقد بلغ الدرجة (٣٤′، ٨٦°).

محاولة بيري

فشلت محاولتان أميركيتان في السنوات التالية. في هذا الوقت كان الأميركي بيري يعد محاولته.

منذ أن اكتشف بافن مضيق سميث، لم يحاول أحد السير على نفس الخط. فكل المحاولات سلكت طريق لانكستر، لتجد في النهاية الطريق الشمالية الغربية. والمحاولات عديدة، منذ ١٨٥٢، ولكنها فشلت جميعا، وانتصر أخيرا الضابط البحري الأميركي روبرت إدوين بيري.

قضى سنة مع الاسكيمو في مضيق سميث، العام ١٨٩١ ـ ١٨٩٢، مع خادمه الأسود ماتيو هانسن. ثم رحل إلى شواطىء غرونلاند، ثم عاد إلى الولايات المتحدة وأطلع الجمعية الجغرافية الأميركية على مخططه، الذي يقضي بإقامة قاعدة على مستوى قناة روبسن. وأن يصحبه بعض من السكان المحليين.

بدأ الرحلة على الباخرة وندرود، التي عادت بنانسن، وبلغ إيلسمير، وبلغ الأرض التي حملت اسمه، وعمّد رأس موريس جيزوب، وهو اسم رئيس نادي (بيري أركتيك كلاب).

وصل عام ١٩٠٢ الدرجة (١٧′، ٨٤°). ومن أجل بلوغ القطب كان عليه أن يجعل قاعدة الانطلاق متقدمة.

ولكنه رأى أن الباخرة وندرود غير قادرة على التحمل. فاستخدم الباخرة تيودور روزفلت. عام ١٩٠٦ فشلت محاولة جديدة. عام ١٩٠٨ وصل بيري الدرجة (٠٦′، ٨٧°)، وترك الباخرة روزفلت، ومضى أواسط شباط بالزحافات، استراح في مخيم كولومبيا، ثم تابع رحلته. الثالث عشر من آذار كانت درجة الحرارة (٥٥) تحت الصفر. تقدم فريق لفتح الطريق، وإقامة مراكز استراحة لأولئك الذين يبذلون جهودا كبيرة. كان الطقس مؤاتيا، ولكن رفاق بيري من الأوروبيين كانوا يكرون عائدين، خوفا من نقص المؤن.

٣٠ آذار لم يبق مع بيري وهانسن إلا أربعة اسكيمو، وأربع زحافات، وأربعين كلبا.



□ سكوت قبل موته.



□ بيري قاهر القطب الشمالي.

أصبح الثلج مسطحا. الخامس من نيسان بلغت البعثة الدرجة (٢٥′، ٨٩°). قطعت أكثر من خمسين كيلومترا في أقل من نصف نهار. اليوم التالي وصل بيري القطب وحقق الانتصار الأول في التاريخ، وكتب بيري: «أخيرا بلغنا القطب، حلمي وهدفي منذ عشرين سنة. أخيرا القطب لي».

منذ السابع من نيسان، كر الرجال عائدين، وكانوا يمضون كل يوم ست عشرة ساعة سيرا، وقد وصلوا مخيم كولومبيا في ٢٣ نيسان.

في هذا الوقت كان فريدريك كوك، الذي ساهم في رحلة بيري (١٨٩١) إلى غرونلاند، وفي رحلة البلجيكي أدريان دوغرلاش إلى الأنتاركتيك، كان فريدريك كوك يقوم برحلة نحو القطب بدأت عام ١٩٠٧. ثم استأنف الرحلة عام ١٩٠٨ في شباط. ثم ظهر ثانية عام ١٩٠٩، الثامن عشر من نيسان، أي قبل بيري بأسبوع، ومعه اثنان من الأسكيمو. ولكنه فقد كلابه وزحافاته. فأضاع وقتا كبيرا. التقى السفينة روزفلت في نيسان ١٩٠٩. وقد زعم أنه بلغ القطب قبل بيري، ولكن تبين أن روايته فيها الكثير من المزاعم.

ارتياد القطب الجنوبي

كان القطب الجنوبي أقل خطورة من الشمالي الذي بدأت الرحلات نحو قبل الأول بكثير. فلم تبدأ الحملات إلى الجنوبي إلا القرن الثامن عشر.

من أوائل من حاولوا، الأيكوسي الكسندر دالريمبل. ثم جان باتيتس بوفيه، ثم عام ١٧٧٢ مالوان ماريون دو فريسن الذي بلغ جزر كروزي. واكتشف بروتون كرغلويلن الجزر التي تحمل اسمه.

وقام جيمس كوك بمحاولة عام ١٧٧٤، فبلغ درجة (١٦′، ٧١°) جنوبا، عام ١٨٣١ أدرك جون بسكو أرض إيدربي. ١٨٣٣ بلغ بيتر كامب سواحل إيدربي.

ومع ذلك، وحتى عام ١٨٤١ لم يتجاوز أحد الدرجة (٢٠′، ٧٤°) جنوبا. غير أن المحاولات



□ سكوت يبلغ القطب مع رفاقه.

استمرت. ومن أشهرها رحلة روس التي ساعده فيها النرويجي روالد آموندسن، والبلجيكي دوغرلاش.

رحلة سكوت الأولى

عام ١٩٠١ قام البريطاني روبرت فالكون سكوت برحلته الأولى على الباخرة ديسكفري. وفي الوقت ذاته قام الألماني البروفسور فون درايغالسكي.

بلغ سكوت مع بداية ١٩٠٢ مضيق ماكموردو، عند قدمي البركانين ايربوس وتيرور، ثم انطلق نحو القطب مع إرنست شاكلتون والدكتور ويلسون، وبلغوا الدرجة (١٧′، ٨٢°) جنوبا. وكانت العودة شاقة فلم يصلوا الباخرة ديسكفري إلا عام ١٩٠٣. شتا سكوت مرة ثانية في طريقه إلى القطب الجنوبي، ودرجة الحرارة (٥٥) تحت الصفر.

أما الرحلة الألمانية فبلغت شاطىء غيوم الثاني، وعادت إلى أوروبا عام ١٩٠٣. وتعددت الرحلات التي كانت أشبه بالمحاولات التجريبية، حتى كان عام ١٩٠٩. انطلق هذا العام من انكلترا، آب ١٩٠٧ على الباخرة نمرود، الأرلندي ارنست شاكلتون، واصطحب معه خيولا (بونية) وتراكتور. في نهاية شباط ١٩٠٨ حط الرحال في مضيق ماكموردو، وعادت السفينة نمرود وحدها.

اقام شاكلتون مخزنا للأطعمة على بعد ٢٠٠ كيلومتر من نقطة الاشتاء. نهاية تشرين الأول، بدأ الرحلة الخطرة. ففي بداية كانون الأول ماتت الأحصنة جميعا. فراح الرحالة ورفاقه يجرون بأنفسهم، فلا يقطعون في اليوم أكثر من خمسة كيلومترات. يوم الميلاد كانوا على ارتفاع ٢٨٥٠ مترا، وعلى بعد ٥٠٠ كيلومتر من القطب.

السادس من كانون الثاني بلغوا الدرجة (٠٨′، ٨٨°). وأقاموا مستودع تموين. كانت الريح تهب بسرعة ١٣٠ كلم في الساعة. ودرجة الحرارة (٤٠) تحت الصفر. واجهتهم عاصفة ثلجية أرهقتهم.


Le Petit Journal

LE PLUS RÉPANDU, LE MIEUX RENSEIGNÉ

LES ENTREVUES DE SOUVERAINS

GUILLAUME II ET ÉDOUARD VII

ENCORE UN AUDACIEUX

AU POLE NORD EN BALLO

Formidable Incendie

A IVRY-SUR-SEINE

UN ATTENTAT

LES ÉVÉNEMENTS DU MAROC

LE GÉNÉRAL DRUDE À CASABLANCA

□ جريدة لو جورنال. الثلاثاء ١٣ آب ١٩٠٧.

اضطروا إلى العودة بسبب البرد والديزانتري، ونقص المؤن، فبلغوا قاعدتهم الأولى في الأول من آذار. لقد فشل شاكلتون وهو على مسافة غير كبيرة من القطب.

مباراة سكوت ــ أموندسن

آب، عام ١٩١٠، اتجه أموندسن على الباخرة فرام نحو القطب الجنوبي. وبلغ خليج الحيتان عام ١٩١١. أقام قاعدة المشتى. وذبح عددا كبيرا من الفقمات، وحفظ لحمها في المستودع.

وكان كلما قطع مسافة أقام مستودعا للمؤن. كانت درجة الحرارة في الشتاء (٦٠) تحت الصفر. انطلق مع أوائل أيلول، ولكن كلابه لم تكن لتحتمل حرارة أقل من خمسين درجة تحت الصفر. لذلك لم تبدأ الرحلة جديا إلا في العشرين من تشرين الأول ١٩١١.

قطع المنطقة التي بلغها روس من قبل، في السابع عشر من تشرين الثاني. جعل مراحل السير كل ست ساعات مرحلة ينام بعدها مع رفاقه مثلها، ثم يستأنف السير. وكان عليه أن يتسلق جبالا يبلغ ارتفاعها ثلاثة آلاف متر.

الثامن من كانون الأول تخطوا مرحلة شاكلتون. الرابع عشر منه حطوا الرحال في القطب.

كانت طريق العودة ميسرة. وقد ساعدهم على تحملها مخازن المؤن التي تركوها من قبل. الخامس والعشرين من كانون الثاني بلغوا نقطة الاشتاء، حيث كانت تنتظرهم الباخرة فرام.

كان روبرت فالكون سكوت، قد نهض من انكلترا نحو القطب الجنوبي، قبل أموندسن بشهرين. وبلغ مضيق ماكموردو في كانون الثاني ١٩١١. أقام قاعدة الاشتاء، ومخازن للمؤن. على أن الطقس السيء أزعج البريطانيين، الذين فقدوا الكثير من أحصنة (البوني).

علم سكوت أن أموندسن على الطرف الثاني من خليج الحيتان، فقرر الاسراع قبله نحو القطب. وبدأ المسير في ٢٧ تشرين الأول ١٩١١، ليقطع ١٣٧٠ كم تفصله عن القطب.

لم يكن يتقدم أكثر من ١٥ كيلومترا في اليوم. وكان الطقس يعاكسه ورفاقه. وماتت كل الأحصنة. وكان عليه تجاوز الكتلة الثلجية (بيردمور) وهو يجر مع رفاقه الزحافات. الواحد والعشرين من كانون الأول أطل على الهضبة القطبية. فسار مع أربعة من رفاقه، بمعدل (٢٤) كيلومترا في اليوم، يصحبه القبطان واتس، والدكتور ويلسون، والملازم بوير، وصف الضابط إيفانس. السابع عشر من كانون الثاني بلغوا القطب فوجدوا النروجي أموندسن مغروسا هناك.

كانت العودة صعبة جدا بسبب قدوم فصل الشتاء، ومرض إيفانس، السادس عشر من آذار تجلدت أطراف واتس. وخاف أن يعوق رحلة رفاقه فيعرضهم للخطر، فتركهم ومضى إلى المجهول. أما الثلاثة الباقون فراحوا يقاومون العواصف، وهم على علم أن مخزن المؤن غير بعيد.

ولكن العاصفة كانت تشتد، وتحرمهم المقاومة. وقد ماتوا واحدا بعد الآخر. وظلوا هناك جثثا هامدة، حتى ١١ تشرين الثاني التالي، حين قام رفاقهم الذين ظلوا في مضيق ماكموردو بالبحث عنهم، فوجدوا جثثهم في خيمة من مخيم (وان توم كامب).

وقد ترك سكوت قبل موته عدة رسائل، جعلتها السلطات البريطانية، نموذجا يقرأ على كل الطلاب، يصور الشجاعة، والصبر والجلد. ●

كتب وردتنا

- **الإنسان العربي والعلم**
  دار الآفاق الجديدة ـــ بيروت .... سمير عبده
- **برمجة الموثق في عملية التوثيق**
  دار الآفاق الجديدة ـــ بيروت .... د. محمد قبيسي
- **مدارس دمشق في العصر الأيوبي**
  دار الآفاق الجديدة ـــ بيروت .... د. حسن شميساني
- **الموضوعية والتحليل في البحث الاجتماعي**
  منشورات دار الآفاق الجديدة ـــ بيروت .... د. معن خليل عمر
- **الحياة وعجائبها**
  منشورات دار الآفاق الجديدة ـــ بيروت .... اميل خليل بيدس
- **الأنا وأواليات الدفاع**
  دار الطليعة ـــ بيروت .... آنا فرويد
  ترجمة: جورج طرابيشي
- **تاريخ الفلسفة ـــ الجزء الثالث**
  العصر الوسيط والنهضة
  دار الطليعة ـــ بيروت .... اميل برهييه
  ترجمة: جورج طرابيشي
- **الرجولة وايديولوجيا الرجولة في الرواية العربية.**
  دار الطليعة ـــ بيروت .... جورج طرابيشي
- **الأسس النظرية لعلم الاجتماع السياسي.**
  دار الطليعة ـــ بيروت .... د. محمد فايز عبد أسعيد
- **الارهاب السياسي**
  بحث في أصول الظاهرة وأبعادها الانسانية
  دار الطليعة ـــ بيروت .... د. ادونيس العكره
- **التراث العربي المجلد الأول**
  التذكرة الحمدونية
  معهد الانماء العربي .... تصنيف: ابن حمدون
  تحقيق: د. احسان عباس

معركة بواتييه

أو بلاط الشهداء

١١٤هـ - ٧٣٢م

هلا طبارة

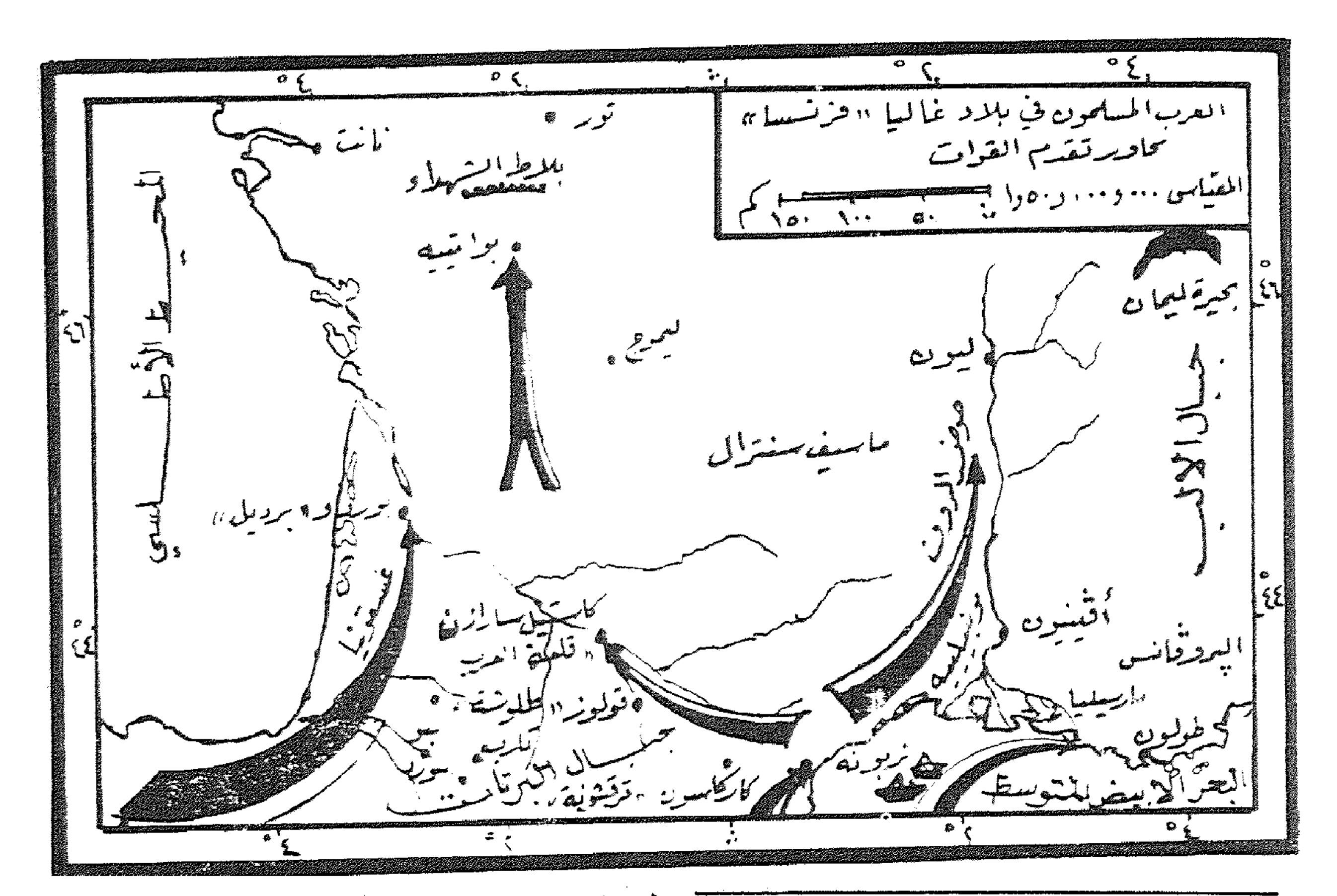
هذه هي المعركة التي دارت في أواسط فرنسا عند فرعي نهر «اللوار» في العام ٧٣٢م (١١٤هـ) بين جيش المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقي وجيش الفرنجة بقيادة شارل مارتيل وانتهت بانسحاب جيش المسلمين. فكانت خاتمة المعارك واخر محاولة لحمل رسالة الاسلام الى الأمم الاوروبية.

معركة بلاط الشهداء في التاريخ



تطرح هذه المعركة المشهورة التي تلعب دورا هاما في التاريخ الاسلامي عدة تساؤلات، منها: المسؤوليات التي القيت على عاتق قادتها، والتفسيرات الدينية والعقائدية والسياسية والجغرافية والبشرية التي اعتمدت، كما تطرح تفسيرات جذرية عن المصالح والعقليات في تلك الحقبة من التاريخ، ومنها التناقضات والاختلافات الشاسعة في تقييم هذه المعركة ونتائجها بين المؤرخين القدامى والمحدثين من عرب واجانب فيما نجد ان بعض المؤرخين العرب امثال ابن الاثير والمقري وابن خلدون، وامثالهم يذكرون احداث هذه المعركة باختصار، ونجد ان المؤرخين الاجانب يعتبرونها من معارك التاريخ الحاسمة التي بلغت بقائدها شارل مارتيل مرتبة «القداسة».

وقد حذا بعض المؤرخين العرب المحدثين حذو القدامى، فاعتبرها البعض من معارك التاريخ الحاسمة بحيث انها اوقفت التقدم العربي ـ الاسلامي في اوروبا في حين اعتبرها البعض الآخر مماثلة لغيرها من المعارك في اهدافها ومسيرتها ونتائجها. فلكل من الفريقين وجهات نظره ومبرراته واجتهاداته.



الحكم العربي في الاندلس

تعاقب على حكم الاندلس بعد مقتل عنبسة بن سحيم الكلبي ستة من الولاة لم تتجاوز مدة ولايتهم الاشهر القليلة باستثناء يحيى بن سلمة الكلبي الذي تجاوزت مدة ولايته السنتين، الامر الذي لم يسمح لهؤلاء الولاة بوضع المخططات وبمتابعة مسيرة الغزو في فرنسا الى ان اختير عبد الرحمن الغافقي واليا. فما ان انتهى من الاصلاحات الادارية واعادة تنظيم الجيش حتى حشد الطاقات وانطلق بجيشه الى فرنسا، بعد ان اختار محورا جديدا لهجومه متخذا بامبلونا قاعدة له.

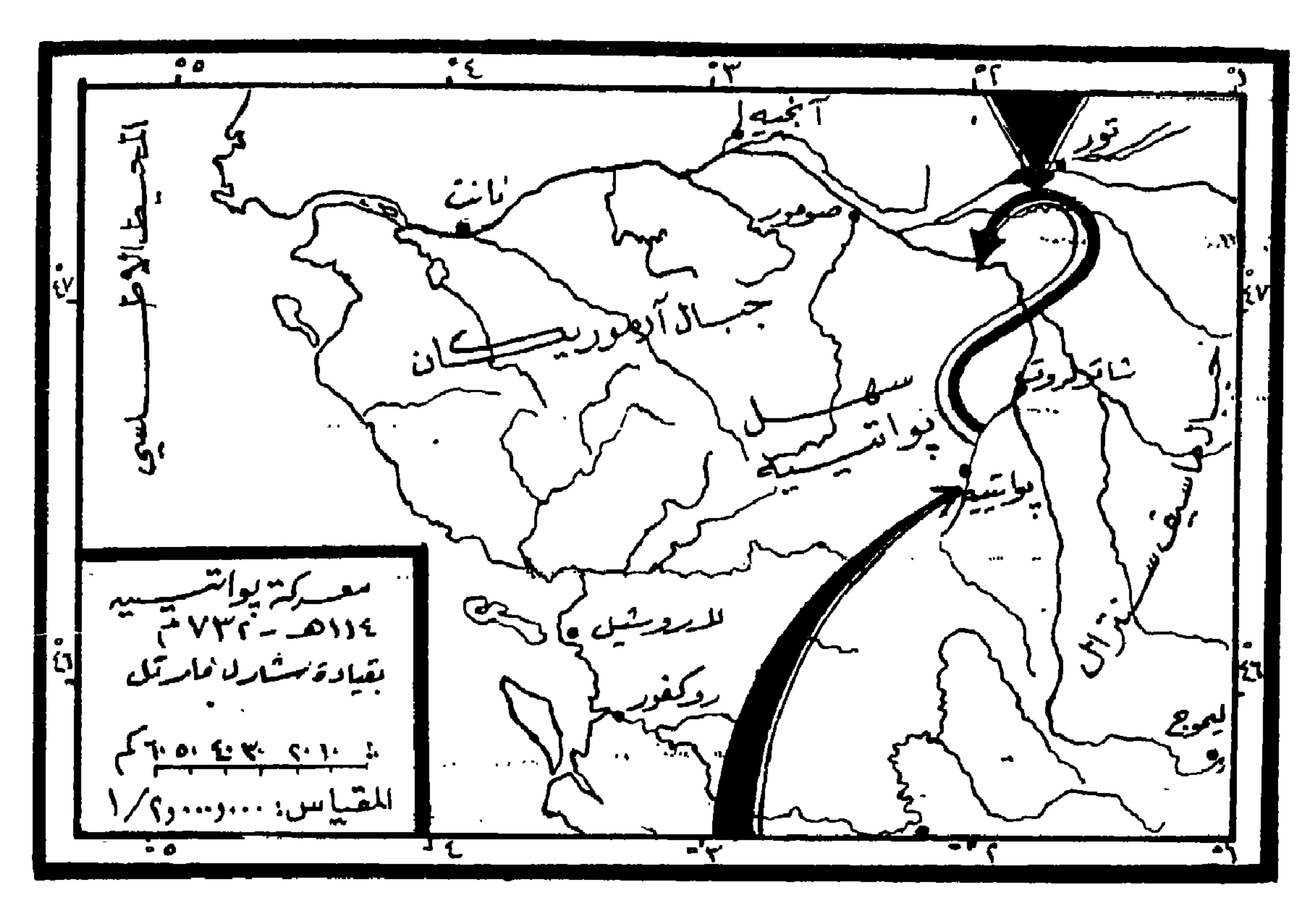
ومما يلفت النظر في هذه المعركة، ان عبد الرحمن الغافقي، اعظم الولاة في عصر الدولة الأموية، كلف قيادة اعظم واخطر حملة اسلامية سيرت لفتح فرنسا، كما انه يعتبر بحق من اعظم قادة العرب المسلمين والفاتح المسلم الذي وصل الى اقصى ما وصلت اليه الفتوحات الاسلامية في قلب القارة الاوروبية.

ومن المؤكد ان معركة «بواتييه» (عاصمة بواتو من مقاطعة فيين) تعتبر من المعارك المصيرية التاريخية الحاسمة في تاريخ اوروبا التي دارت بين الجيوش العربية والجيوش الافرنجية، وبين الشرق والغرب، وبين الاسلام والمسيحية، فقد وضعت هزيمة الجيوش الاسلامية فيها حدا لفتوحاتهم في اوروبا، فكانت بداية صدهم وتوقفهم عند الاندلس.

لقد عرفت هذه المعركة عند مؤرخي الغرب بمعركة «بواتييه» و «تور»، في اواسط فرنسا عند فرعي نهر «اللوار» (كلين وفيين) وعند مؤرخي المسلمين بمعركة «بلاط الشهداء» وذلك نظرا الى كثرة من استشهد فيها من القادة المسلمين من عرب الاندلس.

الحوادث التي سبقت المعركة

بعد ان سادت دعوة الاسلام من السند شرقا الى المحيط الاطلسي، وبعد ان افتتحت الجيوش الاسلامية شبه الجزيرة الاسبانية، عبرت جبال «البيرينيه» (البرتات او البرت كما سماها العرب). وكان حاكم ولاية البيرينيه الغربية رجلا يدعى «منوزا» او مونن» (أو مونوسه)، وكان زعيما مسلما ثائرا من البربر. وكان الدوق اودو امير ولاية «اكوتين» الفرنجية يرقب الفرص بعين



ساهرة لاحداث ثغرة في صفوف المسلمين. فاتصل سرا «بمنوزا» وعقد معه محالفة سرية وزوجه ابنته «لامبجيا». وعندما بلغ عبد الرحمن الغافقي ما قام به منوزا ووقف على مشاريع «اودو»، شن حملة قوية على منوزا وهزمه في معركة جرت بين نهري «الجازول» و «الدودوي» مما اجبر فلول جيش الفرنجة على التقهقر نحو الشمال. وعندما بلغ الدوق «اودو» مقتل حليفه المسلم وهزيمة جيشه، اخذ يستعد ويتأهب للدفاع عن مملكته، وبدأت القوات القوطية والافرنجية تهاجم القواعد الاسلامية في الولايات الشمالية. ولما شعر عبد الرحمن الغافقي بالخطر الذي بدأ يهدد الولايات الشمالية ويهدد الاندلس، سار في اوائل شهر رمضان عام ١١٤هـ الموافق شهر تشرين الاول (اكتوبر) عام ٧٣٢م في جيش ضخم ضم الكثير من عرب وبربر واعتبر اعظم جيش سيره الفاتحون المسلمون الى فرنسا فاجتاز به سلسلة جبال «البيرينيه» من منطقة باب ــ شرورا (ممرات رونسيفال). وهكذا دخلت الجيوش الاسلامية فرنسا حاملة رسالة الاسلام. ومن ثم تابع عبد الرحمن الغافقي زحفه باتجاه امارة «اكويتين» الواقعة جنوب غربي فرنسا. وتمكن من الاستيلاء على العاصمة «بوردو» (بردال بالعربية) على نهر «الغارون» بعد معركة قصيرة دارت بينه وبين اودو، دوق اكويتين، انتصر فيها عبد الرحمن الغافقي.

ثم تابع الجيش الاسلامي تقدمه بعد ذلك شرقا نحو نهر «الرون» مخترقا ولاية «بورجونيه» وتمكن من الاستيلاء على «ليون» و «بوزنصون» كما تمكنت سراياه من الوصول الى «صانقي» التي تبعد عن باريس نحو مائة ميل. ثم اتجه عبد الرحمن وجيشه غربا الى ضفاف نهر اللوار وبذلك تم له فتح نصف فرنسا الجنوبي من الشرق الى الغرب.

تفاصيل المعركة

وصل عبد الرحمن الغافقي في زحفه الى السهل الواقع على ضفاف نهر «اللوار» جنوبي مدينة «تور» دون ان يلقى مقاومة تذكر، وكان محور مسيرته بيغور وبيارن وتارب واوليرون. فاستنجد «اودو» بزعيم الافرنج الكبير شارل

مـارتيل (أي شـارل المطرقـة) فقاد الجيـوش الافرنجية التي ضمت مختلف العشائر الجرمانية والافرنجية واتجه نحو تور لملاقاة عبد الرحمن الغافقي والجيوش الاسلامية المتقدمة. فوصلها قبل وصول عبد الرحمن اليها. ثم تابع زحفه حيث التقى بطلائع المسلمين وقواتهم المتقدمة على مسافة عشرين كيلومترا الى الشمال الشرقي من بواتييه. وعندما رأى عبد الرحمن جحافل الجيوش الافرنجية بقيادة شـارل مارتيـل اثر الارتداد من ضفاف النهر الى السهل جنوبي مدينة تور. غير ان شارل مارتيل عبر بجيشه الضخم النهـر وعسكـر الى يسـار الجـيش الاسلامي وهناك مكث يرقب ويتأهب منتـظرا مبادرة الجيش الاسلامي الى الهجوم. وقد مر اسبوع والجيشان احدهما في مواجهة الاخر. وكان شارل مارتيل قد نظم قواته عـلى شكل لم يمكن سهام العرب من احراز اي نصر منذ بداية المعركة.

وفي اليوم التاسع، أعاد عبد الرحمن الغافقي تنظيم قواته وانطلق بهجوم قوي سـاحق على جيش الافرنجة المتمركز حيث دارت رحى معارك ضارية استمرت عشرة ايام. وعندما بدأت بشائر النصر تلوح اصابه سهم فسقـط عن جواده، وتمكنت القوات الافرنجية في نهاية المعركة من التسلل الى مؤخرة المعسكر الاسلامي ومهاجمته وانزال الهزيمة به. ولما علم الجند بـاستشهاد قائدهم دب الذعر واضطروا الى الانسحاب تحت جنح الليل جنـوبا متجهـين نحو قـاعدتهم في سبتيمانيا.

وقد اسفرت هذه المعارك عن استشهاد الاف الجنود في ساحة المعركة من القادة والابـطال المسلمين.

ونظرا للصعوبات في التأريخ لتلك الفترة، فان تقديرات المؤرخين الغربيين والمؤرخين العـرب بالنسبة الى خسائر الجيشين تختلف كثيرا ولذلك اثرنا عدم ذكرها. وقد تم انسحاب المسلمين من فرنسا نهائيا عام ٧٥٩م.

الاسباب الرئيسية للهزيمة

١ ــ الانهاك والارهاق الذي حل بالجيوش الاسلامية بعد اشهر طويلة كانت مليئة ومشحونة بالمعارك والغزوات والحروب المتلاحقة المستمرة والمسافات الشاسعة التي عبروها.

٢ ــ انهماك وانشغال الجند بالغنائم العظيمة التي استولوا عليها وصعوبة حملها ونقلها.

٣ ــ بعدهم عن قاعدتهم مما حال بينهم وبين الحصول على الامدادات.

٤ ــ أخطاء الطلائع الاسلامية في تقدير عدد جيش الافرنجة وعدته.

٥ ــ المفاجأة التي فوجيء بها عبد الرحمن الغافقي بجيش الافرنجة الضخم المتمركز عند نهر اللوار بقيادة شارل مارتيل وتصديه له.



ملاحظة

ثمة رأي يقول، ان البربر اغتالوا الغافقي. والسبب انهم طالبوا بالعودة الى مواطنهم بعدالغنائم الكثيرة التي غنموا، لانهم لم يعودوا بحاجة الى غنائم جديدة. ويبدو أنهم وعدوا بالغنائم، فكانت غايتهم من المعركة.

والواقع، أن الغافقي كان منتصرا، ويعد العدة للقضاء نهائيا على جيش مارتل. فلما اغتيل اجتمع القادة وخافوا من مذابح بين العرب والبربر، فقرروا الانسحاب ليلا.

ومن الأدلة على ذلك، أن مارتيل فوجيء بعدم وجود الجيش العربي في اليوم التالي فقرر ارسال جيش لملاحقتهم. وقد بلغهم في البيرينيه، فطوقوه وأفنوه عن اخره. وثمة ملحمة مشهورة حول ذلك!

لغويات

الأبجدية

قسم التوثيق والأبحاث

الأبجدية هي الألف باء أو حروف الهجاء وتسمى أبجدية نسبة إلى ترتيب حروف الهجاء في اللغة اليونانية التي تبدأ بالفا (أ) ثم بت (ب) ثم جاما (ج) ثم دلتا (د)، وهو ترتيب قائم في كافة اللغات الأوروبية ولكن مع اعلال ج إلى C (بقيمة صوتية ك إن كانت جامدة، والأبجدية ارقى وسيلة من وسائل التعبير عن الصوت بالكتابة او بالرمز المرئي. والغرض من ترجمة الصوت إلى رمز مرئي هو تسجيل الكلام بقصد حفظه من الضياع او ايصاله لمن لا يستطيع سماعه بسبب بعده في المكان أو الزمان، وذلك قبل اهتداء الانسان إلى التسجيل الصوتي. وقد عرفت الانسانية وسائل أخرى لترجمة المنطوق إلى مرسوم أو المسموع إلى مرئي، وهي المراحل الاولى من تاريخ الكتابة وبعضها يستعمل حتى اليوم عند بعض الشعوب المتخلفة وعند بعض الشعوب المتقدمة المحافظة على تراثها القديم. وهذه الوسائل من أربعة أنواع:

١ ــ «الكتابة بالصورة» او «البكتوجراف».

٢ ــ «كتابة الفكرة» او «الايديوجراف».

٣ ــ «الكتابة المقدسة» او الهيروغليف، وإن كانت الهيروغليفية في الواقع تدخل في باب الأبجديات.

٤ ــ الكتابة المقطعية وهي مراحل سابقة على ظهور الأبجدية بالمعنى المفهوم.

وهناك ستة شعوب استعملت ما يسمى بالكتابة الانتقالية أو الكتابة الوسطى وهم السومريون والبابليون اصحاب الخط المسماري، والمصريون والحيثيون والصينيون وشعب المايا والازتيك في أميركا. والتغير التاريخي الذي حدث مؤديا إلى ظهور الأبجدية بالمعنى الناقص ثم بالمعنى الكامل من البكتوجراف او الايديوجراف كان بوجه عام أن الصورة الرامزة لشيء ما، كالدين مثلا، اي رسم العين، اصبح يمثل لا العين وحدها ولكن أي صوت «عين» في اي كلمة، كما لو قلت، للتوضيح فقط «رجلين فاردين» فكتبت كلمة «فارعين» برسم فار + رسم عين. امتدت هذه الطريقة في التدوين حتى شملت استغلال صور المعاني المتعددة التي يعبر عنها الصوت الواحد. فلأن العين مثلا تعني العين التي ترى وتعني ايضا نبع الماء كتب الصوت «عين» في اي كلمة احيانا برسم العين التي ترى واحيانا برسم النبع وهكذا. ثم لم تعد الدقة في الرمز هدفا اساسيا إذ قدمت عليها السرعة في الكتابة فلم يكتف برسم عين الانسان للتعبير عن صوت «عين» ولكن استعملت رسوم الأشياء القريبة اسماؤها في النطق من اسم «عين» من باب التيسير والسرعة. وواضح أن الرسم الرمزي كعين الانسان أصبح لا يمثل «الشيء» ولكن مجرد «الصوت»، ثم التقى برسم العين رسما تقريبيا وربما خاطئا من باب السرعة ما دام المراد ليس عين الانسان ولكن مجرد الصوت. ويظن أن هذا سبب ظهور الهيراطيقية ــ وهي كالرقعة أو الكتابة الشخصية ــ من الهيروغليفية أو الكتابة المقدسة المتقنة التي نجدها في نقوش المعابد.

ولكن الأستاذ ففربيه في «تاريخ الكتابة» يعزو ظهور الهيراطيقية إلى تأثير أدوات الكتابة نفسها على مجرى الرسم ودقته ويرى أن دقة الهيروغليفية ناتجة من حفرها بالازميل على الحجر أو نقشها على سطوح ثابتة بأدوات صلبة، أما الهيراطيقية فلم تظهر إلا باستعمال ورق البردى والأقلام البسط وأشباهها من أدوات مرنة لا تعين على استقامة الخطوط ودقة الأقواس ولكن تعين على التصرف والكتابة العاجلة.

وتاريخ الأبجديات الأوروبية المعروفة اليوم يرجع إلى حوالى ١٠٠٠ ق.م. فقط ويستقصى من اقدم النقوش اليونانية. والمشكلة عند العلماء هي حالة الأبجديات الأوروبية قبل تاريخ اليونان المسجل. والبعض يفترض أن الأبجدية اليونانية مأخوذة من الأبجديات السامية ويستدلون على ذلك بتشابه أسماء الحروف اليونانية: «الفا. بيتا. جاما دلتا» (أ ب ج د) باسمائها العربية: «الف. بيث. جميل. دالث»، ولكن ربما كانت هذه التأثيرات دائرية أي بالتناوب او كانت هناك أصول مشتركة أوغل قدما، أصول حامية لا سامية، بل ومصرية على وجه التعيين.

«تي نبش مرء تعيش بر عمرو ملك العرب كله دو اسر التج وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب محجو عكدي وجء بزجي بي حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو وبنن بنيه الشعوب ووكلهن برشو لروم بلم يبلغ ملك مبلعه عكرى هلك ٢٢٣ يوم ٧ بكشلول بلشعد دوولده ذي نفس.

«(ذا قبر) امرؤ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي اسر التاج وملك الأسدين ونزارا وملوكهم (؟) (؟) وجاء (؟) في (؟) نجران مدينة شمر وملك ابنيه ومعد وبنان (على) الشعوب (؟) فرس الروم فلم يبلغ ملك مبلغه (؟) هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ كسلول بالسعد الذي ولده».

(نقش الشاهد على قبر امرؤ القيس).

واقدم نماذج معروفة من الأبجدية السامية حتى ١٩٢٠ كانت النقش المعروف «بحجر مؤاب» وهو نقش للملك ميشا ملك مؤاب في الشام وعمره من القرن ٩ ق.م. ثم نقش اكتشف في قبرص كتب زلفي إلى الاله بعل كبير آلهة لبنان القديمة.

الأبجديات السامية تنقسم إلى سامية جنوبية وسامية شمالية. والسامية الجنوبية تنقسم إلى ٤ انواع: السبأية أو الصائبة (وجدت في اليمن) واللحيانية (وجدت في شمال الحجاز (والثمودية وجدت في حوران) والصنوية (وجدت بجوار دمشق)، واكثرها يقرأ من اليمين إلى الشمال واقلها من الشمال إلى اليمين ثم من الشمال إلى اليمين سطرا بعد سطر. وفي الأبجدية السبأية ٢٩ حرفا واقدم نقش بها من القرن ٦ ق.م. ويظن انها ليست منحدرة من ابجدية مؤاب ولكن تنحدر وإياها من أصل يحدده جاردنر بكتابة سينا. ففيها ٣ حروف مشتركة مع ابجدية سينا وهي] (ب) و □ (ف) في السبأية و + (ت ١ في الثمودية. ويرى البعض أن راي جاردنر مجرد افتراض لأن حروف أبجدية سينا لا تزال مجهولة القيمة الصوتية.

واهم تطوير أحدثه اليونان كان تخصيص بعض الحروب السامية المستعارة، وهي ٢٢ حرفا، لتستخدم حروف حركة بدلا من سواكن، ثم اضافة بعض الحروف. واقدم نقش يوناني عثر عليه في جزيرة ثيرا ويرجع إلى القرن ٩ أو ٨ ق.م. والنقوش اليونانية في ابو سمبل وترجع إلى القرن ٧ ق.م. ثم نقش من كورنيث ونقش من أثينا من القرن ٦ ق.م. واقدم نقوش ثيرا تقرأ من اليمين إلى الشمال وبعضها حلزوني في الاتجاهين بالتبادل سطرا بعد سطر ويسميه اليونان «برسترو فندون»، وبعضها من الشمال إلى اليمين. وفي جميع الأبجديات اليونانية تستخدم أ، هـ، ع في مقام حروف الحركة باعتبارها حروفا تنفسية.

وقد نشأت في آسيا الصغرى عدة ابجديات موازية لليونانية منها ابجدية ليديا (واقدم نص منها من القرن ٤ ق.م.) وعدد حروفها ٢٦ ولكن بعضها لا تعرف بعد قيمته الصوتية. ومنها الأبجدية الخلقيدية أو اليونانية الغربية التي نقلها إلى ايطاليا المستوطنون اليونانيون فيما يسمى بالاغريق الكبرى. وكان يظن حتى وقت قريب أن الأبجدية اللاتينية، ام اكثر الأبجديات الأوروبية الحديثة مقتبسة من الأبجدية الخلقيدية نتيجة الاتصال باليونانيين المستوطنين في جنوب ايطاليا. ولم يحسب احد حسب تأثير اوروبا في الأبجدية اللاتينية بسبب ضآلة علم الناس بحضارتها. اما الآن فمعروف انه كانت في ايطاليا ٦ ابجديات هي:

١ ــ اللاتينية (حول روما).
٢ ــ الفالسكية.
٣ ــ الاترورية.
٤ ــ الاومبرية.
٥ ــ الاوسكية (وكلاهما مستمدتان من الاترورية).
٦ ــ الميسامية (في كالاتريا وهي يونانية الاصل).

وهذه الأبجديات موزعة حسب مناطق في ايطاليا، وكانت الاترورية تحيط باللاتينية من ثلاث جهات، وهذا يفسر تأثيرها فيها كما يفسر تأثير اترورية في حضارة الرومان.

والراي السائد الآن في منشأ الاترورية انها انتقلت إلى ايطاليا بانتقال اصحابها إليها من آسيا الصغرى غالبا في القرن ٩ ق.م.

أما الكتابة العربية فقد تطورت من الكتابة النبطية التي ازدهرت بين ٣٠٠ و ٢٠٠ ق.م وهي فرع من الكتابة الارامية، واقدم كتابات عربية

□ الحروف اليونانية والمصرية القديمة.

الأبجدية المصرية القديمة والفينيقية

معروفة هي نقوش معبد الروم من القرن ٣ أو ٤ ولكنها اقرب إلى النبطية منها إلى العربية وكذلك نقش مداين صالح (سنة ٢٦٧) ونقش أم الجمال وهو من لغتين (سنة ٣٠٥). أما نقش النجارة سنة (٣٢٨) فعربية خالصة ولكن أبجديته نبطية.

وأقدم نص منها وجد في تيماء شمال غرب شبه جزيرة العرب ويرجع إلى القرن ٥ ق.م. وهناك نقوش أحدث اسمها النقوش النبطية وترجع من سنة ٩ ق.م. إلى سنة ٧٥ ميلادية كما أن هناك النقوش الجرافيتية على صخور جبل الطور، وكلاهما بين تطور الأبجدية النبطية حتى القرن ٣.

وفي أوائل العصر الاسلامي كان هناك نوعان من الكتابة العربية الكوفية والفشكية (النسخ). والأولى بطل استعمالها إلا من الأغراض الرسمية حيث لا يمكن استعمال الخط الكورسيف (المقوس). والكتابة النشكية هي أصل الكتابة العربية الحديثة. واستعمل المسيحيون في شمال سوريا نوعا من الأبجدية يسمى استرانجيلو نقلها المبشرون النساطرة إلى وسط آسيا، واشتق منها عدد كبير من الأبجديات التي امتدت شرقا حتى بلغت منشوريا.

وأقدم نصوص آرامية ترجع إلى ٨٠٠ ق. م. تقريبا، وقد وجدت في سندجرلي بشمال سوريا وابجديتها لا تختلف كثيرا في هذه المرحلة عن أبجدية حجر مؤاب. وقد استعملت في الأشورية كخط كورسيف (مقوس) جنبا إلى جنب مع الخط المسماري المستقيم. وتتميز الآرامية باتجاهين احدهما تحول الزوايا إلى اقوس والثاني فتح رؤوس الحروف.

واكتمل هذان الاتجاهان في الفترة الفارسية وتبلورا بالذات في البرديات الآرامية في مصر بين ٥٠٠ و ٢٠٠ ق. م. وتطورت الآرامية ايضا إلى الأبجدية العبرية الحديثة المربعة وإلى ابجدية تدمر.

وظهرت في آسيا الصغرى بين ١٠٠٠ و ٥٠٠ ق. م. مجموعة من الأبجديات المستمدة من أصل واحد والبعض يرجح أنها مرحلة قديمة من الآرامية، وكانت الأبجدية اليونانية بفرعيها الشرقي والغربي أحد هذه الأبجديات.

والرأي الشائع هو ان الأبجدية الفينيقية كانت ذات أثر مباشر في نشأة الأبجدية اليونانية أو في تطويرها على الأقل، ولكن واضح من هذا الجدول ان الآرامية أولى بهذا الوصف. وأيا كان الأمر فمنشأ السامية الشمالية من فينيقية وآرامية، هو موضع الجدل الأكبر بين العلماء، ولا تزال نتائجه معلقة حتى اليوم.

والنظرية المصرية تقول ان الأبجدية الفينيقية مأخوذة عن الهيروغليفية أو الهيراطيقية المصرية وأهم دعاتها لنورمان وروجيه ولوزاتو ومونتيه وكورت زيته واقدم نص فينيقي معروف هو حجر بيلوس (جبيل الحالية بلبنان) ويرجع إلى نحو ١٥٠٠ ق.م. ومن أهم ما قيل إلى جانب مقارنات أشكال الحروف ان حفائر سوريا بعد ١٩١٨ (راس شمرا) تدل على أن أثر الحضارة المصرية القديمة في فينيقيا عامة وفي ببلوس خاصة موغل في القدم فهو

يترامى إلى ٣٠٠٠ ق.م. على الاقل، وربما قبل ذلك في عصر طبنة، وانه في بـبـلوس ذاتـهـا بـين ٢٠٠٠ و ١٥٠٠ ق.م. وهـي فتـرة ظهـور الابجدية الفينيقية، كان الناس في ببلوس ذاتها يقرأون المصرية القديمة ويتداولونها تداول اللغة المألوفة.

هناك أيضا النظرية الاكادية التي تحدد المصدر بحضارة بابل القديمة او حضارة سومر واكاد وأهم دعاتها ديكه وبـايـزر ودبليتش وتسيمـرن وففربيه إلى حد ما. وهناك النظرية الأبجدية التي ترد الكتابة الفينيقية إلى أبجدية قبرص المقطعية او إلى اية حضارة مينوس بجزيرة كريت، وأهم دعاتها برايتوريوس وآرنر ايفانز وفريز وشنايدر ودابيه. أما شابوتييه فقال ان ابجـدية فينيقيـا مـأخـوذة عن هيروغليفية مصر من خـلال كتابـة كريت. وهناك النـظرية الفلسـطينية التي ترى أن الفلسطينيين لم يبتكروا الأبجدية وإنما نقلوها من بحر ايجه إلى فينيقيا حول ١٩٠٠ ق.م. وأهم دعـاتها جـونتر شـوخارت. وهـنـاك النظرية البروتوسينـائية (أي كتـابة سينا الأصلية) وهي امتداد للنظرية المصرية والكتابة البروتوسينائية هي النقوش التي اكتشفها فلندرز بيترى في ١٩٠٤ و ١٩٠٥ في هضبة سرابة خـادم بحوض المنـاجم وسط شبـه جزيرة سينـا وتاريخهـا غير محـدد فمناجم سينا كانت تستغل كمحاجر للفيروز في فترتين هما الأسرة ١٢ (أي نحو ٢٠٠٠ ق.م.) والأسرة ١٨ (أي نحو ١٥٠٠ ق.م.) ويرى بيتري وجريم انها من الفترة الأخيرة، اما زينه فيعود بها إلى الأسرة ١٣ أو ١٤ او إلى عصر الهكسـوس، وينسبهـا بوتان إلى الأسرة ١٢ وهو الرأي الذي استقر عليه العلماء اليوم. والنقوش محفـورة في مدخـل المحاجـر وعلى التمـاثيل في معبـد الربـة حتحـور اوهاتور حامة المنطقة ولقبها «سيدة الفـيـروز». واكـتـشـاف وثـائـق بـروتوسينـائيـة في فلسـطين جـدد الاهتمـام بها وخصص لهـا مكانـا مستقلا في تاريـخ الأبجديـة وهناك فريق مثل ايسلر وبراستون يرى أن البـروتوسينـائية مـوازية للفينيقيـة لا سـابقـة عليهـا ويفتـرض وجـود ابجدية سامية أصلية (بروتوسامية) أو ما قبل سامية كانت هي المصدر.

واخيـرا فهنـاك نـظريـة الخلق الابتكاري وهي تقول أن الفينيقيين ابتكـروا ابـجـديتـهم بـأنـفسـهم ولم يأخذوهـا عن احد ودعـاة هذا الرأي هم فـايـل وجـروت ودوسـو وسوندوال ودبرينجر.

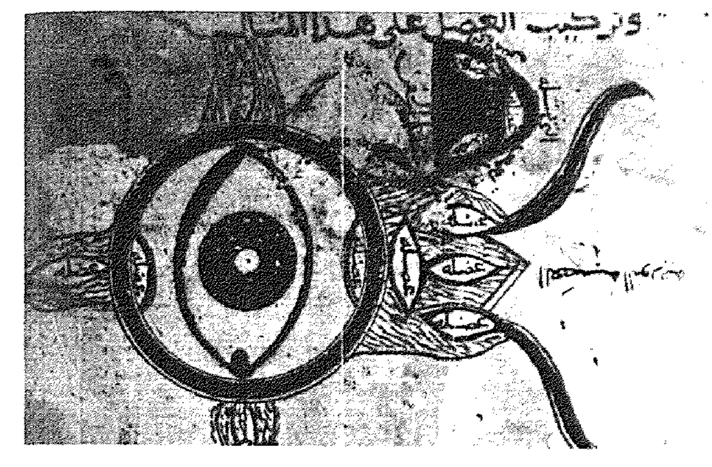
●

إلى المشتركين الكرام

نرجو من جميع مشتركينا في الخارج، إفادتنا عن أي نقص يحصل لديهم في اعداد المجلة، خلال مدة أقصاها ثلاثة أشهر من تاريخ صدور العدد، وخلال شهرين بالنسبة لمشتركينا في الداخل.

وذلك، لتعذر تأمين الأعداد لهم بعد هذه المدة، بسبب تحويلها إلى قسم التجليد.

الإدارة



أعلام في الطب العربي

عمّار بن علي الموصلي

من مشاهير أطباء العيون عند العرب

فاضل خليل ابراهيم

يزخر التراث العلمي العربي، بالعديد من الشخصيات العلمية، التي كان لها الدور الكبير في رفد هذا التراث، بمساهمات مبدعة وأصيلة. ففي مجال الطب، ظهر لدينا أطباء اختصوا في جوانب طبية معينة، منها طب العيون، الذي اشتهر فيه الطبيب أبو القاسم عمار بن علي، وعُرف في أوروبا باسم (Cana musli)[١].



وُلد عمار في الموصل، وإليها نُسب، ثم سافر في طلب العلم إلى خراسان وفلسطين، واستقر أخيرا في مصر، حيث أخذ يمارس الطب، وذاعت شهرته في أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي[٢] (٣٨٦ ــ ٤١١هـ/ ٩٩٦ ــ ١٠٢٠م)، وقد توفي فيها سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م.

يعتبر الموصلي من أكبر أطباء العيون أصالة وإبداعا، فقد أشاد به ابن أبي أصيبعة بقوله: «كان كحالا مشهورا، ومعالجا مذكورا، له خبرة بمداواة أمراض العين ودربة بأعمال الحديد»[٣]. كما قال عنه المستشرق الدوميلي: «وكان من أعظم أطباء العيون في عالم العرب»[٤].

وتقرن شهرته هذه، بكتابة الموسوم بـ «المنتخب في علاج أمراض العين»[٥]، وعرف أيضا باسم «المنتخب في علم العين، وعللها، ومداواتها، بالأدوية»[٦]. وهو الآن لا يزال مخطوطا في عدد من مكتبات العالم.

وتظهر أهمية الكتاب وفائدته الكبيرة، في احتوائه على الكثير من الملاحظات والاشارات المبتكرة[٧]، إضافة إلى المعلومات التي يذكرها الموصلي عن العمليات التي عملها بنفسه، من ذلك ذكره لست طرق لاجراء عملية القدح للماء النازل في العين «مرض الساد ــ Cataract»[٨]، كانت إحداها بالمص[٩]. حيث استعمل أنبوبا زجاجيا دقيقا، ليدخله في مقدمة العين، ويفتت به العدسة المعتمة، ثم تمتص هذه العدسة المفتتة. وكانت هذه العملية هي أول عملية حديثة «للساد»، وظلت سائدة في الشرق، ولم يعرفها الغرب في القرون الوسطى. وقد توصل العلم الحديث إلى استعمال هذه الطريقة[١٠].

ويمتاز الكتاب ومؤلفه أيضاً، بطريقته العلمية في الكلام عن الأمراض وتصنيفها، فهو يصف المرض وتشخيصه، ويبين أعراضه وعلاجه في

الفصل الواحد، كما هو الحال في عصرنا الحاضر، خلافاً لمن سبقوه، إذ كانوا يذكرون أعراض الأمراض كلها في فصل، والتشخيص في فصل، والعلاج في فصل آخر[11].

وقد أصبح هذا الكتاب، منهجاً للتعليم في طب العيون في جامعات الغرب من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر[12]، حيث ظهرت له هناك، ترجمات لاتينية، من أشهرها ترجمة داود الارميني (David Hermenus)، التي طبعت في باريس سنة ١٩٠٤م وفي نابولي سنة ١٩٢٣م. كما اشتهرت له ترجمة المانية، نشرها هيرشبرج (J. Hirschberg) وليبرت (E.J. Lippert)[13].

* * *

المصادر والهوامش

(١) الدوميلي: العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى، الطبعة الأولى، دار القلم ١٩٦٢م، ص ٢٤.

(٢) فرات فائق خطاب: الكحالة عند العرب، وزارة الاعلام، العراق ١٩٧٥م، ص ٢٨.

(٣) انظر كتابه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، المطبعة الوهبية ١٨٨٢م، ج ٢ ص ٨٩.

(٤) انظر المصدر السابق، ص ٢٤٠.

(٥) حكمت نجيب: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، جامعة الموصل ١٩٧٥م، ص ٦٤.

(٦) ابن ابي اصيبعة: المصدر السابق، ج ٢ ص ٨٩.

(٧) حنين بن إسحاق: العشر مقالات في العين، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٢٨، ص ١١.

(٨) الساد: فقد البصر الناتج عن فقدان شفافية العدسة العينية، والتي هي جسم شفاف، في الأحوال الاعتيادية لا يمكن رؤيتها. ولكنها تظهر كقرص ابيض وراء البؤبؤ عند إصابة العين بهذا المرض.

(٩) محمود الحاج قاسم: طب العيون عند العرب، مقال في مجلة المورد العراقية م ٤، عدد ٢، ١٩٧٥، ص ٥٠ ــ ٥١.

(١٠) عبد المنعم عبد الحميد: الساد «الماء الأبيض» بين القديم والحديث، مقال في مجلة الجامعة، تصدرها جامعة الموصل، العدد ١٥، السنة الثانية ١٩٧٢م، ص ٦٨ ــ ٦٩.

(١١) محمود الحاج قاسم: المصدر السابق، ص ٥٢.

(١٢) عبد الحميد العلوجي: تاريخ الطب العراقي، بغداد ١٩٦٧، ص ٥٤٥.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٥٣٧.



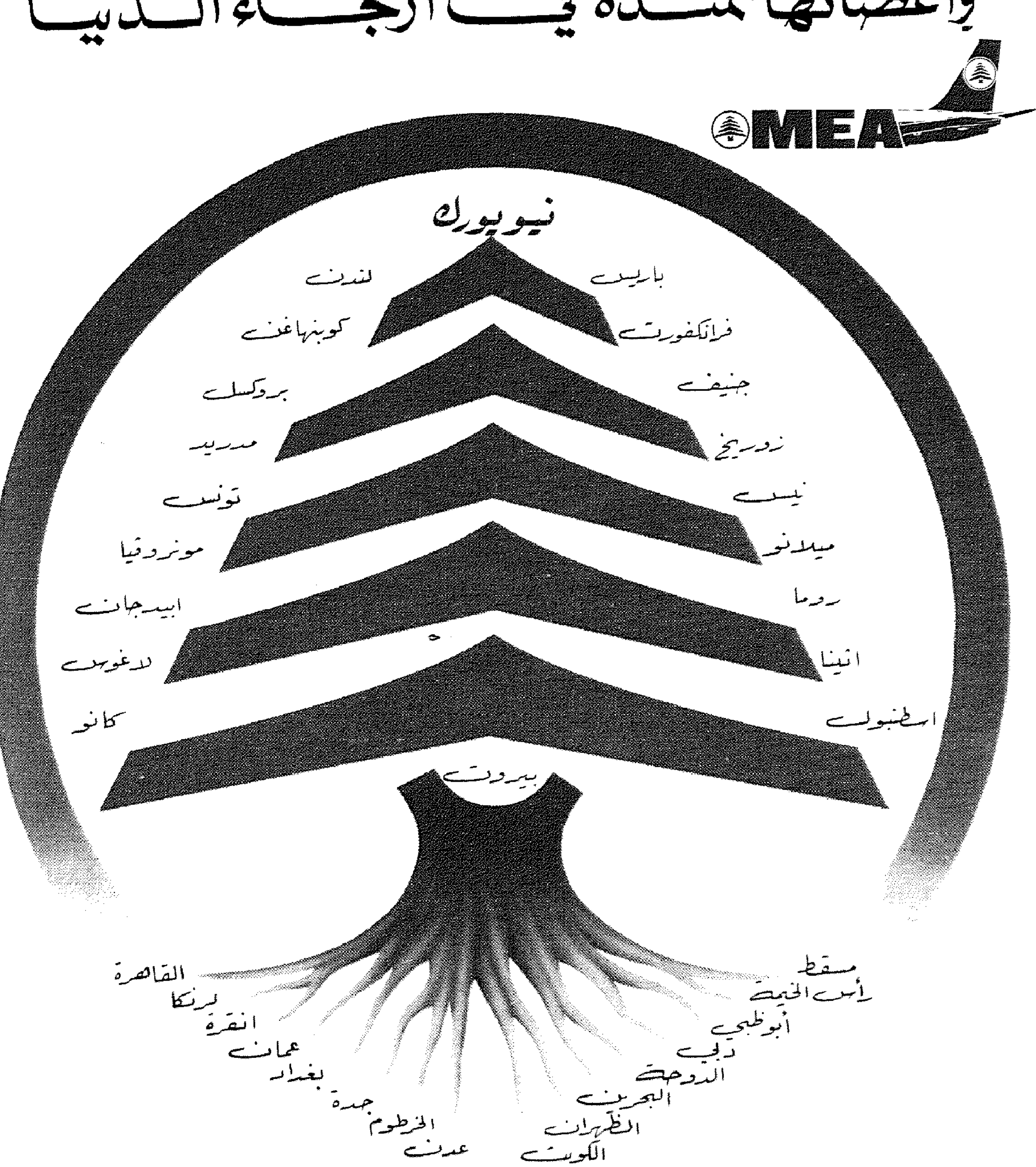
«دعوة لأصحاب رسائل الماجستير والدكتوراه»

يسر مجلة «تاريخ العرب والعالم» أن تدعو أصحاب رسائل الدكتوراه والماجستير في التاريخ في الجامعات العربية والأجنبية للتعريف برسائلهم على صفحاتها وذلك في مقالة تتراوح ما بين الألف كلمة والألف والخمسمائة كلمة وتشمل على لمحة موجزة عن الموضوع المعالج، مع الاشارة إلى مكان وزمان تقديمها وإسم الأستاذ المشرف عليها.

وإذ تفتح المجلة هذا الباب أمام اصحاب الرسائل في علم التاريخ، تتوخى أن تحقق بعضاً من الأهداف والتي أهمها:

- أولا – التعريف بانجازات الباحثين والطلاب العرب في ميدان علم التاريخ.
- ثانياً – التعرف على توجهات الجامعات العربية والأجنبية في نوعية الموضوعات المطروحة ومناهج البحث المتبعة.
- ثالثاً – توفير جانب من الببليوغرافيا التاريخية في موضوعات الرسائل التي قدمت ونوقشت في الجامعات العربية.

موطنها لبنان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة
جذورها راسخة في الشرق الأوسط
وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا



من روائع المجوهرات التونسية التقليدية من كتاب «مجوهرات تونسية»، كليمنس سوجيه



الغلاف الأول

□ الغلاف الأول
عساس عربي
للرسام بتي
(عام ١٨٨٣)

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.